سموم الاستشراق والمستشرقين

تأليف

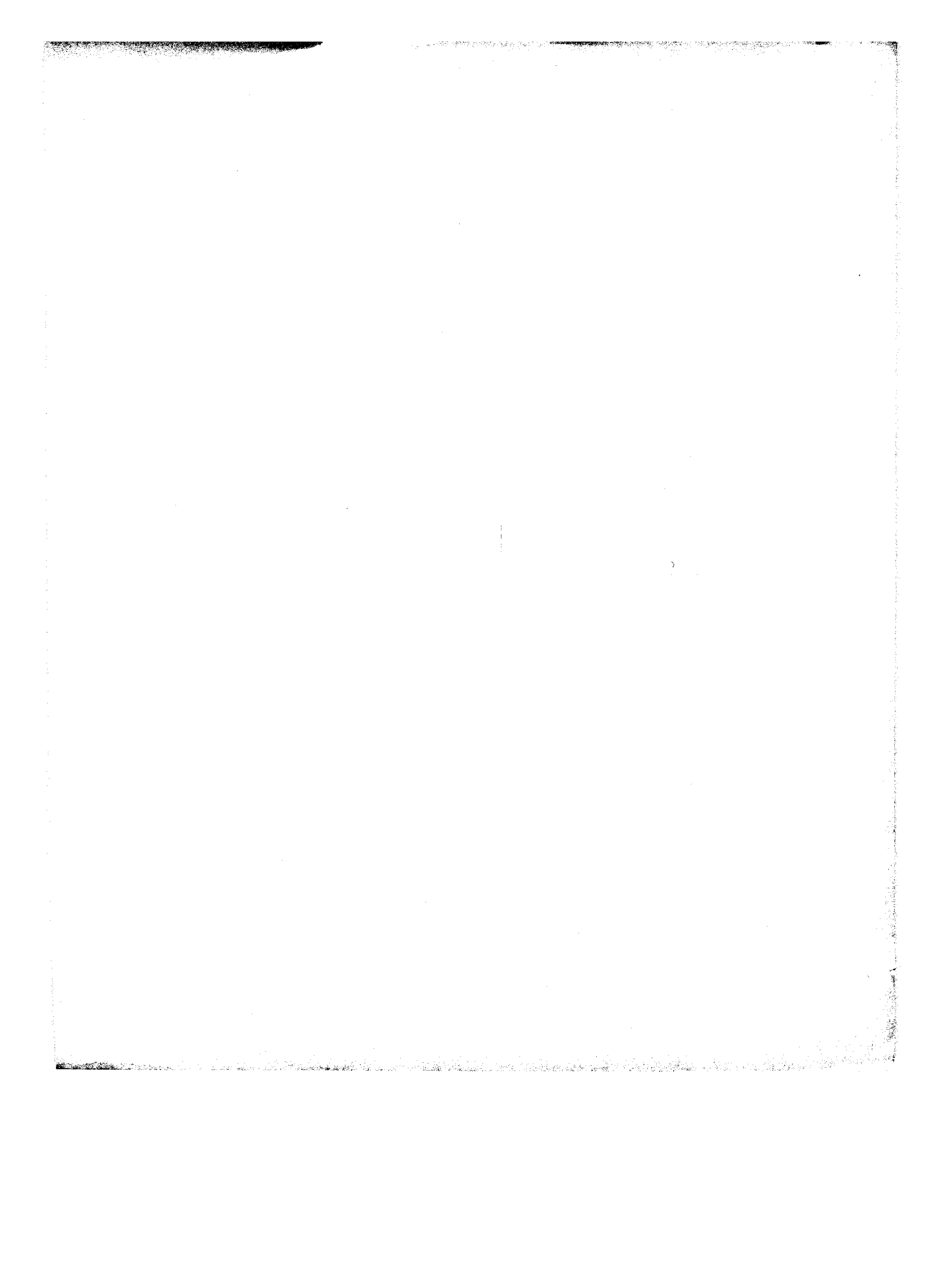
أنور الجندى

دار الجيل
بيروت

مكتبة التراث الإسلامي
القاهرة

الطبعة الثانية
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

سموم الاستشراق والمستشرقين

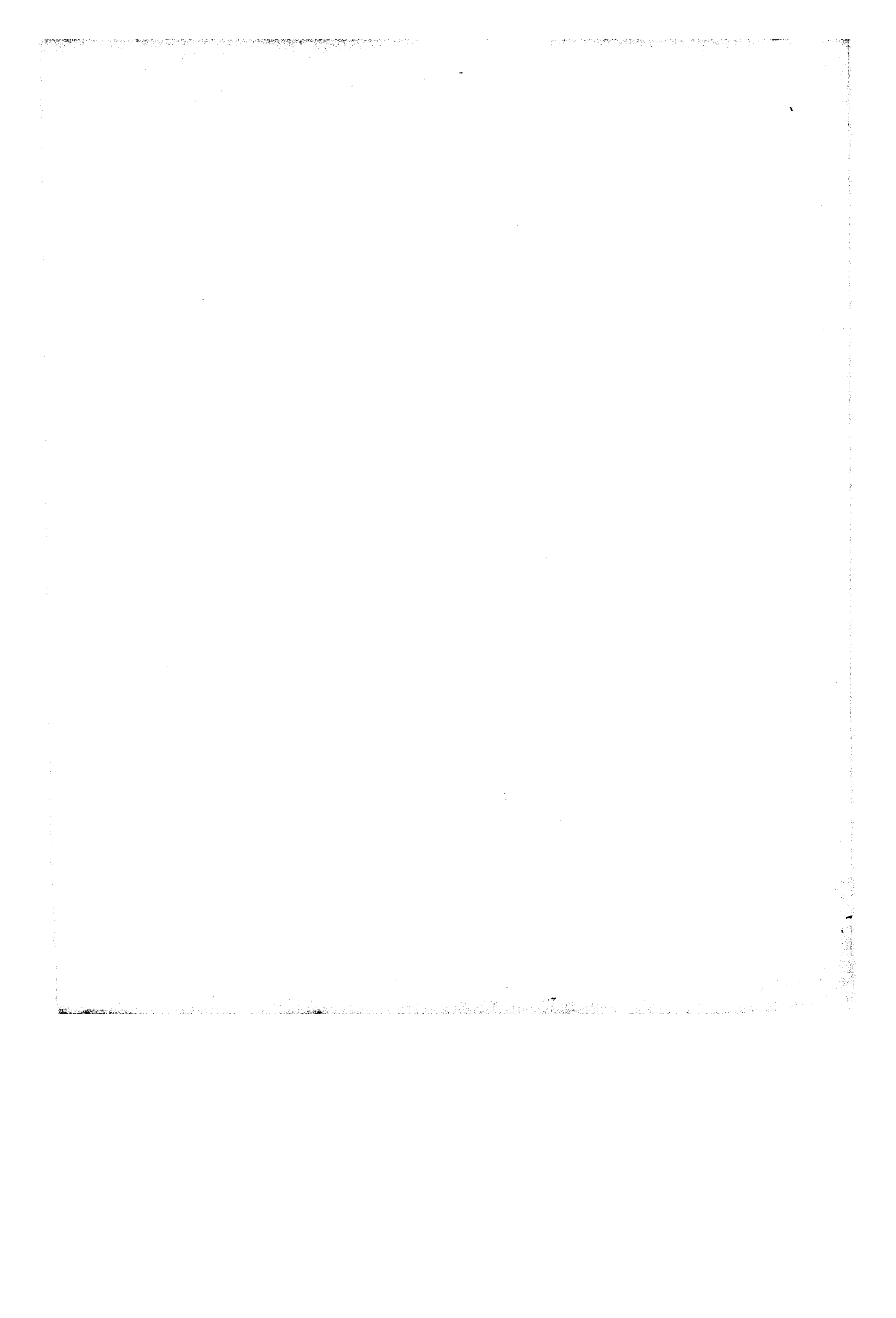


بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

(وان هــذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) •

[الانعام]



بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

أخطـار المراجـع الزائفـة والمصـادر المسـمومة

إن أخطر ما يواجه الباحث المسلم فى مجال الأدب والتاريخ والثقافة : تعدد المراجع ذات المصادر المختلفة من عربية أصيلة أو غربية وافدة ، سواء أكانت مستقاة من المصادر المنحرفة أو أجنبية أساسا ، وهو ازاء حاجته الى اعداد بحثه يسأل عن المراجع فيجد أقربها إلى يده تلك المراجع الغامضة الهوية ، فلا يعرف ما اذا كانت سليمة وموثقة وصالحة لأن تكون مرجعاً للبحث أم لا ؟ واذا صلحت للبحث فهل هى توصل الى الحقيقة ، وهل تمثل جوهر المفاهيم الإسلامية الأصيلة ؟ ذلك أن هناك محاذير عديدة فى هذا المجال ، هى أن قوى غربية ومتعددة ، حاولت من وقت بعيد مراجعة التراث الإسلامى بقصـد واضح وهـدف مدبر ٠ فعملت على ابراز جوانب منه والاغضاء عن جوانب ، وعلى ضوء هذا الهدف المسموم المدبر الذى يرمى الى ابراز جوانب الضعف والاغضاء عن جوانب القوة ، كتبت الموسوعات الأوربية فى الشرق والغرب عن الإسلام ، فادخلت أشياء كثيرة من الشبهات والروايات الضعيفة ، وحرفت جوانب أخرى من النصوص ، وقد جرى هذا كله من أجل اقرار أشياء خطيرة من أهمها :

اولا : القول بأن فلسطين كانت فيها لليهود آثار وتاريخ وحضارة ، وذلك لتأييد الدعوى الباطلة التى حمل لواءها (هرتزل) ومن جاء بعده من دعاة الصهيونية ، وهو خطأ محض ٠

ثانيا : القول بأن العرب كانوا يعيشون فى مرحلة (الانحطاط) ، حتى

جاءت الحملة الفرنسية وجـاء الغربيون فكانوا هم ، وكانت مؤسساتهم التبشيرية وارسالياتهم ، هى مصـدر اليقظة ، وهو افتراء محض .

ثالثا : ان العرب عاشوا فى ظلال الاحتلال اليونانى والرومانى سنوات طويلة ، وقالوا للمصريين انهم احتلوا من قبل العرب ، كما أججوا الخلاف بين الفرس والترك ، وبين العرب والترك ، وبين البربر والعرب ، وأثاروا النزعات القديمة وبعثوا الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية ، لتمزيق وحدة العرب وجماعة المسلمين.

رابعا : الدعوى بأن الفكر الاسلامى يستمد بعض مقوماته من الفلسفة اليونانية والقانون الرومانى ، حتى النثر الفنى والنحو والبلاغة ، حاولوا نسبتها الى الفرس واليونان وهو زيف القول .

خامسا : إثارة الشبهات حول البطولات الإسلامية ، واذاعة اتهامات الشعوبية الباطنية وخصوم الإسلام حول هـذه البطولات وحول المواقف التاريخية ، وليس هذا صحيحا على اطلاقه .

هذه بعض المادة التى أوردها الغربيون فى دوائر معارفهم وفى أبحاثهم العديدة ، التى نشروها باللغات المختلفة (والتى ترجم منها الى اللغة العربية عدد كبير) ،وكانت مقدمة لعملية الغزو الفكرى والسياسى للعالم الإسلامى ، ثم كان توجيه المدارس والجامعات والمعـاهد ذات الولاء الاستعمارى والإرساليات الى هذه الجوانب ، ومن ثم تضمنتها مناهج المدارس الوطنية التى نقلت مناهجها من معاهد الإرساليات ، وكان يشرف عليها خبراء أجانب هم فى الأصل قسس وعلماء لاهوت ، ومن ثم تضمنتها مناهج الأدب والتاريخ والفلسفة واللغة .

ثم عرضت الدراسات الحديثة خالية من أثر الإسلام فيها ، منكرة هذا الأثر الواضح فى دراسات القانون والعلوم التجريبية والنفس والأخلاق والتربية والاقتصاد والسياسة ، فأصبحت هذه العلوم تدرس على أنها

نتاج أوربى خالص • فى حين تكشف الحقيقة العلمية عن دور ضخم للفكر الإسلامى فى هذه المجالات كلها •

وقد عجز المتصدرون للثقافة الإسلامية أن يجعلوا لهــذه المناهج مقدمات تفضح زيف التغريب والاستشراق ، وتقدم الحقائق الدامغة الدالة على مكان العرب والمسلمين ودورهم فى بنــاء الفكر الانسانى فى مختلف مجالاته ، فضلا عن تقدير ما أهداه الإسلام للبشرية من ثمار جلى تتمثل فى (مذهب المعرفة الإنسانى) ، فى الفكر ، ومذهب (المنهج العلمى التجريبى) فى العلوم ، ثم جاءت مناهج المدارس الوطنية فى ظل النفوذ الاستعمارى ، فأخذت مناهج المدارس الأجنبية فلم تجر فيهــا تعديلا كبيرا ، ثم كانت الجامعات وقد تولاها أساتذة يؤمنون بوطنهم ، ولكن دراساتهم فى مدارس الغرب قد أعجزتهم عن مطاولة أبعاد الفكر الإسلامى وأثره فى الحضارة الحديثة والفكر الانسانى المعاصر •

بل ان بعضهم قد تشكل نفسيا وفكريا تحت تأثير ظروف مختلفة تحط من قدر العرب والإسلام واللغة العربية جميعا مع إعلاء الآداب الغربية والبطولات الغربية ، وذلك نتيجة لمــا لقنوا من مراجع الأجانب وتحت تأثير الأساتذة الأجانب •

غير أن هذه الغفلة لم تستمر طويلا ، فقد كشفت زيفها حركة « اليقظة الإسلامية » ، وبدأ ضوء الحق ينفذ الى الفكر من جديد ، ومن أسف أنه جاء هذه المرة من بعض المنصفين من الغرب من أمثال جوستاف لوبون ، وتوماس كاريل ، وتوماس أرنولد ، وغيرهم كثيرون ، ثم بدا فى الفترة الأخيرة من كتابات الدكتورة سجريد هونكه : « شمس الله تشرق على الغرب » وما كشف عنه برنارد شو ، وليوبولد فايس ، وغيرهم ، من كشف عن عظمة الفكر الاسلامى ودوره الواضح فى الفكر الغربى نفسه ومدى حاجة الانسانية اليه •

ومع ذلك فان العرب والمسلمين لم يتمكنوا بعد من إعداد المصادر والمراجع ذات الأصالة التى تمكنهم من وضع هذه الحقائق بين أيدى شبابنا وطلابنا ، فمازال الأساتذة يرجعون مع الأسف الى دوائر المعارف الأجنبية التى ترجم بعضها الى اللغة العربية مع الأسف ، دون أن يحاط بتصحيح واضح أو مراجعة شاملة ، وهذا شأن من يقرأ دائرة المعارف الإسلامية أو قاموس المنجد ، ودائرة المعارف الميسرة .

وفى مجال الأدب ، نجد هناك من لازال يعتبر كتاب (الأغانى) مرجعا ، وكتاب (ألف ليلة وليلة) مصدرا ، على الرغم من محاذير الاعتماد على مثل هذا النوع من التآليف أو غيرها من كتب المحاضرات ، ونحن فى حاجة دائمة الى التذكير بمصادر هذه الكتب ، ومراجعة أمر الذين قاموا على كتابتها وإعدادها ، فمؤلف الأغانى رجـل تصـفه المصـادر بالإسفاف والاضطراب ، وقد وصفت خلقه وصفا يرده عن أن يكون مصدراً أميناً ، فقد كانت صلاته بالناس قائمة على البذاءة ، وكان وسخاً قذراً جشعاً ، وكان على غير مفهوم الإسلام الصحيح ، وكان من الباطنية الذين يحقدون على الإسلام ، وله جوانب حسية تبعده عن استواء الطبيعة ، فضلا عن أن مصادره أيضا قد اتهمت .

والى ذلك فان كتاب (الأغانى) فى حدود ما أورده صاحبه فى مقدمته لا يعنى بتاريخ المجتمع الإسلامى ، ولكنه يركز على رسم صورة لأهل الغناء والسفه واللهو ، وحدهم ، وهذا يمثل جانباً واحداً من بين عدة جوانب أخرى كانت فى المجتمع ، لم يتحدث عنها صاحب الأغانى ، منها : أهل العلم ومجالس الفقه ، وجماعات الصوفية ، ومدارس الأدب ومجامع العلوم ، ومن هنا فقد كان من الظلم أن يعتمد عليه الباحثون فى رسم صورة للمجتمع الإسلامى فى عصره ، فيقال فى ضوئه : انه كان عصر شك ومجون ، اعتمادا على حياة جماعة من الماجنين من أمثال أبى نواس وبشار وغيرهم ، فى حين ينسى عشرات من أعلام الفكر والفقهاء والأئمة ، أمثال الحسن البصرى والشافعى ومالك والبخارى وغيرهم .

ويأتى بعد ذلك ، كتاب (ألف ليلة) ، وكتاب (كليلة ودمنة) ، وهما كتابان فارسيان هنديان فى الأصل ، أضيف الى الأول اضافات كثيرة مما يرويه الرواة من أساطير وأقاصيص وخرافات ، ليست فى جوهرها عمــلا محققا ، ولا علما موثقاً فكيف يمكن أن تكون مرجعا •

الحق أن المستشرقين ودعاة التغريب هم الذين ألحوا على هذه الكتب وأولوها الاهتمام ، وأعادوا طبعها ، وأذاعوا بها ، وحرضوا أولياءهم من التغريبيين أن يتحدثوا عنها ، وأن يحرضوا الباحثين على اعتمادها مراجع ، وذلك لأنها تفسد الحقائق وترسم صورة غير صحيحة ، ولا صادقة للمجتمع الإســـلامى •

ومن المصادر التى تحتاج الى انتباه ويقظة : كتاب الإمامة والسياسة ، وقد وصفه السيد محب الدين الخطيب بأنه كتاب لقيط مجهول النسب ، وأن مؤلفه (ابن قتيبة) برىء منه ، ولم يذكر له مترجموه كتابا بهــذا الاسم ، فضلا عن أن أسلوب القول فيه يخالف أسلوب ابن قتيبة فى كتاب المعارف ، وفى سائر كتبه ، والكتاب يشعر بأن مؤلفه كان بدمشق — وابن قتيبة لم يخرج من بغداد — إلا الى الدينور •

والمؤلف يروى عن ابن أبى ليلى ، وأبو ليلى كان قاضيا بالكوفة قبل مولد (ابن قتيبة) ، بنحو مائة وعشرين سنة ، ويذكر فتح موسى بن نصير لمراكش ، وهذه المدينة شيدها يوسف ابن تاشفين بعــد ابن قتيبة بمائة ســنة •

فكتاب (الإمامة والسياسة) لا يجوز لمؤلف أن يجعله من مصادره •

وكذلك كتاب (المضنون به على غير أهله) ، المنسوب الى الإمام الغزالى ، فهو مكذوب عليه ، وقد صحح ذلك السيد المرتضى الزبيدى فى شرح الإحياء (الجزء الأول ص ٤٤) ، حيث قال : اعلم أنه عزى الى الشيخ كتب منها (المضنون به على غير أهله) قال ابن السبكى : ذكر ابن

الصلاح آنه منسوب اليه ، وقال : معاذ الله أن يكون له ، وبين سبب كونه مختلقا عليه ، والأمر كما قال ، وقد اشتمل الكتاب المكذوب على الغزالى على التصريح ، بقدم العالم ونفى علم القديم بالجزيئات ، وهو ما يخالف آراء الغزالى فى صفوة كتبه .

أما كتاب (رسائل إخوان الصفا) فهو جدير بوقفة مستأنية : ذلك أن هذا الكتاب قد خدع الكثيرين ، وحاول دعاة التغريب إسباغ صورة من البطولة والكرامة على موضوعه وكاتبه ، وهم ما زالوا يرددون القول عن أهمية هذه الرسائل ، هادفين إلى تصوير الفكر الإسلامى وهو مكبل بقيود الإغريق ، وسلاسل اليونان ، وإن هذه الرسائل كانت عصارة هذا التأثير البالغ .

ومن الحق أن يقال إن : (الفكر اليونانى) ، بعد أن ترجم إلى العربية قد أحدث أثرا وهز بعض القيم ، ولكن هل استمر ذلك طويلا . وهل انهزم الفكر الإسلامى أمام الفلسفة الإغريقية كما انهزم الفكر المسيحى ومن قبله الفكر اليهودى . الحقيقة أن الفكر الإسلامى قد حطم هذه الدخائل وأعاد سيطرته مرة أخرى ، وعاد إلى الأصالة المتمثلة فى مذهب أهل السنة والجماعة .

هذا فضلا عما ارتبطت به هـذه الرسائل من تلك النظريات الفلسفية بالخصومة التى حمل لواءها أعداء الإسلام من الباطنية وبقايا المجوس لهدم الإسلام من الداخل .

ولذلك فإن أى عرض لرسائل إخوان الصفا لابد أن يكون واضحا معها ، إن جماعة إخوان الصفا الذين ظهروا فى القرن الرابع الهجـرى بالبصرة ، إنما هم جمعية سرية من الباطنية والمجوس والزنادقة الحاقدين على الإسلام واللغة العربية ، ولهم صلتهم المريبة بالحركات السرية التى كانت تعمل على تقويض المجتمع الإسلامى ، ولم يكن إخوان الصفا ،

وهم فى فى سبيل وضع منهجهم ، مخلصين للاسلام أو الدولة الإسلامية ، بل كانوا على العكس من ذلك يمهدون للقضاء عليها ، ولذلك فقد عمدوا الى الفلسفة اليونانية وأخذوا يجمعون بين الآراء اليونانية ونظريات أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وفيثاغورس وغيرها ، وبين العبادات الشرعية الإسلامية فى دعوة باطلة ، تقول ان الشريعة قد دنست بالجهالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، ويصفهم (أبو حيان التوحيدى) فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) فيقول : زعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وقال: انهم كتموا أسماءهم وبثوا رسائلهم فى الوراقين ، ووهبوها للناس وحفوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة والطرق الموهمة ، وقال انها : خرافات وكتابات وتلفيقات وتلزيقات • ويقول أبو حيان : ان هذه الرسائل مبثوثة فى كل فن بلا اشباع ولا كفاية ، ينكرون البعث بالأجساد (الرسائل ج ٣ ص ٧٨ و ج ٤ ص ٤٠) ويفسرون الآخرة والجنة والنار ، خلافا لما تواتر عند المسلمين ويقولون : هى للنفوس الشهيرة الهائمة فيما دون فلك القمر مع إخوانها من النفوس التى جهلت ذواتها فى الحياة الدنيا ، ويفسرون الكفر والعذاب باطنيا وفلسفيا ، وتشتمل (أى الرسائل) على كثير من الآراء الخيالية ، بعضها متلقف من اليونان وبعضها وليد الأذهان • وبعضها تراث الكهان ، كأسرار الأعداد والتنجيم والفأل والزجر والسحر والعزائم والإيمان بطوالع النجوم وتأثيرها ، وموسيقى الأفلاك ونغماتها • وتشتمل كذلك على عقيدة الوحى والإمام المستور والتقية ، وفيها إعداد النفوس والعقول لدولة جديدة ، وإخطار بانتهاء الدولة العباسية وزوالها •

وبالاختصار فهى مجموعة غريبة من الحكمة والديانة والشعوذة والكهانة والسياسة ، تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية ونظرياتها وأوهامها وتنهار بانهيارها وليس لها أهمية كبيرة • ولولا الاضطراب الفكرى الذى كان يسود العالم فى القرنين الرابع والخامس لما نالت هذا الاهتمام ••

وقد أكد الباحثون أن هذه الرسائل كانت محاولة لوضع نظام جديد يحل محل الشريعة الإسلامية ، وقد أخفقت هذه المحاولة إخفاقاً تاماً فلم تنتج نظاما علميا ولم تنشىء مجتمعا يقوم على أساسها ، وهى مجموعة من الآثار التاريخية العتيقة التى لا تأثير لها فى الحياة ، ولامحل لها إلا فى المتاحف والمكتبات ، ويشير كثير من الباحثين إلى الفرق بين عمل إخوان الصفا وبين عمل الفلاسفة من أمثال : ابن سينا والفارابى فإن هؤلاء الفلاسفة قد حرصوا على التوفيق بين الفلسفة اليونانية والإسلام فى ضوء القرآن ، أما إخوان الصفا فلم يأخذوا الإسلام أساسا ، بل خلطوا الفلسفة اليونانية بالأديان المختلفة ، ولم يلتزموا بمفاهيم الإسلام ، ولذلك جاء مفهومهم فى (ذات الله) سبحانه وتعالى مفهوماً فاسداً . وقد وصفهم كثير من الباحثين بأن آراءهم مفككة خلطت الفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية بخرافات السحر والتنجيم ، وأسمار الغالين وحكايات كليلة ودمنة ، وقد أشار التوحيدى إلى أنه حملها إلى أبى سليمان المنطقى السجستانى وعرضها عليه فنظر فيها أياما وتبحرها طويلا ، ثم ردها إلى وقال :

« تعبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أجروا ، وحاموا وما وردوا وغنوا وما أطربوا ونسجوا فهلهلوا ومشطوا ففلفلوا » ، **وقد أكد الباحثون بأن فلسفة إخوان الصفا ليست مستمدة من المصادر الإسلامية الأصيلة ، ولكنها مستمدة من فلسفات اليونان من ناحية ، وفلسفات المجوس وعبدة النيران والكواكب ، وجماع الزرادشتية والمانوية والمزدكية . وهم ينظرون إلى الأنبياء نظرة ملحدة فيرونهم كالحكماء ، وقد ادعوا أنهم إنما يريدون إعادة الوحدة إلى المسلم والنصرانى والمجوسى واليهودى والأفلاطونى والمشائى والفيثاغورى ، هم فى الأغلب يمجدون المجوسية ويجعلونها افضل الأديان ومن هنا يبدو خطرهم وإفسادهم من حيث إن الإسلام هو الدين الخاتم ، دين التوحيد الخالص ، المحرر من الوثنيات القائم على النص الموثق .**

وهناك مصدر آخر خطير غاية الخطر هو كتاب (انساب الأشراف) للبلاذرى فهذا الكتاب طبع منه جزء فى ألمانيا عام ١٨٨٣ ، ثم تولى أحد

اليهود الصهيونيين طبع جزء آخر منه عام ١٩٣٦ ، طبعه فى أورشليم ، وقدم له بالعبرية ، ومن هنا جاءت شبهة هذا الكتاب المضطرب الذى اعتمد عليه بعض الباحثين أمثال طه حسين ، فى القول بأن شخصية (عبد الله بن سبأ) شخصية وهمية ، وهذا يتفق مع مخططات اليهود فى إنكاره والتهوين من شانه ، وهو ما جرى على القول به مؤلف الفتنة الكبرى ٠

الفصـــل الثـــانى

تحفظـــات عـــلى :

دائرة المعـــارف الإسلامية والمنجـــد ، والموسوعة الميسرة ·

إن من اخطر ما يواجه المثقفين المسلمين اليوم أن يجدوا بين أيديهم موسوعات ومؤلفات تقدم لهم الفكر الإسلامى من وجهة نظر « غربية نصرانية » تختلف اختلافاً أساسياً عن مفهوم الإسلام الأصيل ، وقد كتبت هذه الدراسات والموسوعات من خلال هدف واضح هو « تغريب » الفكر الإسلامى وتزييف مفاهيمه وإثارة الشبهات حول حقائقه ·

يتمثل هذا فى عدد من دوائر المعارف التى نجدها بين أيدينا الآن ، فى كل المكتبات العامة وفى مكتبات الجامعات وكليات الآداب واللغة العربية ، وفى المعاهد التى يتعلم فيها أبناؤنا ، ونجد هذه الموسوعات ميسرة فى أيدى شبابنا فى كل وقت ، ومن هنـــا يكون الخطر لأن هذه الموسوعات الميسرة مسمومة فى كثير من موادها ، ولأنها تفتقر الى المفهوم الصـــحيح الذى يتمثله الإسلام فى جوهره الحقيقى ·

لذلك فإننا يجب أن نكون على حذر شديد فى مواجهة هذه الموسوعات التى نجد الآن فى المكتبات العامة منها :

— دائرة المعارف الإسلامية ·

— قاموس المنجـــد ·

— الموسوعة العربية الميسرة ·

— يقظة العرب •

— شمائل المصريين المحدثين •

هذه الموسوعات زائفــة من حيث انهــا مقدمــة بأقلام مستشرقين متعصبين ، لبعضهم صــفة الولاء الكنسى ، والآخرون لهم صــفة الولاء الاستعمارى والصهيونى والماركسى ، وهى قد كتبت أصلا لتقدم للشباب المغربى ، الذى يعدونه للعمل فى الأقطار العربية والإسلامية ، من حيث يشكلونه على مفاهيم معارضة لحقائق الإسلام ، ليكون ذلك وسيلة لعملهم فى تشويه حقائق الإسلام وإلقاء السموم وإثارة الشبهات •

وقد غلبت عليها أهداف مضمرة وراء العرض الذى يحمل طابعاً علمياً زائفا يمكن أن يصل — مع التحليل الواضح — الى أن يكون مجموعة من الأهداف التلمودية أو المطامع الماسونية وتعاليمها المبثوثة وراء الكلمات البراقة ، والعبارات الخادعة التى تستهوى نفوس الشباب الغض ، فى مرحلة سابقة لاكتمال ثقافته الإسلامية ونموه الأخلاقى ، كما اهتمت بإبراز البدع الدخيلة على الإسلام والتوسع فيها باستفاضة كبيرة ، كأنها أصول مقررة فى حين يبرأ الإسلام منها وما جاء إلا لمحاربتها •

اولا — دائرة المعارف الاسلامية :

وضعت دائرة المعــارف باللغــات الأوربيــة فى دوائر الاستعمار والاستشراق والتبشير ، بهدف أساسى هو أن تكون مادة فى أيدى الخبراء والمبعوثين الذين ترسلهم دوائر وزارات الاستعمار الى عالم الإســلام والعروبة ، ولذلك فهى تنضح بالحقد والتعصب والشكوك والاضطراب ، وقد كتبها جهابذة التبشير والاستشراق وحملوها كل خصوماتهم وأحقادهم •

وقد لفت الباحثون المنصفون النظر الى أخطاء دائرة المعارف عندما

أراد أن يترجمها نفر من الكتاب فى الثلاثينات ، فقد تصدى لهم أكثر من باحث منصف يعارض خطتهم ويطالبهم بتصحيح تلك الأخطاء فى صلب البحث ، ولكنهم اكتفوا بالتعليق على هذه الشبهات فى الهوامش ، ففوتوا كثيرا من الحقائق على القارىء المتعجل الذى لا يعنى بالرجوع الى الهامش .

وقد أشار العلامة فريد وجدى الى ظاهرة خطيرة فى هذه الموسوعة وهى : سيطرة البدع الدخيلة فى الدين الاسلامى على مواد الموسوعة باستفاضة مثيرة ، حتى ليظن الباحث أنها من أصول الاسلام . وقد أمعن مؤلفو الدائرة فى تسجيلها وشرحها كأنها حقائق مقررة ، فى حين تسطر هذه البدع على أنها من المعارف الاسلامية . فان الاسلام يبرأ منها وهو ما جاء إلا لمحاربتها .

وأشار العلامة وجدى الى « القصد المتعمد فى الجمع بين أساطير البدع وحقائق الشريعة وقال : ان أكثر كتاب الدائرة قسس مبشرون يهمهم أن يتحيفوا الاسلام لا أن ينصفوه ، وقليل منهم من يتصف بالشجاعة العلمية فيتغلب على عناصر التعصب ، وليس كتاب الدائرة وحدهم من هذا النمط ، بل جـل المشتغلين بالدراسات الاسلامية فى الغرب لا يتجاوزون صناعة التبشير تعرفهم من لحن القول ، ومنهم « توماس باترك هيوز » صاحب قاموس الإسلام ، وهو مرجع متداول لا تكاد تخلو منه مكتبة أوربية .

وقد قضى القس المؤلف فى وظيفته التبشيرية ببلاد الهند بين المسلمين والبرهميين والبوذيين أكثر من عشرين سنة ، وجمع ونشر معجمه هداية للموظفين الإنجليز الذين يتولون الحكم ببلاد الهند فى أواخر القرن الماضى . ومساعدة للمبشرين بالنصرانية ممن يحاورون علماء الإسلام والباحثين فى الأديان المقـارنة .

وأشار الباحثون الى أن أهم نواحى الخطر فى هذه الدائرة : أن ما يترجم منها لا يتعرض بالتحليل والإيضاح لـما فيها من أخطاء وشبهات ،

وأنها تسطر البدع الدخيلة على الإسلام باستفاضة مثيرة ، وقد أمعن مؤلفو الدائرة فى تسجيلها وشرحها وكأنها أصول مقررة لا بدعا دخيلة •

ومن المصادر التى اعتمدتها دائرة المعارف : كتاب شمائل المصريين الذى كتبه المستشرق إدوارد وليم لين عام ١٨٣٥ عن المصريين ، وقد أصبح هذا الكتاب أحد المراجع الهامة لمؤلفى دائرة المعارف ، ينقلون عنه الخرافات وكأنها حقائق •

وقال أحمد أمين : إن نظرة المستشرقين فى دائرة المعارف هى نظرة خاصــة تختلف عن النظرة التى ينظرها المسلمون ، وبعضهم كان متعصبا يمزج تعصبه ببحث كما فعل الأب لامنس فى بعض ما كتب •

وقال العلامة تقى الدين الهلالى : إن فى دائرة المعارف الإســلامية أخطاء ودسائس ناشئة عن التعصب الأوربى وفى بركلمان مثل ذلك وأقبح •

وقــد وجه دكتور محمد يوسف زايد النقــد الى دائرة معــارف البستانى فقال : إن الدائرة بشــكلها الحاضر لم تحقق ما هــدف اليه ناشرها ، وما ينتظره منهــا القارىء العادى الذى لا يستطيع أن يطمئن الى دقة معلوماتها ، كما أنه لا يجـــد فى كثــير من موادها الترابط بين الأجزاء الذى يسبغ على المــادة وحــدتها ، كما أنه أيضــاً لا يجــد المراجع الضرورية لبحثــه فضــلا عن المتخصص الذى لا تروى مواد الدائرة غلته بطبيعة الحال •

ويقول السيد محمد رشيد رضــا : إن فى هــذه الدائرة عيوبا علمية وتاريخية ، أهمها : أنها لم تكتب لتحقيق المســائل التاريخية والعلمية لذاتها ، بل لأجل بيان آرائهم واهوائهم والإعــلام بما سبق لهم ولعلمائهم فيها من بحث وطعن فى كتبهم ورسائلهم المتفرقة •

وكان على الذين شرعوا فى ترجمة هذا المعجم وضع حواشى لتصحيح

ما فيها من الأغلاط التاريخية والعلمية والدينية ، وبيان الحق فيما دسوه فيها من عقائدهم وآرائهم الباطلة ، وذلك منوط بالعلماء الأخصائيين .

أقول ولا أخشى — لا آثما ولا مخالفا — : إن نشر هذا المعجم باللغة العربية كما كتبه واضعوه بدون تعليق على ما فيه من الأغلاط والمطاعن ومخالفة الحقائق هو أضر من شر كتب دعاة المبشرين وصحفهم ، لأن هذه كلها لا تخدع أحدا من أعلام المسلمين بما فيها من الباطل ، أما هذا المعجم المسمى بدائرة المعارف الإسلامية المعزو أكثر ما نقل فيه الى كتب المسلمين ، فإنه يخدع أكثر القارئين له ممن يعدون من خواص المتعلمين ، لأنه يقل فيهم من يفرق بين الحق والباطل مما فيه ، ويقل فيهم من يعلم أن مؤلفى هذه الدائرة من خصوم العرب والإسلام واللغة العربية .

وقال الأستاذ : محمد كرد على : إن هذه الكتب فاتها كثير من رجال الإسلام المتقدمين والمتأخرين ، ومن هؤلاء من هم أحرياء أن يترجم لهم باطول مما ترجموا .

وإن فى بعض المقالات نزعة من التعصب كمقالات البلجيكى (لامنس) والروسى (غرا تشكوفسكى) ومقالات (هوارالوتشى) الموجزة إيجازا مخلا أليق بهـا أن تكون فهرساً من أن تنشر فى معلمة يقصد بها التقصى .

وقد فات هذه المعلمة كثير من رجال الإسلام ، ومنهم عبد الحميد الكاتب ، وأحمد بن يوسف الكاتب ، وأحمد بن يوسف (ابن الداية) ، وعمرو بن مسعدة ، وعبد القادر الجرجانى ، وعلى بن عبد العزيز وأبو عبيد القاسم ابن سلام ، وأبو هلال العسكرى ، وأبو أحمد العسكرى ، وصالح بن جناح ، وابن الحناط الكفيف ، وابن خاتمة الأندلسى ، وابن عنين ، وابن الصيرفى ، والوهرانى ، وملك اليمن المؤلف عمر بن يوسف ، وعمارة بن حمزة ، وابن طولون الصالحى وابن عبد الهادى وغيرهم .

ثانيــا : قاموس المنجــــد :

قاموس المنجد يشتمل على قاموسين : قاموس للألفاظ اللغوية وهذا ليس موضـــع المناقشة الآن وإن كان عليه لغوياً مآخــذ كثيرة ، وقاموس أطلق عليه (معجم الآداب) إعداد فردنيان توتل ، وهو القاموس الحافل بالأخطاء والشبهات ، والذى عرض له عــديد من الباحثين وكشـــفوا عن أخطائه ، وفى مقدمتهم العلامة عبــد الله كنون الذى نشر فى مجلة دعوة الحق المغربية أكثر من عشرة فصــول عنه تضم أكثر من أربعمائة خطــأ شائع ، تاريخى وعلمى ، وقــد قرأت أول تخطئة للمنجــد فى مجلة الفتح عام ١٩٢٦ و ١٩٢٧ ٠

وقــد أحصى المرحوم الأستاذ عبد الستار فراج فى بحث له فى مجلة العربى للمنجد مائة خطأ تاريخى ولغوى وجغراف من الأخطاء الصارخة : مما يجب أن يحذف أو يصحح أو يصاغ بطريقة تبرئه من الشك والإبهام ٠

وأشار الى أن المؤلف قــد اعتمد على دائرة المعارف الإسلامية التى وضــعها كبار المستشرقين وعلى كتاب التمــدن الإسلامى لجرجى زيدان ، وعلى كتاب بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية) ٠

وأســوأ ما فى القاموس مــادة (محمد) صلى الله عليه وسلم ، وهى فى عباراتها تتضح بالتعصب والحقــد وفســاد المنهج والبعد عن العملية والإنصــــاف ٠

يقول : محمد نبى المسلمين من بنى هاشم تزوج من خديجة ورزق منها

فاطمة ، دعا الأعراب الى الإســـلام ، وانتصر على المكيين فى بدر ولكنهم غلبوه فى أحد فحاربهم فى حنين ودخل مكة ظافرا (١) •

ولا شك أن قاموس المنجـــد من أخطر القواميس التى فى كل الأيدى والمحملة بالأخطاء ، وخاصة فيما تحـــاول أن تدخله الى الألفاظ العربية من مصطلحات كنسية وطائفية ولاهوتية وهى ألفاظ ليست عربية أصلا ، فضلا عن أنه يفسرها تفسيراً لا يتفق مع مفاهيم الإسلام ، ويبدو من مراجعـــة المنجد فى جانبيه اللغوى والتاريخى أن هناك محاولة خطيرة لإدخال تعابير واصطلاحات غير عربية ولا إسلامية ، وأغلبها كنسية ولاهوتية وفرضها على اللغـــة العربية ، ومن ذلك عبارة (جـــدف) وهو اصطلاح كهنوتى لم يذكره أهل اللغة ، وكلمة (قـــدس) وقداس مما يورده الكهان النصارى •

وفى دراســـة مستوعبة للأستاذ عبد الله كنون صـــدرت تحت عنوان : « نظرة فى منجـــد الآداب والعـــلوم » معهد الدراسات العربية عام ١٩٧٣ يقول : « وفى نظرنا أن المسئول عن الأخطاء الكثيرة التى يحتويها هـــذا المعجم هو المصادر التى اعتمد عليهـــا المؤلف فهى جميعا مصـــادر غير أصـــيلة لأنها تتراوح بين مصادر أجنبية ومصادر محدثة » حيث اعتمـــد على دائرة المعارف الإسلامية ، ومجانى الأدب ، للأب شـــيخو ، وتاريخ التمدن الإسلامى لجرجى زيـــدان ، وتاريخ الآداب العربية لبروكلمان ، وهـــذه كلها مراجع غير موثوق بها • • » •

وها نحن أولا نرى أنه ليس من بين هـــذه المصـــادر مرجع أصـــلى من الكتب العربية القـــديمة المعتمدة فى كثير من المواد التى يشتمل عليها

---

(١) وهذا كله كلام مختلط حاقد لا صحة له تاريخيا .

المعجم ، أضـــف الى ذلك أن الترجمة من المصـــادر الأجنبية كثيراً ما يغير بها لفظ الشىء المترجم ، وخاصة اذا كان اسم محل أو شخص غريب لا علما للمترجم له فلا ينفع فى هـــذه الحالة إلا الرجوع للمصادر الأصيلة التى تورده على وجهـــه ، ولا يقال إن هـــذه هى أهم المصـــادر ، ثم مصادر لم يذكرها المؤلف ومن المحتمل أن تكون من الصنف الأصـــيل لأنه لو كان شىء منها معتمداً عنده لأشار له أو لبعضه على الأقل •

وقـــد أشار بعض الباحثين الى أن من أكبر أخطاء المنجـــد سكوته عن بعض الحقائق ، كموقفه من مسيلمة الكـــذاب حيث يقول عنه : مسيلمة من بنى حنيفة فى اليمامة عاصر محمدا — صلى الله عليه وسلم — وعرض عليه أن يشاركه النبوة فقتل فى موقعة عقرباء ، ولم يذكر أن نبوته كاذبة ، على سبيل التمويه بأنها صـــادقة ، أو ما يذكر عن جعفر بن يحيى البرمكى ويصـــفه بأنه زوج العباســـة أخت الرشيد ، وهـــذا الزواج لا حقيقة له ، إنما هو اسطورة ظهرت بعـــد مقتل البرامكة بعشرات السنين •

ثالثـــا : الموســـوعة العربيـــة الميسرة :

وجهت الى الموسوعة العربية الميسرة (التى قـــدم لها الأستاذ شفيق غربال) انتقادات شتى ، وجملة ما قيل عنهـــا إنها دائرة معارف أجنبية (وهى فى الواقع دائرة كولومبيا) ، وقـــد ترجمت الى اللغـــة العربية دون تقـــدير للتاريخ العربى الإســـلامى وحقائقه ودون تقـــدير حاجة الباحث العربى ، فهى لا تحمل مطلقاً أى وجهة نظر عربية لما تناولته من موضوعات ، وهى تتنكر أساسا للســـنة الهجرية والتاريخ الهجرى فى كل ما تورده من مواد وخاصة فيما يتعلق بعصر النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء •

فاذا عرضنا للمواد الإســـلامية ، وجـــدناها ضعيفة جـــداً وفاترة ومدرسية الى أبعـــد حـــد ، وليس فيها من السعة والعمق ما نجـــده فى المواد التى لا حاجة للباحث العربى بهـــا ، هـــذا بالإضافة الى غلبة طابع

السيطرة الصهيونية على المواد وخاصـــة فيما يتعلق بفلســـطين وتاريخ الأديان •

ومن المقارنة بين مـــادة (مسجد) ومادة (مسرح) نجـــد أن المسجد قـــد كتب عنه خمسة عشر سطراً فى حين كتب عن المسرح « ١٧٠ سطراً » أما تصويرها لمادة شريعة ومادة صـــلاة ومادة صوم فهو تصوير بدائى وســـاذج •

وتضم الموســـوعة بعض المواد التى اعتمد فيهـــا على الإسرائيليات والروايات التى تضمها الكتب غير العلمية كمادة إسرائيل وأســـوأ ما فى الموسوعة أنها تحمل وجهة نظر اليهود فى مختلف المسائل ، فهى تحـــاول أن تفرض على الباحث العربى مفهوما خطيراً بالنسبة لفلسطين لا يتفق مع حقائق التاريخ •

ومن عجب أن باب الأديان والعقائد قد حرر تحت إشراف إبراهيم مدكور وأحمد فؤاد الأهوانى وغيرهما ، وأن ثلة من الكتاب المسلمين والعرب ذكرت أسماؤهم فى المقـــدمة كمحررين لفصول الموسوعة •

هـــذا وتتنكر الموسوعة العربية الميسرة للسنة الهجرية تنكراً تاماً فى كل ما أوردته من مواد إسلامية وخاصـــة فيما يتعلق بعصر النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشـــدين •

رابعـــا : يقظـــة العـــرب (لجورج انطونيوس) :

ويعـــد هـــذا الكتاب من الكتب الخطـــيرة التى يجب الحـــذر من الاعتماد عليها فى كتابة تاريخ العرب والإسلام الحـــديث وقد أشار بعض المستشرقين ودعاة التغريب بالاعتماد عليه ، فأفسدوا كثـــيراً من أبحاث الباحثين ، وإن المراجع لوقائع حيـــاة جورج أنطونيوس لا يدهش من أن يكون كتابه خـــدمة للتيارات الغربية وتركيزا على الوقائع المشبوهة ، فهو

من مواليــد دير القمر بلبنان ، ومن خريجى كلية فيكتوريا بالإسكندرية ، ومن رواد جامعة كمبردج ، وكان ملتحقاً بدائرة المعارف فى حكومة الاحتلال البريطانى فى فلسطين ، شأنه شأن نجيب غازورى الذى يركزون على كتابه (يقظــة الأمة العربية) •

وقــد غالى أنطونيوس فى تصــوير الدور الذى لعبته الجمعية العلمية السورية ، التى أنشأها النفوذ الاستعمارى داخل الكلية السورية الإنجيلية ، والذى عــده عاملا أساسيا فى نشوء القومية العربية ، فى حين كان الانصاف يقتضيه أن يعتبر هــذه الجمعية السرية هى أول عامل محرك لدفع اللبنانيين الى الانتفاض على الدولة العثمانية ، والمطالبة بحــكم خاص تحت نفوذ الدول الأجنبية وخاصــة فرنسا ، وإن رفع لواء العرب فى هــذا الوقت لم يكن من أجل وحــدة العرب ، بل من أجل الانفصال عن دولة الخلافة •

وأبرز أخطائه ناشئة من تعصــبه ضــد السلطان عبد الحميد واتهامه بما هو منه براء ، والتنكر لموقفه من الصهيونية ومن هرتزل ، الذى هو من أشرف المواقف التى لا تغمط ولا ينبغى أن يتجاهله المؤرخ المنصف ، ومن العسير أن يطلب من مثل جورج أنطونيوس فى ثقافته وعقائده الدينية والفكرية أن ينصف الدولة العثمانية أو السلطان عبد الحميد •

ولقــد كشفت الوثائق الكثيرة التى ظهرت فى السنوات الأخيرة من الحقائق ما يجعل الكثير مما ذهب اليه أنطونيوس زائفا وخاطئا ، وأبرز أخطائه أنه اعتبر (ناصيف اليازجى وبطرس البستانى) مبــدأ اليقظة العربية فضــلا عن إساءته الى عبد الرحمن الكواكبى •

من أجل هــذا أصبح كتاب يقظة العرب من مراجع التغريب ، وعلينا أن نقرأه فى حــذر ولا نأخــذه على أنه من المصــادر العلمية •

خامسـا : شمائل المصريين المحـدثين (إدوار وليم لين) :

من أسوأ الكتب التى وضعت للطعن فى أخـلاق الإسلام فى المجتمع الإسـلامى العربى ، والحط من قـدر حضـارتهم ومجتمعاتهم ومهمتهم الأساسية ، هـذا الكتاب الذى الفه المستشرق (إدوارد وليم لين) وقصد به الى إلتقاط كل ما يتعلق بالخرافات والأساطير والعـادات وتلفيقها فى صـورة زائفة يراد بها تقـديم صـورة للمجتمع المصرى ، وهى صـورة ليس فيها شىء من الحق أو الإنصـاف وليس فيها أى قـدر من الصدق أو التحقيق العـلمى ، وكان إدوارد لين قـد قـدم الى مصر عام ١٩٢٥ للعلاج من ذات الصـدر ولدراسة آثار المصريين القدماء ، واتخـذ له منزلا فى بعض الأحياء الشعبية وادعى الإسلام والقى على نفسه اسـم (منصـور أفنـدى) ولبس ملابس الأتراك ، وبذلك احاط نفسه بجو من الثقة مكنه من خـداع الوطنيين وتحقيق هـدفه فى تجميع خيوط وهمية نسبها الى الإسلام ، فقـد أخـذ يتصل بالطرق الصوفية وموالد الأولياء ويجمع ما يردده العامة من أحاديث الخوارق والخرافات والبدع ، ثم صنع من هـذا كله دراسة فى جزأين كبيرين شفعها بمجموعة من رسـوم ريشته للأزياء والعمائر ، كانت كسباً ضخماً لدوائر الاستشراق فى أوربا ، اذ بلغ الاهتمام بهـا قـدراً كبيراً جـدا ، وتناقلتها اللغـات المختلفة واعتبرت لدى المستشرقين والمبشرين مرجعـا يعتمدون عليـه ، وقـد عنيت دائرة المعارف الإسلامية التى انشاها متعصـبو الاستشراق بهـذا الكتـاب ، واعتبرته مرجعا تنقل منه الخرافات على أنها حقائق ، وقـد جرى هـذا المجرى الأستاذ أحمد أمين حين لبى نداء هؤلاء العتاة فى إنشـاء قاموس « للعادات والتقاليد الشعبية » ونقل كثيرا مما كتبه « لين » وجرى مجراه فكان ذلك من الأمور الخطيرة الأثر البعيدة عن التحقيق العلمى .

الفصـــل الثـــالث

تفســــير التاريخ الإســــلامى

بمقاييس مــادية وافــدة ؟

هناك عــدد من المذاهب العرقية تفسر التاريخ ، بعضها يعتمد على العوامل التاريخية أو الجغرافية أو الأجناس ، وكل تفســير من هــذه التفاسير يعلى قيمة معينة ، ويجعلها اساســا ومصــدراً ، ويخفض من العوامل والقيم الأخرى •

وأشهر هــذه المذاهب « التفسير المادى للتاريخ » ، الذى يعتبر أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام ، والذى يرى أنه لا توجــد قيم أصــيلة اساسها الدين او الأخلاق أو التقاليد ، وعيب هــذا المذهب أنه يتجاهل جانب المعنويات الحقيقية ، والقوى الذاتية للشعوب •

أما تفسير الأجناس فــيرد كل العوامل الى الدمــاء ، والرسوس (الأعراق) وتفاعلها •

نماذج من تفســير التاريخ :

١ ــ عنــد النصرانية :

وللعــلامة « والفرد كانتول سميث » ، نظرة جــديرة بالاعتبار فى التفريق بين النظرة المادية والنظرة الروحية والنظرة الإسلامية فى فهم التــاريخ •

وعنده أن النظرة الروحية ، فى نطاق الاعتقاد النصرانى ، مثــلا ،

يعيش النصرانى فيها بشخصية مزدوجة ، أو عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط ، والمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق ، والواقع البشرى المطبق فى واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشود . ويسير هـذان الخطان فى نفســه متجاورين أو متباعدين ، ولكن بغير اتصـــال أو التقاء ، والتاريخ فى نظره هو نقطة ضـــعف البشر وهبوطه وانحرافه .

٢ — عنـــد الهندوكيـــة :

وفى مفهوم الهندوكية (وهى نظرة تعتبر جـــدلا روحية أيضـــاً) يقول إن الرجل الهندى لا يأبه للتاريخ ولا يحس بوجوده ، لأن التاريخ هو ما سجله البشر من أعمال فى عالم المـــادة وعالم الحس .

والهندى مشغول دائما بعـــالم الأرواح ، عـــالم اللانهائية ، ومن ثم فكل شىء فى عالم الفناء المحـــدود لا قيمة له عنده ، ولا وزن ، والتاريخ بالنسبة له شىء ساقط من الحساب .

٣ — المـــادية الجـــدلية :

أما فى المذاهب المادية كالماركســـية مثـــلا ، فهو الإيمـــان بحتمية التاريخ ، بمعنى أن كل مرحلة تؤدى الى المرحلة التالية بطريقة حتمية ، ولكن لا يؤمن إلا بهذا العالم ، المحسوس ، بل لا يؤمن فى هـــذا العالم ، إلا بالمذهب الماركسى وحـــده ، وكل شىء عـــداه باطل ، والماركسى يتبع عجلة التاريخ ، ولكن لا يوجهها ، ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها .

تحليـــل الإســـلام للتاريخ :

أما فى الفكر الاســـلامى ، فيرى « والفرد كانتول ســـميث » ، وهو صادق فى هـــذا الرأى : أن المسلم يحس بالتاريخ إحساساً جـــاداً ، إنه

يؤمن بأن الله قــد وضع نظاما عمليا واقعيا ، يسير البشر فى الأرض على مقتضاه ، يحاولون دائما أن يصوغوا واقع الأرض فى إطاره ، ومن ثم فهو يعيش كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شــعور فردى أو جماعى بمقدار قربه أو بعــده من واقع الأرض ، لأنه قابل للتحقيق ٠

والتاريخ فى نظر المسلم : هو سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، ومن ثم فكل عمــل وكل شعور — فرديا كان أو جماعيا — ذو أهمية بالغة ، لأن الحاضر نتيجة الماضى ، والمستقبل متوقف على الحاضر ٠

فالمفهوم الإسلامى واضــح الإيجابية ، فبينما غير المســلم يضحى بنفســه لأنه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة ، وهو حى وسامح لها بالمرور ، فهو يقف فى طريقها حتى تدوسه وتقتله ، ويكون ذلك أغلى قربان يتقــدم به الى الله ٠

فإن المسلم حين يضحى بنفســه ، ففى حسه أن هناك نظاما إلهيا يراد أن يطبق فى واقع الأرض ، وفى حسه وهو يضحى أنه يدفع عجــلة هــذا النظام خطوة الى الأمام « أ ٠ هـ ٠ » ٠

* * *

منابع التفســير الإســلامى :

ومن الحق أن يقال إن الفكر الإسلامى له تفسير للتاريخ يختلف عن التفسير الغربى المــادى ، والشرقى الروحى ، على السواء ، وإن التفسير الغربى لا يصــلح لفهم التاريخ الإسلامى ٠

فالتاريخ الإسلامى لا يمكن فهمه أو تفسيره إلا على ضوء النظرة الإسلامية للحياة الإنسانية ، وكل تفسير يقوم على غير هــذا الأساس

فهو ضرب من الخطأ العلمى ، لا يجــوز أن يرتكبه باحث جاد ، أو مؤرخ يبتغى وجه الحق وحــده •

ولذلك فإن كل مؤرخ عربى يفسر التاريخ الإسلامى وفق منهجــه الغربى ، يقع فى الخطــأ ، الذى يتمثل فى بعــده عن ظاهرة أســاسية ، هــذه الظاهرة هى وحــدة المناهج الإسلامية والفكر الإسلامى فى مختلف فروعه وتكاملها •

بينما يؤمن الفكر الغربى بتجزئة هــذه المفاهيم والفصــل بين الله والطبيعة والعــلم والدين •

أما روح الفكر الإسلامى وحضارته وتاريخه فتقوم أساسا على وحدة الكون وانســجام قوى الطبيعة وأقسامها كما قــدرها خالقهــا ، وذلك بحسبان أن الإسلام هو النظام الوحيــد ، الذى يحقق هــذا الانسجام لأنه يجمع بين الإيمان بالروح والجســد فى نظام الدين والسماء والأرض فى نظــام الكون ، ويسلكها فى طريق واحــد ، هو الطريق الى الله •

وإن الإسلام — والإسلام وحــده — هو الذى يجمع بين العــلم والدين ، فى وحــدة تامة غير متناقضــة ، ومن هنــا ، فإن تطبيق منهج التجزئة الغربى يحول بين الباحث وبين الوصــول الى الحقيقة ، ويجعل الأمور أمامه مضطربة غامضــة •

هــذا من ناحية الفكر الغربى • أما المفهوم المادى ، فيرى ما يرى الدكتور « تريتون » فى كتابه (الإسلام : عقيدته ومبادئه) : اذا صــح فى القول ، أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحاً فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى ، وبيــان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فإن هــذا التفسير المادى ، يفشل فشــلا ذريعا حــين يرغب فى أن يعلل وحــدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتســاع رقعتهم وثبات أقــدامهم ، فــلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا فى العــلة الصحيحة

لهـذه الظاهرة الفردية ليروا أنها تقـع فى هـذا الشىء الجديد : ألا وهو الإسلام • ويقول (ايان وايد غراى) :

إن نظرة المسلمين الى التاريخ نظرة بناءة ، فهم يرون أن البشرية اذا اعتقـدت تعاليم الوحى — القرآن — فإن إرادتها حينئذ تتطابق مع إرادة الله •

* * *

وحاول كتاب الماركسية تفسير التاريخ الإسـلامى بمفهوم « صراع الطبقات » وفشلوا فى ذلك لأنهم — كما يقول الأستاذ محمد كسـبة — لم يستوعبوا مضمون الرسالة الإسلامية •

إن الصراع الذى ثار بين المسلمين وبعضهم البعض ، والذى اتخذه الماركسيون دليلا على صـحة دعواهم ، إنما كان صراعاً ذا طابع سياسى ، ولم يكن صراعا طبقيا تغلبت بموجبه طبقة على أخرى ، أو فئة على أختها •

والخطأ الذى وقع فيه الشيوعيون أنهم نظروا الى التاريخ بنصف عين ، ذلك أنهم لم يقرءوا التاريخ الإسـلامى كله ، كما أنهم لم يقرءوا التاريخ البشرى •

وكل الذى فعلوه أيهم ساروا على نهج إمامهم ماركس حين تخـير أحـداثاً بعينهـا من تاريخ البشر ، وأطلقها على التاريخ كله ، فقد كانوا يقرءون ما كان يعنيهم ، ويتفق مع أصـول نظريتهم الأولى ، فى استخراج أفكارهم وأحـكامهم وآرائهم ، فكل ما يثير انتباههم ، ويلفت أنظارهم ، هو منظر تلك الدماء التى تسيل على صـفحات التاريخ •

ولم يكن ينفذ الى أنوفهم سوى رائحـــة الدم ، يسيرون وراءها ، ويدللون عليها ، ويتبعون خيوطها ، ويستخرجون منها أحـــكاما ومبادئ ، وأفكاراً واستنتاجات يطلقونها على التاريخ كله ، مثلما فعل ماركس حين اعتمد فى استنباط نظريته عن التاريخ ، على بعض مراحل التاريخ دون الأخرى .

وهنا سقطت دعوى اختلاق الصراع الطبقى وحتميته على المجتمع الإسلامى ، ذلك أن الإسلام لم يكن أساساً ، من إفراز النظام الطبقى فى قريش ، ولم يكن الإسلام ديناً رجعياً يحفظ للظالمين والمستغلين أموالهم وامتيازاتهم ، كما أنه لم يكن مخـــدراً للفقـــراء والمحتاجين والمعـــدمين يجعلهم فى حالة تقبل ورضـــاً بفقرهم وعجزهم ، بل دعا الى العمل والحركة والسعى على الرزق ، ومجاهدة النفس والمشركين والمستغلين .

وكان بحق حركة عـــدل ضد أعداء السماء والإنسان .

* * *

كذلك فإن الإسلام ما جاء نتيجة انقلاب عسكرى أو سياسى قام به مجموعة من الأفراد الذين يطلقون على أنفسهم ثواراً ، أو مجموعة من العسكر ، كما أنه ما جاء نتيجة انقـــلاب مناظر فى توزيع الإنتاج وعلاقاته المتشابكة فى قريش ، وإنما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة ، وجاء الإسلام من البداية مقرراً للمساواة فى الفرص ، وضمان حق الكفاية لكل المواطنين ، وتحقيق التوازن الاقتصـــادى بين الفرد والمجتمع ، وجاء بمبدأ الملكية الخاصـــة والملكية العامة ، ومبدأ الاقتصاد الحر والموجه .

جاء بكل ذلك فى لجزيرة العربية ، فى وقت لم تكن ظروف الإنتـــاج وعلاقاته تدعو اليه بحيث يمكن أن يقال : إن ما حـــدث كان انبثاقاً من واقع اقتصـــادى وتحـــدى بذلك منطق الماركسيين التاريخى وحساباتهم المادية ، التى تحتم انبثاق كل انقـــلاب سياسى ، أو تغيير اجتماعى من انقلاب مناظر فى نظـــام الإنتـــاج وعلاقاته .

وعليه فإن الصراع الذى ثار بين المسلمين يوما ما ، والذى يتخذه الماركسيون حجة ودليلا على صحة نظريتهم ، إنهم كان من أجل الحكم ، كان صراعاً سياسياً لا طبقياً ، ولا يقره الإسلام بحال من الأحوال ، فهو خارج عن منهج الإسلام وبعيد عن روحه السمحة ، ويبقى الإسلام بجوهره الأساسى الذى يشيع روح الإخاء والمصالحة بين المسلمين ، والذى يقرر فى صراحة : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار » • ويقرر : (إنمّا المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) [الحجرات : ١٠] •

ومن هنا فإن دعوى « صراع الطبقات ، التى يحاول دعاة الماركسية اليوم وأصحاب الفكر المادى والإلحادى إلصاقه بالإسلام ، وصولاً إلى تفريغ الدين الإسلامى من محتواه الروحى ، ومضمونه العقائدى ، إنما هى محاولة لن تجدى •

هذا من ناحية ، ومن ناحية القول بأثر العامل الاقتصادى فى توجيه التاريخ الإسلامى ، يقول الدكتور حسن شحاتة سعفان :

إن عوامل التقدم فى الشرق الأوسط إذا درست فى تطورها منذ العصور الإسلامية ، نجد أن العامل الاقتصادى فى هذا التأثير وفى تطورها ، لم يكن بأكثر أهمية من غيره ، بل على العكس كانت المثاليات الدينية والأخلاقية المستقاة من الإسلام أولا ، ومن النصرانية ثانياً ، هى العامل الأول فى تشكيل النظم وتطويرها ، ثم يأتى العامل الاقتصادى كعامل ثانوى فى معظم الأحيان •

ويقول : إن نظرية ماركس فى المادية التاريخية خطأ محض ، فقد

استنتج نظريته من اســتقراء بعض وقائع الاقتصاد الاجتمــاعى للدول الغربية • ويقول : إنه ينكر الدين والعوامل الروحية فى حين هما المحرك الاكبر لهــذا التطور •

ومن خطئه الزعم بأن العوامل المادية هى العوامل التى تحدث الأثر الأكبر فى تشــكيل النظم الاجتماعية الأخرى ، من دينية وسياسية وأخلاقية وتربوية •

ويقــول : إن نظرية ماركس لا تنطبق على دول الشرق الأوســط وإن الدول الغربية إن صــح أنهــا تطورت بحيث وصــلت فى العصــور الحديثة إلى دول تقدس المــادة ، فإن ثمــة دولا بالعكس لم يطرأ عليها تطور يجعلها تضــحى بالمثاليــات الأخلاقية والدينية تحت تأثير العوامل المــادية •

* * *

ومن أخطر الشــبهات التى طرحها الماركسيون ، محاولة تصــوير عهد الرســول — صلى الله عليه وسلم — والخلفاء الراشــدين ، بأنهــا كانت بسبب الصراع بين اليمين واليســار فى الإسلام ، والاهتمام بالعامل الاقتصادى وتقديمه فى النظر إلى أحداث التــاريخ ، وعجزهم عن تعميق مفهوم التفسير الجامع للتاريخ الذى تؤثر فيه عوامل عديدة — الاقتصاد — واحد منها ولكنه ليس أهمها على التحقيق •

والإســلام له تفسيره التاريخى الذى يختلف عن التفسير المــادى للتاريخ الذى قدمه ماركس ، وأخذت به الشــيوعية ، والتفسير الدينى للتــاريخ الذى قدمه (توينبى) ، والذى يقوم على استعلاء الحضــارة

الغربية بالنصرانية ، وتفسير الأحداث وسير الأجيال فى ضوء هذه التبعية ، ومن هنا فقد وقف التفسيران من الإسلام موقفاً ظالماً .

ومن أخطاء تفسير توينبى : أنه يرى المجتمع الإسلامى حصيلة اندماج مجتمعين متمايزين فى الاصل ، هما الإيرانى والعربى ، ولو أنه قال إن الإسلام صهر كل من آمن به فى مجتمع جديد ، وإنه استصفى خير ما فى الحضارات القديمة مما يتفق مع مفهوم التوحيد ، لكان قوله قريباً من الحق .

ولا شك أن أبراز مفاهيم التفسير الإسلامى للتاريخ ، هو إقامة التوحيد والعدل والرحمة والإخاء البشرى ، وقيام المجتمع على أساس الأخلاق دون تفرقة بين العناصر والدماء ، والقضاء على صراعها والتفاخر بها .

ولقد كان من أخطاء التفسير الماركسى ، هذه التفرقة بين اليمين واليسار ، وهى تفرقة لم يعرفها الإسلام .

الإسلام دعوة وليس ثورة

ومن أخطاء التفسير المادى للتاريخ تصور الإسلام على أنه « ثورة » اجتماعية أو اقتصادية ، فى حين أنه كان الإسلام دعوة ربانية وليست بشرية ، لها صفة المنهج الجامع الإنسانى الطابع .

ولذلك كان من أخطاء (عبد الرحمن الشرقاوى) ، تصور النبى — صلى الله عليه وسلم — على أنه (رسول الحرية) ، أو أن الإسلام حركة اجتماعية ، كما حاول (طه حسين) فى كتاب الفتنة الكبرى .

لقد أغفل عبد الرحمن الشرقاوى حادثة خروج النبى — صلى الله عليه وسلم — من بيته ليلة تآمرت به قريش ، وحادثة التجائه إلى غار .

ثور ، ووضع الآية القرآنية مبتورة على ظـاهر كتابة : (قل إنمـا أنا بشر مثلكم) فقط والحقيقة أن يكملها (يُوحى إلىَّ) وقصرها على كلمة : (مثلكم) إنكار للوحى ، ولا شـك أن تجريد سـيرة النبى — صلى الله عليه وسلم — من الوقائع المتواترة ، هو عمل من أعمال الغش الثقـافى ، التى يراد بهـا إيجاد فرصـة للتشكيك والارتياب ، فضـلا عن أنه لم يورد كلمة (الوحى) إطلاقا فى كتابه ، ولم يذكر أن سر انتصـار دعـوة الإسلام هو أن قوة عليا تؤيدها وتساندها .

* * *

التفسير المـادى للتاريخ

ويحاول التفسير المـادى (الاقتصادى) للتاريخ أن يصـور للناس أن ارتقاء المبادىء يسـير إلى جنب الارتقاء فى الوسـائل المـادية . بينما واقع التاريخ يبين لنـا خلاف هـذا الأمر فى بعض الأحيـان . بل فى كثير منهـا .

فإن تعلم الوسـائل المادية والمعلومات العلمية يسـير على خط غير الخط الذى تسير عليه المبادىء فى ارتقائها المزعوم .

ومصداقا لذلك نرى المبادىء البشرية تنتكس انتكاسـات فظيعة . وبعضهـا ينادى بالهمجية الأولى وسبب الانتكاسات الفظيعة فى المبادىء البشرية أن الجماعة الأولى التى تمثل المبدأ البشرى الأول عنـدما تعلن الحرب على الجماعة الثانية التى تمثل المبدأ البشرى الثانى ، تشـوه كافة أقطـار المبدأ للجمـاعة الثانية ، فى حين تسـتفيد من الوسائل المـادية والمعلومات العلمية ، بل قد تستعمل نفس الوسـائل التى حصـلت عليها فى حربها مع الجماعة الأخرى .

ذلك أنه ليس من مهمة الإنسان أن يقوم بوضع المبادىء والنظم حتى لا يحطم البشرية ، خصـــوصاً وأنه لم يخلق لهذا الأمر ، ولكن من المفروض أن تظل مبادئه فى مســتواها على الأقل إن لم تتقدم قليلا ، بل الأصـــح أن تتقــدم ولو قليلا جداً ، وتســتمر فى تصحيح أخطائهــا كلما واتتها الفرصـــة ، وعنــد مراجعـــة ما قامت به بعض الجهــات الإقليمية ذات الهوى والغرض بكتــابة تاريخ الإســـلام نجد أنها وقعت فى مجموعة من الأخطاء التى يجب التنبيه عليها • وقد جمعها أحد الباحثين على هذا النحو :

أولا : خطر التوســـع فى الأمور الصغيرة ذات الصـــفة الشخصية • فى حين تختصر الأعمال الكبرى العامة •

ثانيا : سيطرة الروح القومية على مفهوم التاريخ الإسلامى الجامع •

ثالثاً : التحدث عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — كالتحدث عن نابليون وأخناتون •

رابعاً : وضع كلمة (العرب) و (العروبة) بدلا من كلمة (الإسلام والمســـلمين) • وهى توحى بتكرارها أن رســـول الله — صلى الله عليه وســـلم — إنمــا بعث للعرب وحدهم • وتجريد النبى — صلى الله عليه وســـلم — من طبيعته حتى يبدو وكأنه ليس أكثر من داعية أو مصـــلح سياسى أو اجتمــاعى ، وأن رســـالة الإسلام لا تعـــدو أن تكون حركة إصـــلاحية •

ولا ريب أن روح العنصرية فى كتابة التاريخ الإســـلامى ، تتناقض تناقضـــاً تاماً مع الحقائق الأســـاسية ، لأن تاريخ الاســـلام فى عصر الراشدين والأمويين • كـــان تاريخا للمسلمين كلهم • ولم [illegible] تـــاريخ العرب وحدهم وكان من أدوات بطولته البربر والأتراك و

خامساً : تجريد الدعوة الاســلامية من أســاسها الفكرى ورسالتها الأساسية ، وأعنى بها العقيدة الالهية .

سادساً : اخفاء الروح الاســلامى التى لها أثرها التربوى فى النشء المســلم .

سابعاً : تجريد المعــارك الاسلامية من نفحات النبى — صلى الله عليه وســلم — ومن تأييد الله — تبارك وتعالى — وقياسها بمقاييس مادية بحتــة .

ثامناً : فى الهجرة ، أغفل المؤلفون جوانب رعاية الله ، وركزوا على عنصر الاختفاء ، وغفلة قريش ، وعدم رؤية أحد النبى — صلى الله عليه وســلم .

تاسعاً : فى موقعة عين جالوت تجاهل المؤلفون نداء : (واســلاماه) .

عاشراً : عند الحديث عن معــارضة قريش للاسلام ، ذكر أن السبب فى ذلك هو خوف قريش على مركزها التجارى وهذا تحليل ماركسى — فان قريشا عرضــت على الرسول صلى الله عليه وسلم التنازل عن كل شىء له ، على أن يتوقف عن دعوته الى توحيد الله ، ولكنه رفض ، ولقــد كان الصراع صراع عقيدة ولم يكن الأمر اقتصادا .

حادى عشر : التركيز على المعــارك وأهمــال الجوانب الأخلاقية والحضارية الاسلامية ، فبدا تاريخ الاسلام وكأنه تاريخ غزوات وحروب .

ثانى عشر : حشد عدد كبير من الخلافات وتكثيفها ، وخاصــة تلك الخلافات التى جرت بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، وقــد نتج عن هــذا سب بعض الصحابة رضى الله عنهم دون تمحيص عــلم ، ودون معرفة بالظروف كلها .

[illegible] : تناول الحركات الانفصــالية ، كحركة ابن طولون وابن

طغج الاخشيدى فى مصر على أنهـا حركات استقلالية ، والأولى تناول هذه الحركات على أنهـا حركات انفصالية يقف وراءها أشخاص مغامرون .

رابع عشر : يقولون : (التوسع العربى) ، وكأن الفتوحات الاسلامية توسعات استعمارية ، مع أن هناك فروقا كبيرة بين هذه وتلك .

خامس عشر : يقولون إن عمر بن الخطاب ولى عمرو بن العاص مصر مكافأة له ، فهل هكذا كان يسـوس عمر الأمور ، أم أن عمرو بن العاص كان جديراً بحـكم مصر ؟ !! .

من هـذا المنطلق ، يجب أن ننظر الى وقائع كثيرة فى تاريخ الإسلام .

الفصـــل الرابع

أخطـاء فى تفســير التاريخ الإســلامى الحـديث والمعاصر

حاول كتاب الغرب تقديم تفسـير مغلوط لوقائع كثيرة فى التـاريخ الإسـلامى الحـديث المعاصر كما عمدوا الى تصـوير بعض الأحداث فى التاريخ الغربى المعاصر بصـورة تتعارض مع صـورتها الحقيقية •

أما بالنسـبة للقسم الأول : فقد حاول الغرب تصوير عصر مـا قبل العصر الحديث بأنه عصر الانحطاط ، أو تصـوير حركات التبشـير فى السيطرة على بعض البلاد الإفريقية ، بأنها نوع من الكشـف الجغرافى ، أو الادعاء بأن مكتبة الإسـكندرية حرقهـا المسلمون ، أو محاولة الدعوة إلى توحيد الأديان •

أما بالنسـبة للقسم الثانى : فذلك فى محـاولتهم خداع المسـلمين والعرب للدخول فى الماسـونية ، على أنهـا حركة تحرير ، أو تصـوير الثورة الفرنسية على أنهـا حركة إخاء وحرية ومسـاواة حتى أعلن كمال أتاتورك نفس الشـعار لحركته الانقلابية ضد الخلافة فى تركيا •

هذه المحاولات كلهـا يجب أن تكون واضـحة فى أذهان شبـابنا المسلم ، حتى لا تخدعه كتابات بعض التغريبيين ، وبالرغم من أن هـذه القضايا قـد كتب عن حقيقتها كثير من كتـاب حركة اليقظة الإسلامية ، فإن أقلام الشـعوبية والماركسية مـا تزال تردد هذه السموم ، وتجدد بثهـا واذاعتها ، ومن ثم وجب إعادة التذكير بوجه الحق فيها •

١ — عصر الانحطـــاط

وقد كان يمكن أن يطلق على ذلك العصر : عصر الضـــعف والتخلف ، غير أن هـــذا العصر بالرغم من تقـــاصر الخطوات الحضـــارية فيه • فقد حفل بنتاج ثقافى عظيم ، فثبت أن هذا العصر جمع بين عوامل الضـــعف وعوامل القوة •

حاول التغريب والفكر الاســـتعمارى الغربى ، أن يصـــف مرحلة القرون الثلاثة الســـابقة للقرن العشرين بأنهـــا عصر الانحطاط ، وهـــو تعبير قاس ظالم استخدمه بعض المبشرين المتعصبين ، وكان أول من ردده فى الكتابات العربية (جرجى زيدان) •

أما وجوه الضعف فهو فى تأثر الفكر الإســـلامى بالفلسفات الهندية والفارســـية والمجوسية التى حملت مفاهيم معقدة مضطربة ، من أمثـــال وحـــدة الوجود والحلول والاتحـــاد ، وغيرها من المذاهب التى لا تتفق مع جوهر التوحيد الإســـلامى ، والمفروض أن يحاكم الفكر الإســـلامى الى أصوله الأولى وإلى إنتاج أعلامه الرواد ، ولا يحـــاكم الى إنتـــاج فترة الضعف التى توقف فيها الإبداع والتجديد والاجتهاد وغلب طابع التقليد فى كثير من الأحيان •

فالفكر الإسلامى فى جوهره الأصيل مـــا زال مضيئاً ايجابياً مؤثراً ، معطيا للأمم المختلفة والعصور المتعددة دفعـــات التقدم والبناء والحيوية •

أمـــا وجوه القوة فهى تتمثل فى عملية « التجميع » التى قـــام بها المفكرون حيث ظهرت فى هذه الفترة « الموسوعات » التى جمعت الآثـــار المختلفة الموزعة على عديد من فنون الأدب والفقه والاجتماع ، وهى عملية رد فعل لمـــا حدث نتيجة الغزو الصليبى والتترى من حرق وتدمير آثـــار الفكر العربى الاسلامى ، فقد عمـــد العلماء والأدباء الى عملية التجميع

كوسيلة لمقاومة فناء الفكر الإسلامى ، وهو عمل نافع إيجــابى يدل على القوة لا على الضــعف ، وإن وجه إليــه النقد بأنه لم يحرر من وجهــة التنسيق الفنى أو التحقيق العلمى • ولكن التقدير المنصــف لاخطار هذه الفترة وظروفهــا من شأنه أن ينصف العاملين فى هــذه المرحلة ويقدر لهم هذا الجهد على اطلاقه •

٢— فتنة ســنة ١٨٦٠ :

تحاول كتب التاريخ الغربية وبحوث القوميات وغيرها أن تذكر فتنة سنة ١٨٦٠ على انهــا مؤامرة وقعت بين المسلمين والمارون ، اضطرت الدول الأوربية إلى التدخل لإقامة نظام خاص فى لبنان •

ومن الحق أن يقــال إن هــذا التصــور خاطىء من أساسه ، فلم يكن قبل بوادر النفوذ الأجنبى هنــاك أى خلاف من شــأنه أن يوقع بين عناصر الأمة ، فقد كان المسلمون يرعون مختلف الطوائف والاقليــات ، ويتيحون لهم حماية كافية لأداء طقوسهم ورعاية مصــالحهم •

ولكن الحقيقة الأكيدة فى فتنة ســنة ١٨٦٠ أنهــا مؤامرة دبرتهــا الدول الكبرى لعزل لبنان عن الدولة العثمانية وإعدادها كمنطلق لإتمــام عزل العالم الإسلامى والبلاد العربية وإسقاط الدولة العثمانية •

وقد أكد هذا المعنى كثير من المؤرخين المنصفين فقد احتفت فرنســا بالموارنة وثبتت بريطانيا الدروز ، ووقفت كل دولة وراء واحدة من هــذه القوى ، وأمدتهــا بالأســلحة وأغرتها بالطوائف الأخرى ، وأثارت بينهــا الخلافات التى أججت (فتنة ١٨٦٠) فلما وقعت الواقعة بين الموارنة والدروز

وقتل من قتل ، تدخلت فرنسا وبريطانيا باسم وقف المذابح وأرسلت بريطانيا وحدة مكونة من (١٢ ألف جندى) فسارعت فرنسا وأرسلت حملة قوامها (سبعة آلاف جندى) وفرض على الدولة العثمانية إقامة نظام خاص فى لبنان يمنحه الاستقلال الذاتى تحت رئاسة حاكم نصرانى تختاره الدول الأوربية ، ويصدق عليه السلطان العثمانى .

وقد ثبت ذلك كله فى تقرير السير ريتشارد وود قنصل إنجلترا إلى ناظر الخارجية ، الذى نشرته الدولة الإنجليزية فى الكتاب الأزرق سنة ١٨٧٨ .

قال : « والذى يبحث بحثاً دقيقاً فى أسباب الفتنة التى سفكت فيها الدماء فى المشرق ، يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها ، هو منبع السياسة الأجنبية التى تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتنة بين ذوى الأحقاد ، ولو لم يكن أولئك المفسرون يحسبون أن هذه الفتنة تجر إلى القتل والفظائع .

ومن هذا القبيل واقعة « الدروز والموارنة » وواقعة الصقالبة والبلغاريين وقد تبين أن الاعتداء إنما كان يبتدىء من جانب النصارى .

هذا والمعروف أنه لم تلبث البعثات التبشيرية بعد هذا الحادث أن هرعت الى بيروت وأقامت معاهدها وإرسالياتها فى محاولة لفرض نفوذ ثقافى غربى على أبناء المارون .

وقد بدأت الإرساليات الفرنسية هذا العمل ولحقت بها البعثات الأمريكية ولم تلبث بعد قليل أن أصبحت مصدراً خطيراً لتصدير صحفيين وكتاب إلى مصر ومختلف أنحاء العالم العربى ، ومما يذكر أن سركيس وصروف ونمر ومكاريوس وزيدان وفرح انطون وشبلى شميل كانوا هم الدفعة الأولى من خريجى هذه المعاهد ، وهم الذين تصدروا الصحافة العربية فى مصر وسوريا ولبنان وكانوا أصحاب الحملة العنيفة

على الدولة العثمانية وعلى السلطان عبد الحميد ، وهم الذين مهدوا للنفوذ الاستعماري والصهيونية ولفصل العرب عن الترك وتقسيم البلاد العربية بين الصهيونية وفرنسا وإنجلترا .

٣— مؤامرة الكشف الجغرافى :

أطلق الغربيون تعبير الاستكشاف على الحملات الاستعمارية والتبشيرية التى قامت بها فرنسا وإنجلترا وغيرهما فى القارة الإفريقية ، بدعوى أنها كانت مناطق مجهولة ، وأن أمثال « ولفنجستون » و « صمويل بيكر » وغيرهما إنما كانوا مكتشفين رواداً ، فى حين تؤكد الحقائق أن المؤرخين العرب قد جاسوا خلال تلك المناطق وكتبوا عنها فى مؤلفاتهم ، فقد وصل « ابن بطوطة » إلى أعالى نهر النيجر وإلى تمبكتو وسكوتو ، قبل أن يصل إليها (الرواد الأوربيون) وكان أول من أشار إليها وذلك بنحو ثلاثة قرون .

ويحاول الاستعماريون أن يرددوا هذه الشبهة وأن يفرضوها على كتب المدارس فى البلاد المستعمرة ، مدعين أنهم اكتشفوا الهند مثلا ، وكانت الهند معروفة فى القارة الأوربية فى العصور القديمة ، وذلك قبل وصول « ماركبولو » ١٢٥٤ — ١٣٢٤م الذى وصل إلى فارس وأفغانستان وبكين والتبت ، أو فاسكودى جاما الذى أبحر حول إفريقيا ١٤٩٧م ومنها إلى الهند يضاف إلى هذا ذلك الادعاء الذى ردده الاستعمار من أن (صمويل بيكر) هو الذى اكتشف منابع النيل الأبيض ، مع أن هذه المنابع لم تكن مجهولة فى وقت ما ، وكانت الحقيقة تفرض أن يقال إنه أول من وصف هذه الأصقاع ، أما الذين قادوه إليها فهم رجال الحملة المصرية .

والواقع أن ما وصف بأنه رحلات الكشف هذه لم يكن إلا خطة الاستعمار التى فرضتها الدول الأوربية وفى مقدمتها (إسبانيا والبرتغال)

بعد تحررها من النفوذ الإسلامى فى الأندلس فى محاولة الانتقام بتطويق عالم الإسـلام وتشويه تاريخه .

وقد أشار ولفنجستون فى إحدى كتاباته إلى هذا المعنى حين قال : « إن نهاية الاكتشاف الجغرافى هى بداية العمل التبشيرى » فإن الإرساليات التبشيرية كانت تتحرك وراء هؤلاء الرحالة ، الذين كانوا فى الأصل دعاة ومبشرين ، وليس هذا استنتاجا وإنما هو نص من مصادر تاريخية مدعومة بالأسانيد . يقول رولاند أوليفر فى كتابه (العامل التبشيرى فى شرق إفريقيا) ما يأتى بالنص :

« ولقد أعد ولفنجستون نفسه منذ سنواته الأولى حينما كان يعمل فى جمعية التبشير اللندنية للاضطلاع بمشاغل التبشير الخاصة بإفريقية الاستوائية ، وبالفعل بين شعوب فطرية فى بلاد لم يكن قد سكنها الأوربيون ، وفى عام ١٨٤٩ كان ولفنجستون لا يزال يفكر بطبيعة الحال فى التجارة أكثر من الاستعمار ، وبما أنه كان أولا وقبل كل شىء مبشراً نصرانياً ، فلقد اختار كعضو فى هذه الحركة التبشيرية أن يبحث عن نهر تستطيع السفن أن تمخر فيه الى داخل البلاد ، ولقد أراد ولفنجستون أن يستكشف طرقاً فى إفريقيا للمبشرين لا للمدينة وكان ولفنجستون مبشراً قبل أن يكون رحالة ولم تكن رحلته المشهورة إلا تمهيداً للبعثات التبشيرية » .

أما فاسكودى جاما فقد لقى فى كتبنا المدرسية . اهتماما كبيرا وصور بصورة البطولة فى حين تكشف الحقيقة عن صورة بشعة لأعمال فاسكودى جاما وغيره من طلائع الاحتلال الأوربى والاستعمار ، وما قاموا به من ظلم وبطش ، وتصف الكتب التاريخية الموثوق بها (دى جاما) بأنه من أقسى خصوم المسلمين ، ففى رحلاته الى آسيا ضرب بمدافعه الثقيلة المراكب العزلاء التى تنقل الحجاج الى مكة فأحرقها ، بعد نقل أموال أهلها وأمتعتهم الى أسطوله وبعد أن حظر على رجاله إنقاذ الغرقى

ومنهم النساء والرجال حتى هلكوا جميعــا إلا عشرين طفــلا بعث بهم (دى جاما) الى البرتغال حيث حملوا على إعتناق النصرانية •

هــذه واحــدة مما فعله (دى جاما) الذى تحــاول كتب التاريخ المدرسية فى العالم العربى أن تصــوره على أنه مكتشف عظيم ، فى حين أن (دى جاما) لم يكتشف شيئا ، وهو لم يصل فى حياته الى (كالكوتا) ولم يستبقه الحاكم الهندى لأن البرتغالى (بارتلمى دياز) كان قد بلغ رأس الرجاء الصالح قبل فاسكودى جاما بعشر سنين ، فضــلا عن أن عبور المحيط من سواحل أفريقيا الشرقية الى آسيا كان معروفا من التجار العرب والهنود منذ قرون (عن الدكتور بدر الدين قاسم) •

أما هنرى المــلاح البرتغالى (١٣٩٤ ــ ١٤٦٠) فإن حقــده على العرب والمسلمين واضــح صريح ، فقد حمل فى ريعان شبابه على مدينة (ســبتة) التى انطلق منها طارق بن زياد الى الأندلس ، ثم تصــدى لمدينة (طنجة) المسلمة فرد على أعقابه ، وأسس مدرسة بحرية ضمت رجالا حملوا لواء تجــديد الحروب الصليبية وخوله البابا نيقولا الخامس حق الاحتلال النصرانى والاستيلاء على جميع البلاد حتى الهند •

أما الرحالة (البوكرك) فقــد كتب الى ملكه يفخر بأنه ذبح جميع مسلمى مدينة جــوا ، وجعلهم أكداسا فى المساجد ثم أحرقها ، وأنه أشعل النار فى سفن المســلمين ، ومع ذلك فإن هــذا الســفاح يذكر فى كتب التاريخ العربية على أنه فاتح منتصر •

٤ ــ مكتبــة الإســكندرية :

جرت محاولة التغريب على إلصــاق حريق مكتبــة الإســكندرية بالمسلمين ، وجارى المستشرقين فى هــذه الدعــوى نفر من الكتاب فى مقدمتهم جرجى زيدان وطــه حسين ، فى حين دافع عن المسلمين بعض كتاب

الغرب وفى مقدمتهم العلامة جيبون فى كتابه (سقوط الدولة الرومانية) حيث قال : إن هــذه الفرية لفقها على المسلمين « أبو الفتح العبرى » فى كتابه (مختصر الدول) وقــد ترجم الى اللغة اللاتينية متعقها اهــل الغرض من الفرنجة فاذاعوها ، فاشار جيبون الى براءة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص من التآمر على حريق مكتبة الإســكندرية ، وأثبت ان الذى حرقها إنما هم الرومان بمراكبهم الحربية فى حصارها لجيــوش كليوباترا بقيادة يوليوس قيصر .

قال جيبون : تأكد لى أنها احرقت قبل الإسلام بمائتى عــام ، وأن أبو الفرج ابن العبرى لفق الفرية بعــد الإسلام بنحو ستمائة ســنة ، ولم يتعرض قبــل أبى الفــرج مؤرخ واحــد لذلك ، حتى إن بطريرك الإسكندرية (افتيكوس) مع توسعه فى الكلام عن استيلاء المسلمين على ثغر الإسكندرية ، لم يذكر كلمة واحــدة عن حريق عمرو بن العاص لهذه الخــزانة .

وكان الرحالة البغــدادى قــد زار مصر فى عهد الملك الكامل الأيوبى فنقل هــذه التهمة وقد طبعت رحلته فى أكسفورد عام ١٨٠٠ وهى محشوة بالخرافات والأكاذيب ، قال لطفى جمعة إنه كان أفاقا — يعنى ممن لا يعتد بعــلمه — نظنه ينتمى الى حلب ويسمونه (التيس الملتحى) وقد نقض هــذه الرواية (واشنطون أرفنج) و (فليــه) ، وغيرهم كما نقضــها ارنست رينان الذى قال فى خطــاب له فى المجتمع العلمى الفرنسى : إنه لا يعتقد أن (عمــرو) هو الذى أحرق خزانة الإسكندرية لأنها أحرقت قبــله بزمن طــويل .

٥ — خــدمة الماســونية :

قامت الماسونية بدور خفى طــول فترة طويلة فى البلاد العربية قبل أن ينكشف أمرها ، وقــد اقترن تاريخ الماسونية فى البلاد العربية بتاريخ

الاستعمار فيها ، وقــد انتشرت المحافل فى مصر وسوريا ولبنان وتركزت فى فلسطين ، بهــدف إعادة بناء هيكل سليمان الذى هو الهــدف الحقيقى للماســونية .

وفى العقــد الثانى من القرن العشرين كانت شبكة المحافل الماسونية تضــم جميع مدن فلسطين وقصباتها ومنهــا القدس ويافا وغزة ، وكان رجال هــذه المحافل يتولون أعلى المناصــب فى فلسطين ، وكان المندوبون البريطانيون فى البلاد العربية « ماســون » وهم الذين يقومون بالعمل ، وكان ولسلى القائد البريطانى الذى فتــح مصر وقضى على ثورة عرابى عام ١٨٨٢ ماسونيا وقــد سجل أثر الماسونية فى نجاح خطته فقال : إنى استسهلت الصــعب وسخرت من الأهوال فى كل البلاد لأنى حيث توجهت كنت ألقى إخوانا من الماســون يرحبون بى ويساعدوننى على ما أريد ، ولست أرتاب فى نجاحى لأنى أستاذ فى الماسونية .

وقــداستطاعت الماسونية أن تســيطر على الكنيســة وبعض أتباع المسيحية ، وكان أكبر انتصاراتها اعتراف الكنيسة الكاثوليكية بها ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تنبذ كل فرد نصرانى يثبت لديها اشتراكه فى عضوية المحافل الماسونية وتسقط عنــه الإيمان المسيحى ، باعتبار أن الماسونية عقيــدة صهيونية يهودية ، والغرض منهــا محاربة الأديان ، وتطــويع المعتقــدات الأخرى للسيطرة اليهودية ، غير أنها ما لبثت أن خضعت لنفوذ الصــهيونية .

وقــد تحقق ذلك بعــد عمل متصل ، فقد استطاع اليهود فى خلال السنوات المائة الأخيرة من السيطرة على العقلية الدينية النصرانية وأمكنها تحقيق ما أطلق عليه (ظاهرة تهويد النصارى) خاصة فيما يتعلق بطبيعة القضــية الفلسطينية من الناحية الدينية ، وقــد كان توزيع الأساقفة الكاثوليك فى روما بياناً بالسماح للكاثوليك بالانضــمام للمحافل الماسونية

دليلا على استشراء النفوذ الصهيونى داخل الكنيسة وكيف بدأ تهـويد العقلية النصرانية ومسخ تقليدها الدينى •

وهكذا تكشفت أهـداف الماسونية التى كانت خفية فى العقود الأولى من القرن الميلادى الحاضر حين اتصـل بها بعض المصلحين والمفكرين ، ظنا بأنها حركة مناهضة للاستعمار ومحققة للحرية ، وكانت هـذه هى الخدعة التى استطاع بها يهود إدخال عدد كبير من المسلمين فى محافلهم •

وكان من أخطر هـذا الإغراء ما حدث فى الدولة العثمانية عندما نشأ حزب الاتحاد والترقى (تركيا الفتاة) واستطاعت الماسونية ورجالها من الدونمة [1] فى سالونيك فى احتواء هـذه الجماعة وإخضاعها لأهـدافها ؛ وعن طريقها وبواسطة زعماء من الدونمة مثل كمال أتاتورك أمكن إسقاط السلطان عبد الحميد وإلغاء الخلافة الإسلامية وتيسير وصـول اليهود الى فلسطين ، وتسليم طرابلس الغرب لايطاليا •

٦ ـــ الثورة الفرنسـية :

سيطرت على الصـحافة العربية والثقافة العربية فى فترة الثلاثينات من هـذا القرن والى اليوم ، فكرة البطولة الخارقة التى حققتها الثـورة الفرنسية ، وكان هـذا من خـداع الصهيونية البالغ ، فقد عدها الكثيرون من أولياء الثقافة الفرنسية والصـهيونية مصـدر النهضـة واليقظة • فالمعروف أن الثورة الفرنسية كانت الاداة التى مكنت اليهود من الخروج من الجيتو ، وكسر قيود الكنيسة التى كانت تحـول دون اتصالهم بالمجتمع ودون التـزاوج منهم أو الامتزاج المؤثر فيهم ، فهى التى حققت لهم وضعا اجتماعيا مساويا لوضع النصارى ، وأزالت فكرة الدين وأحلت

---

(١) الدونمة هم أحفاد يهود اسبانيا الذين اخرجوا منها بعد الاسترداد النصرانى للاندلس وسكنوا سالونيك فى البلقان بعد التظاهر بالاسلام •

محلها فكرة الوطن ، فلم يعد يقال مسيحى ويهودى ، بل يقال فرنسى وإنجليزى .

بدأت الثورة فى فرنسا بما هيأت له الأذهان كتابات : فولتير وروسو وديدرو وسائر رجال الإنسكلوبنديا فجاءت الثورة وفى الأذهان تربة صالحة لها ، وكانت الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات فى أوربا قد قضت على الوحدة النصرانية الجامعة . وأحلت بدلا منها صراع القوميات ، وكسب اليهود من ذلك السيطرة الاقتصادية والاجتماعية فى كل قطر وأن « الحرية والإخاء والمساواة » شعار الثورة الفرنسية هى شعار الماسونية التى مهدت للثورة الفرنسية لتحقيق هدف اليهود .

٧ — الحملة الفرنسية :

هناك محاولة دائبة من جانب دعاة التغريب ، للقول بأن : الشرق الإسلامى لم يعرف « اليقظة » إلا بقدوم الحملة الفرنسية ، وهى دعوى باطلة بواقع التاريخ نفسه ، وهذه الدعوى إنما تستهدف القول بأن العالم الإسلامى لم ينهض إلا بفضل الغرب ونفوذه ، وأنه لم يستيقظ حتى أيقظه الغرب ، وهو خطأ صريح حيث لا سند تاريخياً أو علمياً له ، فإن العالم الإسلامى والأمة العربية قد استيقظا قبل الحملة الفرنسية بأمد طويل .

ومن قبل وصول الحملة الفرنسية كانت حركة العلماء فى الأزهر — بقيادة الإمام أحمد الدردير — فقد وضعت أول وثيقة لحقوق الإنسان حينما أخذت العهد المكتوب على الأمراء المماليك بألا يظلموا الرعية ولا يفرضوا عليها أى ضرائب أو قيود .

فاذا كان ذلك كذلك فإن القول بإعلاء الحملة الفرنسية ليس إلا من دعاوى المستغربين والمستعمرين ، التى ملأت الكتب المدرسية بفضل

نفوذهم ، فى حين أن جميع المراجع الصحيحة تقرر أن الحملة الفرنسية لم تكن مصـــدر نهضـــة بقدر ما كانت عامل تقويض للنهضة الأصيلة •

والأمم لا تتجـــدد من خارجها وإنما تتجدد من مصـــادر فكرها من أعماق روحهـــا •

ذلك أن الحملة الفرنسية ولدت المعاهد التبشيرية فى سواحل الشام وبيروت ، كما يقول الدكتور شكرى فيصـــل ، ومن المستحيل القول بأن الشرق كان سيظل نائماً ، لأن لهـــذا الشعب تاريخاً فى الحضارة وقدماً فى التمدن وجـــذورية عريقة ، وعندى أنه لولا الحملة الفرنسية لاستطاع الشرق العربى أن ينهض نهضـــة حقيقية والشرق له تقبل ذاتى للحضارة ، ليس مفروضاً عليه من الخارج ، ولم يعرف المسلمون الموت بل الانحدار والضـــعف فقط وقد مرت بهم كما مرت بغيرهم أدوار الخمول •

٨ — توحيـــد الأديان :

ارتفعت على فترات طويلة دعـــوة اتحاد الأديان أو توحيد الإسلام والنصرانية وفى عام ١٨٨٣ كان القمص إسحق تيلور يقوم بالدعاية لتوحيد الإسلام والنصرانية على قاعدة التوحيد الموجودة فى الإسلام والموجودة عند الكنيسة الإنجيلية ، وقـــد اتصـــل عن طريق صديق فارسى هـــو (ميرزابكو) بالأستاذ محمد عبده وهو فى منفاه فى دمشق ، وقـــد تجدد هـــذا الموقف مرات ومرات ، وكان هناك من يدعى خريستفو جباره الذى كان يحمل لواء هـــذه الدعوة فى مصر •

وقد هاجمه رجـــال الكنيسة وقال القمص سرجيوس : إنه أراد أن يجعل النصـــارى مسلمين ينكرون لاهوت المسيح الذى هو أساس دينهم ، والذى تتركز فيـــه كل عقائدهم ، كما أنه أراد أن يجعل المسلمون نصارى يعترفون بصـــحة الإنجيل ، الأمر الذى إذا ســـلم به المســـلمون لوجب

ألا يقبلوا كتابا آخر غير الإنجيل ، وأن يعترفوا بلاهوت المسيح ، كمـا أنه أراد أن يجعل اليهود نصارى لأنه طلب إليهم إن يعترفوا بان المسيح قـد جاء الى العالم ، ولو اعترف اليهود بمجيء المسيح لهجروا طقوسهم اليهودية وعاداتها وصـاروا نصـارى لأن المسيح هو محور نبوآتهم ، ومعنى هـذا استحالة هـذا التوحيد بين الأديان ·

وهناك محاولة أخرى موضع الشـك والريبة هى محاولة البهائية التى تتظاهر بتوحيد الأديان وهى تهـدف حقيقة الى هـدم الأديان لتحل محلها النحـلة البهائيـة ·

ومعنى هـذا عبر المحاولات المختلفة أن من ورائها هدفا سياسـيا استعماريا أو صهيونيا من أهـداف تلك الدعـوات العاملة على تقويض المجتمعات الإنسانية ، وليس فى مفهوم الإسلام نفسه هـذا المفهوم ، وإنما فيه تساند أتباع الكتب التى أصلها سـماوى على مقاومة الالحاد والإباحيـة ···

الفصـــل الخامس

قضـــايا مثـــارة فى ضـــوء التفســـير الإســـلامى للتاريخ

فى ضوء التفسير الإسلامى للتاريخ ، يجب أن ينظر المثقف المســلم الى مختلف وقائع التاريخ الإسلامى وأحــداثه ، وأن يكون حــذر من الوقوع تحت براثن النظريات الوافــدة ، سواء النظرية الغربية المادية أو النظرية الماركسية الاقتصادية ٠

وعلى المثقف المسلم أن يضــع المفهوم الإسلامى للتاريخ أمام ناظريه وهو يقرأ كتابات الغربيين عن الإسلام ، وكتابات المسلمين أنفســهم عن تاريخهــم ٠

ومنهم الإسلام واضــح : هو المفهوم الجامع بين المــادة والروح ، والقلب والعقــل ، والدنيا والآخرة ، والذى يهــدف الى إقامة المجتمــع الإسلامى والحضارة الإسلامية على هــدى من توجيهات القرآن : مجتمعا ربانياً وحضارة ربانية خالصــة ، لا تريد علواً فى الأرض ولا فســاداً ، وهناك عــدة قضايا نحاول أن نفصل فيها القول :

أولا — ما دار حول القرامطة والحــلاج والباطنية :

فى مقدمة هذه الشبهات : ما دار حول القرامطة والحلاج والباطنية :

فقد تعددت أبحاث فى هــذا العصر تحاول أن تصف حركة القرامطة بأنها حركة العدل الاجتماعى فى الإسلام ، أشار الى هذا الدكتور طه حسين فى مجلــة « الكــاتب المصرى » التى كــان يصــدرها لحســاب اليهود فى أواخر الأربعينات ، وقــد أضاف اليها حركة الزنج أيضا ، وتحــدث

عن هذا الكاتب الفرنسى جارودى — قبل اسلامه — حين ربط بين نحلة القرامطة وبين العدالة الاجتماعية فى الإسلام .

وكانت الصهيونية العالمية قد عقدت (مؤتمر بلتيمور) فى الولايات المتحدة فى هذه الفترة ، من أجل (تزييف تاريخ الإسلام) وإثارة الجدل حول قضايا الشعوبية والباطنية ، وعلى أثر ذلك صدرت فى البلاد العربية عدة مؤلفات لهذا الغرض ، تصف القرامطة والزنج وحركات الانتقاض على الدولة الإسلامية ، بأنها حركات العدالة الاجتماعية .

وقد كتب كثيرون فى دحض هذه الشبهات المفتراة ، فى مقدمتهم الدكتور محمود قاسم ، الذى قال :

« إن دعوة القرامطة لم تكن تسعى فى الحقيقة الى تحقيق كرامة الإنسان وتمهد لاحترامها ، بل كانت حركة انفصالية تمت فى عصر تحلل الدولة العباسية الى دويلات ، فكانت حركة القرامطة استمراراً لثورة الزنج التى قامت قبل منتصف القرن الثالث الهجرى ، وكانت نوعاً من الأخذ بالثأر ، وقد حرص هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم ، على إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم .

أما حركة القرامطة التى قامت فى الشمال الغربى لبلاد العراق ، فقد اتخذت مراكز لها فى منطقة الكوفة وفى بعض بلاد الشام وفى سواحل الجزيرة العربية المطلة على الخليج العربى ، ثم استقرت آخر الأمر فى البحرين ...

فقد كانت على صلة وثيقة بالحركة الإسماعيلية فى دور الستر ، وإن اختلفت معها فى دور الظهور ، فإن العبيديين الذين تسموا باسم الفاطميين ، رأوا بعد ظهور دولتهم فى المغرب أن يستهلوا بتوجيه السياسة فى ذلك العصر بإسقاط الدولة العباسية .

ومن جانب آخر يمكن القول بأن الحـــلاج المتصوف المشهور ، كان من أكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية إذ كان على صـــلة بالقرامطة ، وقـــد روى عنه أنه أقسم على ذلك فى أحـــد أحاديثه القدسية التى يزعمها لنفسه لسنة ٢٩٢ هجرية وهى السنة التى شهدت ثورة القرامطة الكبرى •

ولقد كانت حركة القرامطة حركة طائفية ، فقد أقر القرامطة شـــيوع المـــال فى مجتمعهم ، ولكن طبع العبيـــد الذى يتكون من الأسر لم يكن يتعامل على قـــدم المساواة مع الطباع الأخرى • وقـــد تظاهر أصحاب هـــذه الحركة بالتشيع والميل الى البيت العلوى ، ولكنهم سلكوا من الناحية الأخرى سلوكا ينفى ذلك اذ اعتدوا على الأماكن المقدسة وجرحوا صحابة الرسول بل الرسول نفسه — صلى الله عليه وسلم — وقتلوا نحـــواً من ثلاثين ألفا من الحجاج وانتزعوا الحجر الأسود من الكعبة صرفاً للناس عن الحج •

٣ — ثـــورة الزنـــج :

ومن ناحية أخرى فقـــد استغل دعاة التفسير المادى للتاريخ ، بعض المواقف الهدامة فى التاريخ الإسلامى ، لمحاولة وصـــفها بأنها حركة تقدمية أو ثورية ، ويولون (ثورة الزنج) نفس الاهتمام (بحركة القرامطة) • وقـــد أضفوا صـــفة البطولة على (على بن محمد) الذى تجمع المصادر على عـــدم صـــحة ما ادعاه من نسب علوى ، ويرون أنه إنما ادعى هذا النسب خـــدمة لمآربه ، وليضفى على حركته طابع الشرعية ، وقـــد بدأ حياته مشعوذاً يشتغل بالتنجيم والسحر ، وانتقل من سامرا الى البحرين ، وجعل منطقة البصرة مركز نشاطه ، فجمع حوله (الزنج) فى البصرة فى ثورة عارمة أشـــعل نارها سنة ٢٥٥ هـ وادعى خـــلال ذلك أنه المهـــدى المنتظر ، كما ادعى النبوة بعد ذلك ، وقـــد استطاع أن يخـــدع أناســـا كثيرين بهذه الدعاوى ، فأطاعوه فيما ذهب اليه وأحرقوا البصرة ، وأعملوا السيف فى أهلها واستباحوها ثلاثة أيام •

وصعد الزنج فى حركتهم نحــو بغداد فدخلوا واسط عــام ٢٦٤ والنعمانية فأحرقوهما ، واستمر لغطهم عشر سنوات ، وهم يحتلون منطقة شاسعة تمتد من الأهواز وواسط وتصــل الى مشارف بغــداد ، وقــد شملت الحركة بتخريبها ، الزراعــة والتجارة والمواصلات ولكن الأمــر انتهى بأن سقطت عاصمة الزنج : « المختارة » بعد أن دافعوا عنها وبعــد أن قتل على بن محمد ٠

ولا يمكن لمنصــف ولا لمثقف أن يؤمن بأن مثل ثورة الزنج أو فئــة القرامطة يمكن أن تمثل منهجا إســلامياً أصيلا ، فالإســلام لا يقر مثل هذا النوع من المؤامرات أو المظــالم ، ولم يكن لكلاهما منهاج واضــح للإصلاح ، ولم تقم إحداهما (منهج الإســلام فى المجتمع) ولا فى نفوس القائمين بها ، بل وقعتا فى نفس الخطأ الــذى قامت من أجلــه ، إذ أقبل الزنج بعد نجاحهم المؤقت على اقتناء القصور واسترقاق النساء واستبعاد سادتهم ، وكذلك فعل القرامطة ، فقــد خدعوا الناس عن طريق الادعــاء بأنهم من آل البيت ٠

وكانت أشنع أعمالهم « الغارة على مكة » وقتل الناس وسرقة الحجر الأسود ، وكانت دعوتهم إلى (شيوع الأموال) كما أسقطوا الحدود بين الحلال والحرام ، وأحلوا زواج الأخوات وتقديس الخمر ٠

وكانت لهم تفسيرات باطنية للقرآن والحــديث ٠ وقــد لعب اليهود وراء هذه الحركات وكانت الإسرائيليات مادة فكرهم،ويذهب بعض المؤرخين الى أن القرامطة وغيرها من الدعوات الباطنية يهودية الأصل والفروع ٠

٣ ــ رســائل إخوان الصــفا ودعواهم :

يتردد كثيراً بين الباحثين الحــديث عن رسائل إخوان الصفا ، على نحــو يوحى بأنها جــزء من التاريخ الثقافى الإســلامى ، وقــد أولى

المستشرقين والمبشرين والدكتور طه حسين ، مثل هــذه الأعمال المشبوهة اهتماما ، وأعادوا طبعها ونشرها ، ودفعوا كثيرا من الباحثين المسلمين الذين يسافرون الى الغرب — على حساب بعثات التبشير والاستشراق — الى دراستها ، والى تبنى وجهة نظــرهم فيها ، واستغل ذلك لخدمة أهــواء الفكر اللبيرالى والماركسى على الســواء •

والحقيقة التى كشــف عنها الباحثون المنصفون هى : فساد هــذه الدعوى وأن العلاقة بين إخــوان الصــفا والباطنية وثيقة الصــلة حتى قال المستشرق كازنوفا : (إننى على أتم الثقة من أن آراء إخوان الصفا هى برمتها آراء الإسماعيلية) ، ومحور هــذه الآراء يتصــل بوحــدة الكون (أى وحــدة الوجود وما يتصل بها من الاتحاد والحلول مما يتنافى مع مفهوم الإســلام الصحيح) •

ويعتقد (جواد زيهر) : أن رسائل إخوان الصــفا كانت الأســاس الذى بنيت عليــه معتقدات الباطنية وأن هنــاك اتفاقا بينهما فى مذهب الحلول ، وتفسير القرآن تفســيرا غير ما يدل عليه ظاهر اللفظ ، وهــو الأسلوب الباطن الذى عرف عنهم •

ويقول إخوان الصــفا فى رســائلهم : « واعلم أن للكتب الإلهيــة تنزيلات ظاهرة هى الألفاظ المعهودة المحــدثة ولكن لها تأويلات خفيــة باطنة ، وهى المعانى المفهومة والمعقولة •

وقد أفــاض الباحثون فى الكشــف عن وجهة الإســماعيلية الملقبين بالحشاشين ، فقد أتاحوا لتابعيهم كل أنــواع اللذات وأطلقوا لشهواتهم العنان وأباحوا لهم زواج الأخوات وكل من يحرم الدين الزواج بهن •

كما عكفت على تعاطى الحشيش فئة طاغية مجرمة ، تحلل المحرمات وتحض على المسكرات وترى فى القتل عملا مشروعاً يثاب عليه فاعله •

وفى أثناء الحروب الصليبية كان لهم يد سـوداء ، قاموا فى أثنائها بأفظع الأعمال الوحشية ، فـأطلق عليهم الفرنجة اسم (أسـاسين) [١] وجعلوه لكل قاتل مجرم ، وقد قاموا بعديد من فظائع الأعمال رسمت بلون الدم الأحمر ، وقـد أشـار المسعودى وأبو الفداء إلى أنه بلغ من جرأة الحشاشين أنهم كانوا يخطفون الناس من الشـوارع والحارات بأغرب الطرق • وقـد توفى الحسن الصباح ٥١٨ هـ وظلت الزعامة قائمة فى قلعة الموت حتى ٦٥٤ نحو قرنين •

٤ — الحكـومة الثيوقراطيـة :

من الأخطاء التى ينسبها الغربيون ظلما للتاريخ الإسلامى ، اتهامه بأنه أقام (الدولة الثيوقراطية) أو يدعو الى اقامتهـا ، وتعنى الدولة الثيوقراطية : الحكومة الدينية فى المجتمع الغربى •

ومن الحقائق الواضـحة الأكيـدة أن الإسـلام لم يقـم الدولة الثيوقراطية — على المفهوم الذى عرفه البابوات فى حكومتهم — فالدولة فى المفهـوم الإسلامى : تجعل جميع المواطنين متساوين أمام القانون فى الحقوق والواجبات ، ولكل مواطن الحق فى ارتقاء أعلى المناصب ، وحرية العبادة فى الدولة الإسلامية مكفولة لجميع المواطنين ، والمبادىء الاجتماعية فى الدستور الأساسى توافق جميع الديانات وإن احتوى بنوداً تشـجع نمو العقيدة الإسلامية دونما تمييز للمسلمين عن سواهم بمنافع خاصة •

ومفهوم الدولة الثيوقراطية (أى الدولة الدينية) لا يقوم فى العالم الإسلامى قط ، لأن الإسلام ليس عبادة وتديناً ، ولكنه أسلوب صـالح

---

(١) تعتبر كلمة ASSASSIN فى اللغات الاوربية ، محرفة من كلمة خشاشين ، ولكنها استعملت للدلالة على الاغتيالات ، التى اتصف بها الاسماعيلية الباطنية فى حقبة الحروب الصليبية ، وكانت كلها اغتيالات موجهة ضـد قواد المسلمين الذين وقفوا فى وجه الصليبيين أمثال نور الدين محمود وصلاح الدين ، وان فشلوا فى قتل هذين .

للحياة الكريمة تسوده الأصالة ، ويتفوق فيه الجوهر على المظهر ، والدولة الثيوقراطية — التى يتولى أمرها رجال الدين — على المعنى المتعارف عليه فى الغرب لا توجد فى الإسلام ، وشريعته السمحاء لا تقر وجود ما يسمى (رجل الدين) بل (عالم الدين) والعلمانية والثيوقراطية لا وجود لهما فى الإسلام ، حيث فى الدول الإسلامية يتساوى المواطنون أمام القانون فى الحقوق والواجبات ، وحيث حرية العبادة مكفولة لجميع المواطنين على السواء .

ومن هنا فإن ما يردده دعاة التغريب من وصف الحكومة الإسلامية بالدولة الثيوقراطية ليس صحيحا على إطلاقه حيث لا توجد فى الإسلام سلطة للكهانة .

وقد حاولت قوى التغريب إثارة شبهة القول بأن الحكومة الإسلامية كانت حكومة ثيوقراطية على النحو الذى عرفته أوربا لإلقاء الكراهية والفزع من أن يحكم الإسلام ، كما كشف علماء السنة بقوة واستفاضة عن مبدأ « الاختيار » فى إقامة إمام المسلمين لأنه لا يوجد فى الإسلام ذلك المسلك الكهنوتى الذى عرفه الغرب .

٥ — مفهوم البطولة الإسلامية :

كذلك فقد حاولت دراسات الغربيين المغرضة للتاريخ الإسلامى ، تزييف مفهوم البطولة الإسلامية ، وقد أدخلت على المسلمين فى العصر الحديث مفاهيم وافدة نحو البطولة ، أخذت تتمثل فى اقامة التماثيل ، وفى تمجيد الأفراد وإسباغ صفات القداسة ، وامتناع الخطأ عن بعض البشر ، على النحو الذى يخرج البطل من دائرة الإنسان الذى يخطىء ويصيب .

والإسلام يكرم البطولة تكريماً معنوياً بتكريم العمل الذى قدمه

البطل ونشر الفكر وإعزاز الرأى ، وهو تخليد معنوى يقوم على تقــدير الكلمة ، ولا ينصــب أبداً على تقدير الفرد لذاته أو تقديســه ، أو وضــعه فى صــورة يبدو منها فى مجــال التقديس ، على النحو الذى عرفه الإغريق قديماً ، حين رفعوا أبطــالهم إلى مصــاف الآلهة وأنصاف الآلهة .

ونحن لا نجارى الأمم الغربية فى نظرتها فى تقديس الأبطــال ، هذه النظــرة المستمدة من تراثها الإغريقى القديم وطابعها الوثنى ، ذلك أن الإســلام له طابعه ومفهومه لهذه القيمة الإنســانية ، فبطولة الإســلام بطولة فكر لا بطولة تمــاثيل وأحجار ، وليس فى الإســلام هيــاكل تدمر ولا بعلبك ولا الأهرام .

ويقول الدكتور عبد الســلام العجيلى : « إن فن العمــارة العربية لم يتميز بالضخامة والرسوخ ، فى حين يتميز بالجمــال والدقة وخفــة الظل ، فهو لم يقصــد به أن يطاول الدهر ، وإنمــا أريد به أن يكون متعة للعين والروح ، ومعنى هــذا غلبة المعنويات على الماديات فى طــابع الفن والبطــولة » .

وحيث ينقسم العــالم إلى نظريتين فى البطولة : النظرية الفردية فى الغرب ، والنظرية الاجتماعية فى الشرق ، فإن الإســلام يقف جامعــاً بين المفهومين رابطــاً فى دقة ويسر بين الأمرين ، فالبطل يأتى نتيجة لحــاجة المجتمع ثم هو يصــنع المجتمع والتــاريخ ، أما النبوة فشىء خــارج عن نطاق البطولة البشرية العــامة ، فهى من أمر الله تبارك وتعالى واصطفائه لخلقــه .

والبطولة فى الإســلام تتمثل فى النبى محمد صــلى الله عليه وسلم ، فهو قد أخرجته الجزيرة العربية ، ثم أخرج هو الجزيرة العربية وغيرهــا من الظلمات إلى النور ، وغير وجــه العــالم كله ، غير قيمة ومفاهيم القيم ، وجــاء برســالة تحمل مفهوماً جديداً لكل شىء ، فيه الفطرة والربــانية والأصــالة .

ولقد كانت البطولة العربية قبل الإســـلام : بطولة الكرم والشجاعة والنجدة ، فاحتفظ لهـــا بهذه القيم ، ولكنه غير مفاهيمها حيث كان الكرم من أجل الفخر ، والشـــجاعة والنجدة من أجل المباهاة . فوجه هدف الكرم والشـــجاعة والنجدة جميعا إلى التماس مرضـــاة الله ، ونقاها من زيف الفخر والمباهاة •

ومن هنـــا فإن تكريم الأبطال فى الإســـلام يختلف عن تكريمهم فى الأمم المختلفة ، وهو تكريم للبطولة لا للبطل وللعمل لا للفرد ، ولا يحمل شيئا من ضروب الوثنية أو التجســـيم ، أو إعلاء البطل عن إنســـانيته •

وقد آمن المسلمون بأن البطولة للفكرة لا للفرد ، فعزل عمر بن الخطاب خالداً من قيادة الجيش ، هو فى أوج البطولة ، وهـــو الذى لم ينهزم فى معركة وقـــال كلمته التى تمثل مفهوم البطولة فى الاســـلام : خشيت أن يفتن الناس به فأردت أن يعلموا أن الله هو الصانع •

كذلك فإن البطل المســـلم يجب أن يلتمس وجه الله وحده ولا ينسب إلى نفســـه شيئا من الفخر ، وقصة صاحب النقب وغيره فى هذا معروفة مشـــهورة •

٦ — الفتح الإســـلامى :

حاولت كتـــابات المستشرفين الغربيين عن الفتح الإســـلامى إثارة الطعن فى « عظمة الفتح الإســـلامى » وتزييف مفهوم « انتشار الإسلام » بتفسيرات مادية مضـــللة ، والحقيقة أن الفتوح الإسلامية لم تكن حركة توســـعية ولا حرباً صليبية ضد المسيحية ، وإنمـــا كانت رســـالة تمدينية حضارية لا تهدف الى أى لون من ألوان الاســـتغلال •

وفى هـــذا المعنى يقول سامى اليافى فى كتابه (الحضارة الإنسانية بين الشرق والغرب) : إن القول بأن انتصار العرب — يقصد المسلمين — المذهل

مرده ضـــعف الدولة البيزنطية ، بعد أن استغرقت الحروب الفارســية مواردها • هذه مغالطة صـــارخة ، لأن الإمبراطور هرقل قـــد أنهى حرب الفرس بالنصر الباهر عـــام ٨ هـ (٦٢٩ م) ثم تمتع خمس ســنوات من السلم الشـــامل قبل أن يفاجأ بالفتح الإسلامى ، وقد أعد العدة بنفسه وعين أخاه ستودور لقيـــادة الجيش الذى دحره المسلمون فى أجنادين ، ولا ريب أن انتشـــار الإسلام فى هذه المرحلة القليلـــة التى لم تزد على ثمانين عاما قد أدهش المؤرخين ، ولأنهم جاءوا على الأثر المعنوى والروحى والنفسى للاســـلام فى البلاد التى دخلهـــا ، فقد ذهبوا مذاهب مختلفة فى التعليل •

* * *

والواقع أن التفسير الإسلامى للتاريخ هو وحده القـــادر على طرح المفهوم الاصـــيل لهذه الظاهرة • ولقد اجمـــع المؤرخون على أن سرعه « انتشـــار الإسلام » أمر فريد عجيب على مدى التاريخ ، لأن المسلمين لم يكونوا من الكثرة العددية ولا من قوة العدة والســـلاح ، ولا من حيث استيعاب الفنون العســـكرية ، ولا من حيث حضـــارة العلم والمدنية بهذه المثـــابة •

غير أن التفسير الصحيح والســـليم أن سرعة انتشـــار الإســـلام : إنمـــا ترجع إلى أنه كان أفضـــل نظام اجتماعى وســـياسى تمخضت عنه العصـــور ، وأن ســـعادته ترجع إلى أنه وجـــد فى كل مكـــان ذهب إليه أمما استولى عليها الخمول ، ونشـــا فيها النهب والعسف •

فلما جاءها الإســـلام لم يجد إلا حكومات مستعبدة مستأثرة متقطعة الروابط بينهـــا وبين رعاياها ، وكـــان نظام رأس المـــال فى الإمبراطورية الرومانية مبينا على الاسترقاق ، وكانت الآداب والثقـــافة الاجتماعية آخذة فى الانحلال — بل كانت منحة لأنهـــا تمجد الفحش وتكافىء على البطولة

بالفواحش — ومن ثم وجدت جماهير الأمم فى الإســلام منقذاً ومحرراً ، ذلك لأنه أقام العدل ، ولكنه لم يفرض عقيدته بل ترك الناس يدخلون فيه باختيارهم ، وقد دخلوا فى هذا الدين حين تبين لهم صدق الداعين إليه ٠

أما تلك التفسيرات التى تقول بأن قسوة الحياة المادية والاقتصادية ، هى التى دفعتهم إلى التطلع إلى ما فى البلاد التى فتحوهــا ، من موارد اقتصــادية فإنه باطل : لأنه لو صــح لاقتصر المســلمون على فتح البلاد الخصــبة الغنية التى حولهم ولمــا ذهبت جيوشهم وقبائلهم الزاحفة إلى البلاد الفقيرة الشــحيحة النائية عن مواطنهم ، ولكن الحقيقة هى أنهــم كانوا يهدفون أســاسا إلى نشر كلمة الله تبارك وتعــالى ورسالته إلى النـــاس كافة وفى كل مكــان ، مهمــا احتملوا فى ســبيل ذلك من العسر والمشقة ، ولو كان لهذا التفسير المــادى أى ظل من الحقيقة لأسرع الخلفاء الراشــدون الأولون الموجهــون لتلك الفتوح الى نقل مقــار سلطانهم وحكومتهم من مكة والمدينة وصــحراء الجزيرة العربية إلى غيرها من البلاد المفتوحــة ٠

الفصل السادس
تحفظات على مناهج
دراسة العلوم

على طريق تأصيل المناهج المطروحة فى أفق التعليم والثقافة الإسلاميين العربيين ، وتحريرها من الانحرافات والأخطاء وما يتصل بوجهات نظر الغرب إليها ، أو ما وضعه كأسلوب لمواجهة تحديات مجتمعه ، أو لما تأثر به نتيجة لمفاهيمه الدينية أو لغلبة الفكر الوثنى والمادى على هذه المناهج ، يتحتم علينا أن ننظر إلى مناهج دراسة العلوم ٠

والواقع أن منهج دراسة العلوم : فى كليات العلوم والطب وغيرها فيه نقص وفيه انحراف عن المنهج الإسلامى ٠

أما النقص فهو ذلك العجز الواضح عن « تأصيل المناهج » بإثبات دور المسلمين فى بناء هذه العلوم وتقديم المنهج التجريبى ٠

أما الانحراف فهو فى اعتبار فروض العلماء أمثال دارون ولامارك وغيرهما من العلماء : حقائق مسلماً بها وخاصة فى مسألة خلق الكون والإنسان التى لم يستطع العلم أن يصل فيها إلى شىء موثوق به ٠

المقدمات الأساسية :

ومن هنا فإن دراسات العلوم فى حاجة إلى مقدمات أساسية :

أولا : ان نظريات العلم هى فروض قدمها العلماء ، وهى تقبل الصواب والخطأ ، وأنها تتغير دوما وماتزال تتغير كلما اكتشف العلم شيئا جديدا ، وأن الحقائق العلمية فيها قليلة جداً ، وما بقى فما زال فى دور البحث والتجربة حتى يصل فيه العلم إلى حقيقة ثابتة ٠

ثانيا : أن نظريات كثيرة ظهرت فى القرن التاسـع عشر ، كانت دعامة من دعائم النظرية العلمية قد تجاوزتها الكشوف الجديدة وغيرت وضعها ، وخاصـة فيما يتعلق بنظرية (الجوهر الفرد) و (التطور المطلق) وغيره •

وقـد ظهرت فى السـنوات الأخيرة أبحاث علمية دقيقة كشـفت عن الأخطاء التى وقع فيها دارون ولامارك وهكسلى والتى اعتبرت فى وقت من الأوقات حقائق علمية ثابتة •

ثالثا : أن كثيراً من النظريات والفروض العلمية التى جاءت فى دائرة العلم البيولوجى ، قـد تجاوزها الفلاسفة إلى مجـالات نظرية تختلف عن منهج العلم نفسـه (كالذى قـام به سبنسر) ، بل إن هنـاك وثائق تكشـفت تثبت أن بعض القوى العالمية كان لهـا أثرهـا فى تبنى بعض النظريات العلمية للتأثير بهـا فى مجال المجتمعات البشرية وهدمهـا (راجع بروتوكولات صهيون) •

رابعا : أن الخلاف بين العلم والدين فى الغرب ، كان له أثره الواضح فى الحملة على الدين بصـفة عامة ، مع أن الخلاف كان بين العلمـاء وبين تفسـيرات دين الغرب نفسـه ، ليس الدين بمجموعه ، فضـلا عن أن علماء الغرب لم يكونوا قـد أحاطوا تماماً بمفهوم العلم فى الإسـلام • أو لم يكونوا قد اسـتوعبوه فهو يختلف اختلافاً كبيراً عمـا يدينون به •

خامساً : أن العلم قـد مر بعدة مراحل : حين غالى أولا فى قدرته على فهم الحياة واستكناه أسرار الوجود ثم حين عاد فأعلن عجزه عن ذلك وحدد هدفه بأنه تفسير الظواهر ، وأن مهمته محدودة بالعالم المـادى المحسوس وحده وأن مـا سوى ذلك هو من شأن الفلسفة •

سادساً : عندما وصـل العلم إلى انفلاق الذرة حدث تحول خطير فى طريق العلم ، فقد تكشف الأمر عن حقائق مغايرة للنظرية المـادية • بل لقد قررت الحقائق العلمية الأصيلة أن العلوم الطبيعية لا تسـتطيع أن تدرك

كنه الدين فى مجالاته الروحية والاجتماعية ، لأن العلوم الطبيعية مـادية لا تستطيع أن تمارس غير المحسوس والملموس .

وفى نظـام الكون وفى طبيعة النفس البشرية إحساسات ومشـاعر لا تخضع للمحسوس ، ومن هنا يظهر خطأ خضـوع المفاهيم الاجتمـاعية والنفسية والأخلاقية وغيرهـا من الدراسات الإنسـانية لمناهج العلوم الطبيعية والتجريبية ، أو محاولة إخضاع الظـواهر الاجتماعية لقوانين معينة على نمط قوانين الطبيعة فى علم الفيزياء .

سابعاً : عجز العلم عن حل كل المشـاكل ، وخاصـة حاجة النفس الإنسـانية ، وقد كان الإنسـان فى الغرب يظن أن العلم سيكشف له أسرار الكون ، ولكن العلم عجز إلا عن تفسير بعض الظواهر .

وكان الإنسـان يظن أن العلم سيرد إليه الاطمئنان والسكينة ويدعم الصلة بينه وبين خالق الكون ، ولكن العلم فارق الارتباط بالحقائق الأساسية فانعزل عن الحقيقة الإلهية ، كمـا انفصـل عن الالتزام الأخلاقى ، ومن ثم فإن تقدم العلوم أدى إلى الإلحـاد وإلى انحطاط الأخلاق . وهـذه مسئولية الذين فصلوا بين الروح والمـادة والعلم والدين .

ثامنا : أن العلم يظل قاصرا لعدم اعترافه بعديد من الحقائق والمعانى التى أهملها العلماء اهمالا تاماً (غير المـادة والشحنات الكهربائية) .

يقول ويتهد فى محـاولة التقريب بين العلم والفلسـفة فى كتـابه (مقدمة فى الفلسفة المـادية) : « إن هـذه الحقائق الأخرى أعطت العالم صـورته المعروفة وخلقت مـا فيه من قيم ومثل ، وإن العلم بعدم اعترافه بهـذه الحقائق يقف حجر عثرة فى وجـه المبـادىء الإنسـانية والقيم الأخلاقية والمبادىء الدينية »

ويقول ويتهد : « إن خطـا العلم أنه يدرس الأشـياء بعد عزلهـا

وتجريدها من كل صـفاتها وعلاقاتها مع الأشيـاء الأخرى ، ومنها التفرقة بين المـادة وصفاتها وبين الشيء ومحيطـه ، وبين العقل والجسـم وبين الحياة والمـادة ، هـذا التفريق يعطى صـورة مشوهة للعلم ، وهـذا التفريق بين العقل والجسـم والحياة والمادة هو التجريد أو العزل اللذان يشـوهان الحقيقة الكونية ويحـولان دون معرفة حقيقتها ، وأن الأشـياء الكونية مرتبطة بنفسها بعلاقات ونظم دقيقة فهى مرتبطة بماضيها وحاضرها ومستقبلها ومحيطهـا فضلا عن ارتباطها بغيرها من الأشـياء أن الحيـاة والحس والعقل صـفات من صفات العضـوية ولا يجوز اعتبارها جوهرا مستقلا عن المـادة مطلقا » ٠

تاسعا : خطأ النظرة المـادية فى النظر للانسـان : تلك النظرة التى تجعلـه أقرب إلى الحيوان ،لتنكر عليه النوازع الروحية والمثل العليـا ، وتحصره فى محيط ضـيق لا يتعدى مطالب الجسـد ومدركات الحس ٠

ومعنى هـذا انه لا يؤمن إلا بالجـانب المادى فى الإنسان ، وكذلك خطأ القول بالجبرية المادية التى لا تجعل للانسـان أمامها فرصـة للاختيار والإرادة الحرة ٠

عاشرا : كشف العلم أخيرا عن حقيقة خطيرة لهـا أثرها فى تحـول الفكر العلمى كله : فقد أثبت العلم أن كل ما كنا نتصـوره ضدين متقابلين : (المـادة والطاقة) ليس صحيحا ، فليس هناك طاقة ومادة ، وإنمـا هناك طاقة مجمدة تأخذ صـورة المادة ، ومادة مشـعة تأخذ صورة الطـاقة ، والانتقال من إحدى الصورتين إلى الأخرى مسـتمر ومتواصـل ، ويخضع لقانون ثابت ، فالأصـل الأولى للمـادة أو للطاقة هى الإشعاع والإشعاع أحد عناصر الضـوء فالضوء فى الأصل نقطة الابتداء فالوجود كله مشـتق من الضـوء ٠ وهكذا تؤدى بنا الطرق كلهـا إلى قيام جوهر واحدة وقوة واحـدة ٠

ويصدق على هذا قول القرآن الكريم : (الله نور السموات والارض) وهكذا تنهدم النظرية المادية التى يدرسها الطلاب فى الجامعات « على طول البلاد العربية والإسلامية وعرضها » هدماً تاماً وتنكشف عن خطأ نظرية الجوهر للفرد (١) .

حادى عشر : إن أخطر ما منى به الفكر العلمى الغربى هو : الانقسام والتمزق بين العقل والوجدان من حيث استقلال العلم بالطبيعة وما انتهت إليه من تطوير الحياة تطويراً جعل للآلة والتقنيات مكان الصدارة . فى حين ازور عن الجانب الآخر وأشاح عنه ، والنزعتان هما فى الحقيقة وليدتا أم واحدة ، ومن ثم وقع الايفصال تدريجيا بين العام والخاص والكل والجزء والجماعة والفرد ، ويوفق الإسلام فى نظرته إلى العلم بين العقل والإيمان والروح والعقل والقلب .

كذلك فإن الإسلام لا يعطى العقل أكثر من حقه الطبيعى ، ولا يرفعه إلى مرتبة القداسة ولا يرى أن العقل أداة مطلقة للوصول الى العلوم جميعا : وقد كشف الفلاسفة عن ذلك بوضوح حين قال (برجسون) : إن العقل ليس أداة صالحة لإدراك حقيقة الكون ، لأن نهاية مجهوده أن يقف عند ظواهر الأشياء وهو يجزىء الوجود ليتمكن من دراسته جزءاً جزءاً مع أن الوجود فى حقيقته وحدة موصولة الأطراف .

ويقول (برتراند رسل) : إن التعارض بين أحكام العقل وأحكام البصيرة وهم وليس له وجود ، وإن كليهما ضرورى لوصول الإنسان إلى الحقائق .

ومن هذا كله نعرف أن (العلم) لا يستطيع أن يستقل وحده بتقديم نظرية عامة للكون والحياة وأنه يقصر عن ذلك لأن أدواته لا تمكنه من التحرك إلا فى حدود الملموس .

ثانى عشر : نظريتان سـقطتا :

(أ) نظرية ثبـات العلم •

(ب) ونظرية كمـال العلم •

يقول ول ديورانت : « أين ذهبت اليـوم قوانين نيوتن العظيم حين قلب انشتين وميكوفسكى وغيرهما الكون رأسا على عقب ، وبمذهب النسبية غير المفهوم وأين مكان نظرية عـدم فناء المـادة بقاء الطاقة فى الميتافيزيقيا المعاصرة ومـا يكتنفها من فوضى وتنـازع مما أصاب علومنا ، وهل فقدت فجأة قداستها ومـا فيها من حقائق أزلية ؟ أيمكن أن تكون قوانين الطبيعة سـوى فروض إنسـانية ، هذه الحقيقة الناصعة التى يجهلها الكثيرون : وهى أن القـواعد العلمية الحديثة ليست سـوى فروض قام الإنسـان بوضعها لتفسير الغوامض التى تحيط به من كل جانب ، وقد يكون نصيبها النجاح أو الفشـل ، وإذا أصابها النجاح فإلى أى مدى وزمن مقدر ، عندما ظهرت النظريات الجديدة التى أثبت العلم وجودها ببراهين رآها العلمـاء مقنعة ونسخت النظريات القديمة وحلت محلهـا ، فاذا بالجديدة تعجز عن تعليل بعض الظاهر !!

ويقول الكونت دى نوى ، إن القوانين العلمية قوانين نسبية للانسان الذى هو الآلة المفكرة التى تعبر عن الرابطة الموجودة بينه وبين السـبب الخارجى وهى تصـف تتابع الحـالات النفسـية التى تنتج عن هـذه القوانين بالضرورة : نسبية وذهنية ، وصـلاحها يرتبط بالإنسـان ويعتمد على تماثل الانعكاسات لدى مختلف الأشخاص لنفس المنبهات الخارجية •

ومن هنـا يتضح أن بعض التعابير كالحقيقة العلمية يجب أن تؤخذ بحدود ضـيقة وليس بالمعنى الحرفى كمـا يظن العامة ، فليست هنـاك حقيقة علمية بالمعنى المطلق •

وإذا كان العـالم فى القرن التاسـع عشر لديه الجرأة لأن يقول إن

الحالة (أ) تتبع الحـــالة (ب) والحالة (د) تتبع الحـــالة (ج) ، فإن العـــالم فى القرن العشرين أكثر تحفظاً وأقرب إلى التواضع منه إلى الغرور ولا يجزم بشىء .

ويقول : « إن التغير لا الثبوت هو الطـــابع الذى يتميز به العلـــم (اليوم) وإن أبحـــاث العلماء وأقوالهم تؤكد نقص العلم البشرى ، وإن هـــذه النظرية الجديدة هى الصـــحيحة التى تعبر عن الحقيقة والواقع ، وتســـاهم بدفع العلم إلى الإمام ، بعكس النظرية القديمة التى تشـــكل أكبر عقبة فى طريق ازدهار العلم وقطف ثمـــاره » . وقد قرر القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنا قصور العلم (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) .

ثالث عشر : إن العلماء اســـتغلوا العلم بعيداً عن قوى الروح والقلب وحكموا العقل فى القلب ، كمـــا حكموا العلـــم فى الدين ، فنتجت عن ذلك أخطار فاستأسدت الغرائز ، وأسرفت المطـــامع ، فإذا آلة العلم تتجه نحو التدمير والتخريب والفتك والتقتيل ، حتى أصبحت القوة مقيـــاس تقـــدم الأمم وعظمتهـــا ، ولو تدخل القلب واتجهت آلة العلم نحو البنـــاء والإثمار لسمت المدنية وارتفع شـــأن الإنسانية .

إن التقدم الذى وصـــل إليه الإنســـان بالعلم لم ينج بالإنسانية من الأهوال ولم يقض على المشـــاكل العديدة التى يعانيها المجتمع .

إن العلم قد وضـــع فى أيدى الإنسان قوة عظيمة إذا لم يحطها بسياج من الخلق والروح والقلب تحولت إلى قوة هدامة مدمرة ، كذلك فهم نظروا إلى الظواهر ولم ينظروا إلى صانعها وخالقها وإلى مـــا وراءها .

رابع عشر : خطـــأ القول بـــأن العلم سيقضى على الدين أو أنهمـــا لا يعيشـــان معاً ، والحقيقة أن العلم لن يقضى على الدين بل إن العلـــم ســـوف يؤكد الدين ، فالدين أوســـع إطارا من العلم ، لأنه يرسم الطريق الذى تتحرك فيه القوى كلهـــا ومن بينها العلم (وذلك بمفهوم الإســـلام

للدين لا بمفهوم الأديان الأخرى) فإذا تحرر العلم من روح الدين كان وبالا على الإنسانية ، إن روح العلم فى الإسلام هى فى صميمها التجرد للحق والصدق فيه • وقد وجه الإسلام المسلمين لابتغاء الحقيقة ، لا ابتغاء المنفعة • ولقد قررت الحقائق العلمية الأصيلة : أن العلوم الطبيعية لا تستطيع أن تدرك كنه الدين فى مجالاته الروحية لأن العلوم الطبيعية مادية لا تستطيع أن تمارس غير المحسوس والملموس ، وفى نظام الكون وفى طبيعة النفس البشرية إحساسات ومشاعر لا تخضع للمحسوس

ومن هنا كان خطأ إخضاع المفاهيم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية وغيرها من الدراسات الإنسانية لمناهج العلوم الطبيعية والتجريبية ، ومحاولة إخضاع الظواهر الاجتماعية لقوانين معينة على نمط قوانين الطبيعة فى علم الفيزياء •

خامس عشر : ان خطوات العلم القائمة الآن تتجه كلها إلى كشف الحقائق التى ظلت « المادية » تروجها عشرات السنين ، وخاصة فكرة الحقيقة العلمية ، فقد أشار الكونت ذى نوى فى كتابه (مصير البشرية) : « أن بعض التعابير كالحقيقة العلمية مثلا يجب أن تؤخذ بحدود ضيقة وليس بالمعنى الحرفى كما يظن العامة ، فليس هناك (حقيقة علمية) بالمعنى المطلق • وأن السير نحو الحقيقة بواسطة العلم قول باطل ، فهناك فقط مجموعات من الإحساسات التى وجدنا بالتجربة أنها تتبع بعضها البعض بترتيب معين ، والتى تدعى أنها ستتوالى على نفس النمط فى فترة مستقبلية محددة ، تلك هى روح حقيقتها العلمية » •

وفى مسألة المادة والأثير يقول الأستاذ (ادنجتون) : « ليس الأثير نوعا من المادة فهو لا مادى ، ومعنى هذا أن شيئاً (ماديا) يحيل نفسه إلى (مادة) بواسطة بعض الالتواء الغامض أو دوامات ، ويصبح ذلك الذى لم يكن له (بعد) أو (ثقل) باضافة أجزاء منه بعضها إلى بعض مادة متميزة ويمكن أن توزن •

والعلم يقول الآن : « إن الجاذبية ليست إلا فرضــا من الفروض ، وأن الأثير فضـــاء أو كالفضـــاء ، وهذه هى معركة الكهرباء والذرة : فقد أفلتت المـــادة من بين أيدى العلماء ، وأفلت من المـــادة كل شىء ثابت أو كانوا يحســـبونه مضرب المثل فى الثبوت • وقـــد تقدم العلم بالكهرباء ، والذرة ، فإذا بالمـــادة كلها كهـــارب وذرات ، وإذا بالذرات تنفلق فتنطلق شعاعاً كشـــعاع النور •

وكذلك فقد دخل الشـــك الى فرضية سبق المـــادة للفكر أو ســـبق الفكر للمـــادة •

وقد أخذ العلماء يتراجعون خطوة وراء خطوة بعد أن تخلوا عن البحث فى أولية المادة والفكر ، ثم بعد أن تخلوا عن البحث فى أولية التأثير المتبادل بينهما وانتهوا إلى الوقوف عند النشاط الإنسانى •

ولاشك أن تنازلهم عن الإصرار على أن المـــادة أولا سيفقدهم المقدرة على الإصرار على أن المـــادة هى المؤثر الحاســـم فى عملية التطور ومن هذا وصـــل العلماء إلى إقتناع كامل أن الإنسان ليس من صنع المـــادة — كما تقول النظرية المـــادية — لأن المصـــنوع لا يحيط بصـــانعه والإنسان قد أحاط بكل صـــور المادة وخرج منهـــا إلى دائرة أوســـع منها هى دائرة الأثـــير •

وإذا تحولت المـــادة إلى حسبة رياضية يحتويها الفكر فإن ذلك يجعل المنطق القائل بأن المـــادة أسبق فى الوجود على الفكر فى مازق علمى شديد التناقض مع العلم الجديد • وفى مازق أشـــد حرجا مع مسلمات الماركسية التى قامت على أساس صحة هـــذا الافتراض ومـــا ارتبط به بعد ذلك من مصـــالح سياسية كبرى •

سادس عشر : يقول الدكتور كارل فى كتابه (تجديد الإنســـان) : إن معالمنـــا غير وافية ، فنحن نعلم كثيرا عن الشموس والمجرات ولكنـــا

عاجزون عن الملائمة بين نفوسنا والعالم الميكانيكى الذى خلقنـاه ، ولذلك يتعذر أن نعيش فى سـلام ، لقد فرقت الحضـارة منذ اليوم الأول بين المـادة والروح ، واعتمدت على المـادة ، فرق جاليلو بين خواص الأجسام الأولية كالأبعـاد والوزن وهى مما يسهل قياسـه و والخواص الثانوية كاللون والرائحة وهى ممـا لا يقاس ، حصر اتباع جاليلو همهم فى الكـم وأهملوا النوع ، أن حماستهم فى سبيل الوزن والقياس حولت الإنسـان إلى عوالم الطبيعة والرياضـة والكيمياء ، هـذا الخطأ يجب إصلاحه قبل أن يتمكن العـالم من إنقاذ الحضـارة ، لأن فى الإنسـان شيئا اكثر من الطبيعة والكيمياء ونواميسها ، كذلك فصـل ديكارت الأشـياء المـادية عن الأشياء الروحية فأصبحت مظاهر العقل بعد هـذا التفريق مما لا يمكن تفسيره • وغدا بناء الجسـم وطريقة مقـامه لوظائفه المختلفة فى نظرهم أشـد ثبوتا من الفكرة والنشـوة والحزن والجمال : هـذا الخطأ حول الحضـارة إلى الطريق الذى أفضت إلى انتصار العلم وانحطاط الإنسان • وإن منقذى العـالم يجب أن يتوافروا على دراسـة الإنسان من ناحيته الكمية والنوعية معـا •

سابع عشر : ظهرت حقائق كثيرة تشـكك فى نظرية التناقض ، التى يراها بعض المـاديين حتمية بين التطور والثبات فإن الثبات يبدو نظريـا لأول وهلة نقيض التطور والحركة ، ولكنا إذا تعمقنا وجـدنا أن للتطور أو الحركة ضوابط : هذه الضوابط بطبيعتها ثابتة •

* * *

هذه المجموعة من الحقائق يجب أن تكون بين يدى أبنائنا فى الدراسات العلمية فى الجامعات والكليـات العلمية ، لتضىء الطريق لهم أمـام شبهات النظرية المـادية التى تحـاول السيطرة على العلم التجريبى وتزاحمه ، وفى ضـوء الإسـلام نجد الحقائق الاصيلة •

المنهج العلمى فى ضوء الإسلام

العلم الحديث انمــا هو كاشــف لحقيقة صــنع الله وليس منشئا لخلق من خلقــه ، والعلم الحديث يرتكز أساسا الى القــانون الإلهى : (لا تبديل لخلق الله) ومن هنــا جاءت طريقة العلم الحديث فى الملاحظة والتجربة التى تتحول إلى نظرية ، فإذا مــا ثبتت النظرية على كل الوجوه من العلماء والباحثين ، وأصبحت حقيقة يقينية فهى فى هــذه الحالة وحدها تكشــف عن حقيقة علمية لو بحث الباحثون لوجدوا أنهــا حقيقة ثابتة فى العلم القرآنى ، وكل مــا يثبت كشفه فى العلوم الحديثة إنمــا جاء كاشفا ومقرراً لحقيقة من حقائق خلق الله قــال بها كتاب الله صراحة أو إيماء .

والعلم الحديث أخذ هــذه الطريقة من علمــاء المسلمين ، وقد اعترف علماء الغرب بأنهم أخذوا طريقهم من علمــاء العرب المسلمين ، وكــانوا يعرفون نجاح طريقهم إلى اجتمــاع عبادة الله والإيمــان به مع البحث العلمى والتجارب العلمية فى فكر العالم الإسلامى واجتهاده .

فقد ارتقى المسلمون إلى درجة علمية أساسها (التجربة والملاحظة) وهى الأساس فى إرساء المناهج العلمية الحديثة ، ولم يبتدع المسلمون هذه الطريقة ولكنهم أخذوها من منهج القران فى طرح العلم القرآنى ، ومن ثم فإن منهج العلم الحديث يتفق مع العلم القرآنى . فالعالم فى بحثه إنمــا يتجه إلى الملاحظة والفرض ، ثم التجربة والنظرية ، حتى تبلغ الوقــائع المفسرة بهذه النظرية من الكثرة مــا يجعلها (حقيقة يقينية) فتكون قانوناً عاما كاشفا لقانون الفطرة : أى سنن الله فى الكون ، وإذا تأيدت انطبقت على القانون الطبيعى (الفطرة) . فإذا تنافرت معها فهى لا تكون حقيقة ثابتة بل تخضع للتغيير .

ثانيا : التجربة والتجريب :

يقــول الدكتور عبد الباسط محمد حسن فى كتابه (أصــول البحث

الاجتماعى) : لقد كان نصيب العرب (يقصد المسلمون) فى خلق المنهج العلمى كبيرا ، فالفكر العربى فى جوهره كان فكرا تجريبيا ، تجاوز الحدود الصورية لمنطق أرسطو ، واتخذ الملاحظة والتجريب مصدرا لعلمه .

وكان هذا الفكر التجريبى يربط بين التأمل النظرى والممارسة العلمية ويتجه إلى التحديد الكمى (وهذا هو التكامل) .

وقد اختلف منهج العرب عن منهج الإغريق اختلافاً بيناً ، وهذا هو ما تحقق بالفعل ، فقد عارض العرب المنهج القياسى وخرجوا من حدوده الى حدود الملاحظة والتجربة ، ذلك لأن الأقيسة المنطقية كما قال ابن خلدون أحكام ذهنية والموجودات الخارجية متشخصة . فالتطابق بينهما غير يقينى لأن المادة تحول دونه . اللهم إلا ما يشهد به الحس من ذلك ، فدليله شهوده ، لا تلك البراهين المنطقية .

وقد اهتم العرب بالعلوم التى تصطنع منهج الاستقراء واتخذوا الملاحظة والتجربة أداة لتحصيل المعارف العلمية واستعانوا بالأدوات العلمية فى القياس ليحصلوا على نتائج جديدة .

وقد عملوا فى الفلك والطبيعة والكيمياء والطب وظهرت منهم أسماء لامعة فى هذه الميادين : (البيرونى ، الخازن ، البصرى ، الحسن بن الهيثم ، جابر بن حيان ، أبو بكر الرازى ، ابن سينا) وقد اصطنع هؤلاء المنهج الاستقرائى .

قال (جابر بن حيان) عن قيمة التجربة : « إن واجب المشتغل فى الطبيعيات والكيمياء هو العمل واجراء التجارب . وإن المعرفة الحقيقية لا تحصل إلا بها » .

وحدد(الحسن بن الهيثم) أصول المنهج الاستقرائى تحديداً دقيقاً حين قال : « نبتدىء فى البحث باستقراء الموجودات ونتصفح حال المبصرات ونتميز خواص الجزيئات » .

وكانوا يسمون التجربة (الاعتبار) وقد بينوا أهميتها فى دراسة الظواهر تحت ظروف مختلفة [لتجعل غرضنا فى جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل ، لا اتباع الهوى ، ونتحرى فى سائر ما نميزه وننقده طلب الحق لا الميل مع الآراء] .

دراسة الحالة :

وقد قاموا بإجراء التجارب على الحيوانات فتجرعت القردة الزئبق ، واختبروا آثار الأدوية عليها وسجلوا جميع ما شاهدوه تسجيلا دقيقا ، كما عرفوا منهج : (دراسة الحالة) فكانوا يدعون المريض إلى رواية تاريخ حياته ويسأل عن أحوله الحاضرة والظروف الاجتماعية المحيطة به .

وقد استعان الأوربيون بما نقلوه عن العرب ، وفصل العلماء بين القياسى (اليونانى) والاستقراء (العربى) ملاحظين أن الثانى هو سبيل الوصول إلى المعرفة العلمية ، على حين أن الأول يقوم على حقائق معروفة من قبل ، لذلك نادوا باستخدام الملاحظة والتجربة للوصول إلى الحقائق .

وفى مقدمة من أرسى دعائم التفكير العلمى فى أوربا (روجر بيكون - ١٢٩٤ م) الذى دعا إلى استخدام الملاحظة والتجربة وفرض الفروض للوصول الى الحقائق العلمية ، ثم حمل فرنسيس بيكون على المنهج القياسى حملة قاسية ، ودعا إلى استخدام التجربة التى يعتبرها المعلم الصادق والوسيلة الناجحة لفهم ظواهر الحياة . ووضع كتابه (الارجانون الجديد) ليفصل فيه قواعد المنهج التجريبى وخطواته الذى كشف فيه عن (١) أوهام الجنس التى ترجع إلى نقص العقل الإنسانى (٢) وأوهام الكهف التى هى ضرب من الضعف العقلى ، فلكل فرد مغارته وكهفه الخاص ، (٣) وأوهام السوق وهى التى تنشأ من الاخطاء الناشئة عن التخاطب والتعامل مع الناس (٤) وأوهام المسرح وهى التى تنشأ عما يقوله الفلاسفة والعلماء دون تمحيص .

وأوضـــح بيكون أن أصول المنهج التجريبى الصحيح هى : جمــع الحقائق وتقســيمها إلى طوائف منفصلة والمقارنة بينهـــا وموازنة بعضها ببعض والتحقق من النتـــائج ، وهـــذا كله مســتمد مما كتب جابر وابن الهيثم وغيرهم ثم جـــاء جون ستوأرت مل فصاغ المنهج التجريبى فى قالب أتـــمل وحدد شروط التجربة ، ووضـــع القوانين التى تمكن من صـــدق الفروض العلمية أو خطئهـــا ، ثم دعا كلود برنارد إلى اســتخدام المنهج التجريبى على أوســـع نطاق ، وهاجم اســـتقاء الحقائق من الأدلة النقلية وحذر من الاطمئنان الى شهرة السابقين •

هذا الذى أورده الدكتور عبد البـــاسط يكشـــف بوضوح الخلفية الأصيلة وراء (مناهج العلوم) التى يزدهى بهـــا الغرب والتى تدرس فى جامعاتنا على أنهـــا من علم الغرب والتى تبدأ عـــادة بمـــا كتبه بيكون وروجر وفرنسيس ، وهو استهلال ناقص وظـــالم فى نفس الوقت : ذلك أن مـــا قدمه هؤلاء العلمـــاء إنمـــا جاء بعد دراســـة واستيعاب لكل مـــا كتبه علماء المسلمين الذين سبقوا على الطريق والذين تعدوا القواعـــد فى منهج البحث التجريبى وفى طليعتهم عشرون عالما •

(ابن سينا ، ابن الهيثم ، البيرونى ، جابر بن حيان ، ابن النفيس ، الخوارزمى ، الخـــازن ، ابن يونس الصـــوفى ، الزهراوى ، ثابت بن قرة ، البوزجانى ، البغدادى ، ابن البيطـــار ، ابن ماجد ، المجريطى ، الغافقى ، ابن مسكويه ، ابن خلدون ، المقدسى) •

هـــؤلاء الذين حين بدءوا صـــححوا أخطـــاء بطليموس وإقليدس وأرشميدس وجالينوس ، ثم انطلقوا صـــوب الإبداع والإضـــافة الواسعة فى مختلف المجالات (الرياضيات ، الفلك ، الحساب ، الجبر ، الكميـــاء ، الطب ، الصيدلة ، النبات ، الحيوان ، المعـــادن) •

وقد اعترف علماء الغرب اعترافاً واضـــحاً جازماً بأكثر من صـــيغة وعصر وكتاب ، بأنه لولا أعمـــال العلماء المسلمين لاضطر علماء النهضـــة

الاوروبية أن يبدءوا من حيث بدأ أولئك ، ولتأخر سـير المدينة عدة قرون ، وقـالوا :

كان لا بد من ظهور ابن الهيثم والصـوف والبيرونى وأمثـالهم لكى يظهر : جاليلو وكبلر وكوبر نيك ونيوتن من أعلام النهضـة الاوروبية .

ومن هنا وجب إحقاقا للحق واعترافاً بالأمانة العلمية أن يقدم هـذا الدور فى دراسـات الجامعات الإسلامية والعربية وأن يسـبق دراسات الحضـارة المعاصرة ، ونحن حين نفعل هـذا إنمـا نقرر حقيقة أصبح الآن معترفاً بهـا فى مختلف دوائر العلم الغربية ، من أن أوربا مدينـة للمسلمين وان المسلمين هم أساتذة الغرب فى مختلف العلوم .

وقد أشار كثير علماء الغرب إلى أن كثيراً من النظريات « حسبناها من صنعنا وإذا بالعرب قد سبقونا إليها » .

وكمـا قدم المسلمون منهج العلم التجريبى ، فقد قدموا منهج صياغة العلمـاء وقد عرف العلماء المسلمون بالتواضـع والارتفاع بعلمهـم عن الغرض وزهدهم فى الترف والسـلطان ، وعزوفهم عن الصـغائر ، ممـا اعلى شانهم إلى جانب اسـتعدادهم الذهنى وجلدهم العجيب على العمل ، ومثابرتهم ومـا أتيح لهم من حرية فى الفكر العلمى ولعـدم الحجر على آرائهم العلمية أو اضطهادهم بسبب تلك الآراء ، كل ذلك هيأ لهم الإبداع الفكرى وغزارة الإنتـاج .. وبذلك كـانوا هم بنـاة منهج « صـياغة العلماء » كما كانوا المنشئون لـ : « المنهج العلمى التجريبى » .

ثالثا : كانت نظرتهم الى العلم تقوم على إيمان صـادق بالله تبـارك وتعـالى ، ويقين بأن العلم كله والعمل كله موجه إليه تبارك وتعـالى ، خالصـاً ، لا يلتمس به مطمع ولا جزاء لا شهرة ، وإنمـا يـراد به خدمة الإنسـانية والمجتمع والناس .

ثم ان هـذا العلم ليس علما دينيا خالصـا ، ولكنه علم فى مختلف مجالاته مسـتمد من القرآن متصـل به ، فالقرآن هو الذى أعطى المسلمين ذلك الضـوء الكاشف الذى هداهـم إلى النظر فى الطبيعية والبحث فى الأرض ، وهو الذى مضى بهم حتى أنشـؤا « المنهج العلمى التجريبى » الذى كشـف آفاق المجهول فقدموا من خلاله إضافات جديدة تقدمت بهـا الإنسانية حين نمتها باسم الحضـارة الحديثة •

ولقد ظلت أوربا خمسـة قرون كاملة تنكر هـذه الأسـبقية الأصيله فى بناء العلم ، وقد خلت كتبهـا من الإشارة إلى هـذا العمل الضـخم الذى قدم القواعد التى بنوا عليهـا عملهم من بعد ، ولمـا دخل الاستعمار بلادنا فرضت علينا فى المدارس • والجامعات مناهج لا تعترف بهـذا الدور كله ، وتنكره تمامـا ولا تشير إليه أية إشارة ، حتى يخيل للطالب والباحث أن هـذا العلم غربى الأصل والمنزع ، وأن المسلمين لم يكن لهم شـأن فيه — أى شأن — ولقد ظل علمـاء كثيرون غربيون يتجاهلون هذا الإنجاز البعيد المدى ، الذى أحدثه الإسـلام فى النهضة الأوربيـة الحديثة وفى الحضـارة العالمية ، بل إن هـذه الاستهلالات الاسلامية لكثير من العلوم والإصنـاف قد جرى تجريدها من إطار الإسلام حتى تصبح من إبداع الفلاسـفة والعلماء الغربيين •

وفى السـنوات الأخيرة تحدث مجموعة من المؤرخين والباحثين عن هـذه الحقيقة المهضـومة التى مـا كان لها أن تظل فى طى الخفاء سنوات طويلة ، وفى مقدمة هؤلاء : جوستاف لوبون فى (حضارة العرب) وتوماس كارليل فى (الأبطال) وبريفولت فى (بناء الانسانية) ودرابر فى (مقـدمة العلوم) وكان آخر هـذه الصيحات وأعمقها كتاب (أوربا ولدت فى آسيا) وكتاب (شمس الله تشرق على الغرب) للدكتورة سجريد هونكه ، ويجىء الانصـاف ليشير إلى دور المسلمين فى الكيمياء والطب والفلك والعلـوم الرياضية ، ولكن المراجعة الدقيقة للدور الذى قام به الإسـلام وحضارته وفكره ، يكشف عن أثر أبعد عمقا ، فالفكر الإسـلامى لم يقف إضـافته

عند العلوم وحدها ولكنه أضـــاف إلى الاجتماع والسياسة والاقتصاد •

ومن هنا فإن هنـــاك ضرورة ملحة أن تتصـــدر دراسات العلوم فى جامعاتنا العربية والإسلامية مقدمة تكشف عن حقيقة هذا الدور وتضعه فى مكانه الصحيح تاريخ العلم الحديث • ونحن نعرف أن تدريس العلوم إنما يتم بناء على المنهج الإنجليزى أو المنهج الفرنسى ، وأنه تجرى دراســـة المذاهب الفكرية العالمية شرقية وغربية مع تجاهل كامل للمنهج الإسلامى ، وذلك فيما يتصل بفلسفة العلم نفسه ومفهوم الإسلام له •

وعندما أنشئت كلية العلوم بالجامعة الاصيرية عام ١٩٢٥ سيطر على مناهجها مجموعة من العلمـــاء الغربيين (أوليفر هوجيوم ، بنجهـــام ، نيو وغيرهم) وأن الجمـــاعة الأولى من العلماء الذين برزت شـــهرتهم : محمد خليل عبد الخالق ، ومشرفة ، وأحمد زكى ، وعلى إبراهيم ومصطفى نظيف ، ومحمد رضـــا مدور ، وحسن صـــادق ، وقد حاول كثير منهم أن يقـــدم المنهج الإســـلامى للعلم ، ولكن ذلك لم يتحقق على الوجه الأمثل •

هـــذا ومن أهم ما يعترض مفهـــوم العلم الطبيعى فى الســـنوات الأخيرة ويغير كثيراً من المسلمات : أن نظرية دارون (التى مـــا تزال تدرس فى المدارس والجامعـــات العربية) قد تكشف فســـادها بعـــد أن أثبتت التجارب أنه لا علاقة بين الجنس البشرى والأجنـــاس الحيوانية ، وأنه لا توجد علاقة مشتركة بين الجنسين •

وقد أعلن الدكتور رونالد جونســـون أستاذ علوم الأجناس البشرية عام ١٩٧٤ : أن العلماء يستطيعون الآن أن يقولوا بعد دراسات وتجارب امتدت ســـنوات طويلة بنسبة ٩٩٫٩ بالمائة من الدقة ان الإنســـان ســـار منتسبا على قدميه منذ أن وجد على الأرض ، أى أنه بدأ تاريخه الإنســـانى منذ أكثر من ثلاثة ملايين سنة • بعد أن عثر على مجموعة من العظام يرجع تاريخها إلى ثلاثة ملايين سنة •

وكذلك ظهرت عظام ترجع إلى خمسة ملايين سنة وكل هذا يشير إلى أن الإنسان القديم كان يسير منتصب القامة منذ ذلك الوقت .

ويؤكد العالم الفرنسى جان بيفتو — رئيس المجمع العلمى الفرنسى سابقاً — بعد أن أوقف من عمره نصف قرن لدراسة أصل الإنسان : « إن الإنسان ليست له علاقة تجانس بالقرد ، وإن كل المشابهات بين القرد والإنسان غير كافية لتجزم بوجود أصل واحد للانسان والقرد » وهو يرفض هذا الافتراض لاعتقاده أن الإنسان لم يظهر على الأرض بمجرد مصادفة بل إنما كان الهدف الأخير من تنظيم الكون ولذلك جاء مركبا فى أكمل تقويم » .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فما تزال قضية تعليم العلوم باللغة العربية عقبة كبيرة يقيمها خصوم الإسلام والعاملون على الحيلولة دون دخول المسلمين دائرة العلم ، وهى عقبة يجب القضاء عليها خاصة بعد أن أفرزت المجامع اللغوية مئات المصطلحات القيمة التى تمكن العلماء اليوم من تقديم دراستهم باللغة العربية وهى ضرورة أساسية فى بناء المنهج العلمى الإسلامى الجديد .

---

(١) لا يجوز شرعا نسبة النور بمفهومه المادى الى الله تبارك وتعالى فهو سبحانه منزه عن الشعاع وغيره من آثار الماديات ويترتب على هذا انه من الخطأ الاعتقاد بأن الكون مخلوق من بعض نور الله ، او انه صدر عن ذات الله تعالى نور تشكل منه الكون كما يرى أصحاب نظرية الفيض والحق انه لا تشابه بين الخالق والمخلوق ، والكون مخلوق لله لا جزء منه اذ التجزىء محال على الله تبارك وتعالى .

الفصـــــل الســـابع

منـــاهج الإســـلام

فى العلوم السياسية والفكر السياسى الإســـلامى

فوارق عميقة بين الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية :

تدرس الجامعات الفكر السياسى والعلوم السياسية دراســـة غربية خالصـــة ، ســـواء فى مجال الليبرالية والديمقراطية ، أو الوطنية القومية ، أو الرأســـمالية والمـــاركسية ، أو فى مجال السياق التاريخى الذى يدرس العلوم الســـياسية على أساس تطبيقهـــا فى المجتمع الأوربى والأمريكى ، خلال مراحل العصور القديمة والوسطى الحديثة ، دون أن يدرس ما سبق ذلك وما صاحبه من مفهوم العلوم السياسية فى المجتمع الإسلامى ، منـــذ ظهور الإسلام إلى اليوم .

ظهور حركات الاستقلال والمثل العليا :

ومنـــذ الاحتـــلال الغربى للاقطـــار العربية بدأت فكرة التحرر من الاستعمار ، من خلال الحركات الوطنية مرتبطة بالنظام الغربى (الديمقراطية والليبرالية) على أنهـــا المثل الأعلى لإقامة حياة سياسية عصرية على أساس الدستور والانتخاب والنظام البرلمانى ، وقد عدت هـــذه الأقطـــار تطبيق النظام الغربى الديمراطى كسباً كبيراً حققته .

ومن ثم فقد نشـــأت هذه الأجيال فى إطار المفاهيم السياسية الوافدة دون أن تعرف كثيراً عن العلوم السياسية الإســـلامية أو النظام السياسى الإسلامى ، أو تتعمق وجوه الخلاف الواســـع بين الدين والدولة فى مفهوم الإسلام ، فى حين تنفصل النظرية الغربية عن هذه القيم .

اصـــول النظرية الغربية :

هذا فضـــلا عن أن النظرية السياســـية الغربية ، التى تغرق الآن مجـــالات التعليم والدراســـة والصحـــافة ، نظرية قائمة على الأصـــول اليونانية والرومانية القديمة ، التى كانت تجعل الحرية والديمقراطية والعدل للسادة وحدهم ، فى حين لا يطبق هذا على المجموعات العـــامة من العبيد .

وقد انبعثت هـــذه المفاهيم فى الفكر الســـياسى الغربى حين قـــدم « ميكافيلى » نظرية السياسة التى اعتنقتها أوربا منذ ذلك الوقت ، ومـــا زالت تؤمن بهـــا وتطبقها ، دعا ميكافيلى فى كتابه « الأمير » إلى فصـــل الســـياسة عن الأخلاق ، واستقلال السياسة وأولويتها على الأخلاق .

وكان هـــذا الاتجاه من ميكافيلى والسياسة الغربية مناقضـــا للفكرة النصرانية وللمفهوم الإنســـانى بعامة ، ولم يقف أمر ميكافيلى عند هـــذا الحد بل إنه دعا إلى القسر فى حمل الناس على معتقده . .

وقداعتبر الفكر السياسى الغربى كتـــاب « الأمير » إنجيلا لأصحاب الســـلطة السياسية ، ومنه خط واضـــح فى الفكر السياسى والفلســـفة السياسية الأوربية .

فقد جحد ميكافيلى تعاليم الدين النصرانى ، وتنكر لمبادىء الأخلاق ، ونظر إلى السياسة نظرة واقعية مجردة ، فهو يرى أن الغـــاية تبرر الواسطة وأن السياسة لا خلق لهـــا ، وأنه على الأمير أن يحقق رغبتـــه دون النظر إلى مبادىء الأخلاق ، بل ينظر فقط إلى الوســـائل التى يحافظ بهـــا على المركز الذى يصـــل إليه .

يقول ميكافيلى : « على الحاكم أن يكون رجلا له بأس وخطر وشدة ، لا تحجزها رهبة ولا يصـــل إليهـــا تردد ، فهو يعمل لينجح ، ثم يحـــافظ

على هـذا النجاح » وأكبر تناقض يهن الحـاكم عنده هو ضعف الإراده أو التبرير •

وقد مضى على الأسـاس الذى وضـعه ميكافيلى للفكر السـياسى الغربى فلاسـفة آخرون ، فصـلوا وعمقوا ووسـعوا هذه المفاهيـم : منهم نيتشـه وجيتى وابسن ، بل إن المؤرخين يؤكدن أن تدبير مذبحـة « سنت بارتلمى » ترجع إلى تأثير هذا الكتاب على كاترين دى ميديتشى •

أما هيجل فقد أيد ميكافيلى ولكنه كان ينكر أى خلاف بين السياسـة والأخلاق بحسـبان أن الحكومة هى التى تحقق الفكرة الأخلاقية ، وأنهـا غاية فى نفسـها ، وليس لها واجب أكثر من المحافظة على كيانها •

وفى رأى ميكافيلى أن الإنسـان مطبوع على الشر ، وأنه أقرب إلى الحيوانات منه إلى الملائكة ، وعنده أن السياسة لا تقوم إلا على الدسائس والمؤمرات لنيل القوة •

وقد ألف ميكافيلى كتابه فى مطلع القرن السـادس عشر الميـلادى متأثراً بواقع أزماته ، ثم كانت نظريته بعيدة الأثر فى الفكر الغربى كلـه ، وخاصة فى الفكر السياسى •

ويختلف الفكر الغربى السـياسى فى هذا المفهوم ، عن الفكر الإسلامى الذى يربط بين السـياسة الأخلاق (كمـا يربط بين القيم المختلفة) ، إذ يقـر الفكـر الإسـلامى إخضـاع أعمال وسـلوك الإنسـان لامقياس الخلقى ، للتميز بين الأعمـال السياسية القائمة على النفع ، والقائمة على الشر والضرر • وعن طريق هـذا التمييز يمكن الوصول بالدولة إلى إسعاد المجتمع ودوام رقيـه •

وكما يختلف الفكر السياسى الإسـلامى عن الفكر الغربى فى هـذه القضـية الأسـاسية ، فإنه يختلف فى جوهر مفهوم السياسة نفسه ، وهو

مبدأ « سيادة الأمة ويعد مبدأ سيادة الأمة ، من أهم المبادىء الدستورية التى تقوم على أساسه « الديمقراطية الغربية » .

وقد اختلفت الآراء حول نظرية السيادة ، ومن هو صاحب السيادة فى الدولة : هل هو فرد ؟ أو طبقه ؟أو فئة ؟أو الأمة ؟

ونظرية « سيادة الأمة استنبطها رجل الفقه الفرنسى ، فى عهد الحكم المطلق القديم أثناء الخلاف بين الملوك والبابوات ، الذين كانوا يعملون على بسط نفوذهم وسيطرتهم على الملوك ومن أجل إقرار سلطتهم داخل المملكة إزاء الحكام الإقطاعيين ، الذين كانوا ينازعونهم ويشاركونهم قسطا من السلطان ، ومن ثم أخذ الفقهاء الفرنسيون منذ القرن الرابع عشر ، ينادون بأن الملك يستمد سلطة من الله ، فيما يسمى نظرية الحق الإلهى أو التفويض الإلهى ، والهدف هو تخليص ملوك فرنسا من سلطان الأباطرة والبابوات .

وحين جاءت الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر ، نقل قادتها السيادة من الملك إلى الأمة هو التعبير القانونى عن نظام الحكم الذى يوصف بالنظام الديمقراطى .

وقد تبين للسياسيين والمؤرخين أن مبدأ سيادة الأمة هذا — الذى هو قمة النظام الديمقراطى — لا يكفل منع الاستبداد ومنع الاستئثار بالسلطة المطلقة ، وأن هناك وسائل أخرى تمكن أصحاب السلطان المستبد من الوصول إلى الحكم عن طريق النظام الديمقراطى [1] .

أما الإسلام فإنه يقرر مبدأ الشورى ، الذى يختلف اختلافاً كبيراً عن مبدأ سيادة الأمة الذى ظهر بعد الإسلام بعدة قرون .

وقد أشار المؤرخون إلى أن نظامين استبداديين قاما استناداً على

---

(١) كان زعماء الثورة الفرنسية هم اول من خان مبدأ سيادة الامة بالاستبداد فجرفهم لهيب الثورة واعدموا بالمقصلة قبل ان تعود السلطة الملكة الاستبدادية من جديد .

مبدأ سـيادة الأمة ، همـا النظام الدكتاتورى الذى أقـامه نابليون سنة ١٧٩٩ ميلادية ، والنظام الذى أقامه لويس نابليون سـنة ١٨٥٢ ميلادية ، وفى هـذه الظروف أودعت الأمة صـاحبة السيادة هـذه السلطة فى يدى الرجل الذى أحرز النصر ، وهو القيصر (الدكتـاتور) الذى تركزت كل السلطات فى يده ، وقد تخفى القيصر وراء هيئة نيابة منتخبة من الشعب ، ولكن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد رمز أو صـورة وراء سـلطة ديكتاتورية مستورة وراء الاسـتفتاء الشـعبى .

ومعنى هـذا أن مبدأ سيادة الأمة الذى يباهى به النظام الديمقراطى الغربى لا يكفل منع الاستبداد أو الاستئثار بالسـلطة المطلقة .

ويشير كتـاب الغرب بأن الليبرالية السياسية التى نقلت إلى أفق المجتمعـات الإسلامية قد فشلت فشلا ذريعـا ، ولم تحقق الشورى أو العدل ،يقول مؤلف كتاب « الثورة العقائدية » :

« إن الليبراليـة السياسـية لم تنم نمواً موضـعياً فى آية بـلاد إسـلامية ، وإن بعض المحاولات التى جرت لنقل اللبرالية الأوربيـة فى القرن الراهن إلى بعض البلاد الإسـلامية قد فشلت » ويبرر المفكرون المسلمون هـذه الظاهرة بأن الإسـلام دين ديمقراطى فى جوهره ، كمـا ينطوى على مساواة من الناس ولمـا ينص عليه من شـورى قبل تقرير الأمور ، ولمـا يؤكده من إجمـاع ويصر عليه من ضرورة خضـوع الحاكم للشرع .

وهم يقولون إن إخفـاق الليبرالية الغربية فى البلاد الإسـلامية ، يعود إلى الظروف التاريخية ، لا إلى ميل الفكر الإسلامى — كما يشـيع الغربيون — إلى الطغيـان .

ومع اعتراف المفكرين الغربيين بإخفاق الليبرالية الغربية فى البـلاد الإسـلامية ، فإن معاهد المسلمين وجامعاتهم مـا زالت تدرس لهم العلوم السياسية وفق هـذا المنهج الغربى ، وتسـتمر فى ذلك على نحـو يعطى

انطباعا بأنه لا يوجد فى العالم إلا هذا النظام الذى يتصارع فى الغرب ، فى حين نرى كبار علماء السياسية يقولون :

« لقد وصلت الديمقراطية الغربية اليوم إلى مرحلة الفشل والهزيمة والانهيار ، بعد أن اقتحمتها الأخطاء من كل جانب ولم يعد الغرب يثق بها أو يجد فيها نظاما صالحا .

ولم تعد أحزاب الغرب تستطيع أن تنال ثقة الناس ، وقد كتب كثيرون من أمثال أرونولد توينبى وغيره كاشفين عن عورات هذا النظام وفساده فى مجال الاضطراب الاقتصادى والتحلل الاجتماعى والفساد الأخلاقى ، واتساع الهوة بين الفقراء والأغنياء .

ومن هنا فإن هناك فارقاً بعيداً وعميقاً بين « الشورى الإسلامية » والديمقراطية الغربية ، ولا يمكن الجمع بينهما ، والخطأ هو أن يظن البعض أن « مبدأ » الشورى الذى يأخذ به الاسلام ، هو نفس المفهوم الديمقراطى الغربى الذى يستند إلى مبدأ سيادة الأمة ، ويأخذ بنظام الاقتراع أو الانتخاب العام ، فذلك شأن الديمقراطية .

ولكن الواقع أن ثمة فارقاً عميقاً بين الشورى الإسلامية التى لا تعرف مبدأ نظرية سيادة الأمة ، ولا تتطلب الأخذ بنظام الانتخاب العام ، كما هو فى الديمقراطية الغربية المعاصرة .

الإسلام دين ودولة :

إن أخطر ما يحاول الفكر السياسى الغربى الذى تدرسه جامعاتنا فى عالم الإسلام هو مبدأ « فصل الدين عن السياسة » وهو مبدأ غريب عن الإسلام وتاريخه ، فالإسلام فى جوهره ليس مجرد إيمان دينى ، إنه نظام حياة يشمل جميع المؤسسات الاجتماعية الدينة منها والزمنية .

فالشريعة هى القاعدة التى يجب أن تتم على أساسها المعاملات بين المسلمين ، وتبنى عليهـا حياتهم المدنية بكاملها ، كمـا أن الجمع بين الحياة الروحية والحياة السياسية واجب دينى ، لأن وحدة الأمة روحياً منوطـة بوحدتها سياسيا ولذلك فالأمة فى الإسـلام لن تكتمل ما لم تتحقق فى دولة تتيح للمسلمين أن يعيشـوا بحسب فرائض دينهم ، لذلك ينبغى أن يكون على رأسـها قائد يحوز السـلطة السياسية ليسهر على تطبيق القرآن ، وحفظ الشرائع وحماية مصالح المسلمين •

هكذا فهم المفكرون الغربيون الإسلام على هذا النحو فكيف بالمسلمين الذين أنزل عليهم •

ويقول الدكتور فيتزجيرالد :

ليس الإسـلام دينا فحسب ، ولكنه نظام سياسى أيضـاً ، وعلى الرغم من أنه ظهر فى العهد الأخير أفراد من المسلمين ممن يصـفون أنفسهم بأنهم عصريون ، يحاولون أن يفصـلوا بين الناحيتين ، فإن صرح التفكير الإسلامى قد بنى على أسـاس أن الجانبين متلازمان لا يمكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر

ويقول شـاخت :

إن الإسـلام يعنى أكثر من دين ، إنه يمثل نظريات قانون وسياسة ، إنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معا •

تكامل الإسلام :

وقال هاملتون جيب :

صـار واضحا أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية ، وإنمـا استوجب إقامة مجتمع مسـتقل له أسـلوبه المعين فى الحكم وقوانينـه

وأنظمته • الحق أن الإســـلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات ، إنه أعظم من ذلك كثيراً فهو مدنية كاملة ، ولو بحثا عن لفظ مقابل له لقلنا : العـــالم النصرانى ولم نقل النصرانية ، ولقلنـــا الصين بدلاً من أن نقول ديانة كنفوشيوس ، وهو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس دينى ، ويشـــمل كل مظاهر الحياة الإنســـانية •

وقد أكد هـــذه النزعة الأصيلة وتمثل ذلك فى صوغ القانون الإسلامى والتنظيم الاجتمـــاعى ، وهو مجتمع لا تزال تتردد فى صميمه بكل قـــوة هـــذه الفكرة •

والحق أن نمو هـــذه الفكرة فى الإســـلام فاق كثيرا مـــا وصـــلت إليه أوربا من متانة الصـــلة بين الحكومة والحياة الدينية والاجتمـــاعية ، فقد كانت ركناً أســـاسياً من فكرة المسلمين عن نظام العـــالم ، حتى كان اضطراب هذه الصلة من أكبر أسباب الأزمة الحديثة فى الإسلام •

ويقول ليوبولد فايس (محمد أسد) مقارناً بين مفهوم الفكر السياسى الغربى ، إن مبدأ فصـــل الدين عن السياسة ليس له من مكان يمكن أن يستمسك عليه ، ضمن كيان الإسلام ، والعالم الاسلامى وفى سبيل النظر فى كون هذا الاتجاه له ما يبرره فكرياً وتاريخياً ، وكونه قادراً على التحقيق العلمى •

متى بدأت فكرة فصـــل الدين عن الدولة :

يقول الدكتور فاضل الجمالى : إن عزل الدين عن الدولة بدأ فى ظروف تاريخية خاصـــة فى أوروبا ، حين كان الصراع بين الكنيســـة وبعض ملوك أوروبا صراعا عنيفا ، وحين كان الصراع بين الطوائف النصرانية الواحدة مع الأخرى ، بسبب حروباً دموية تدوم عشرات الســـنين ، وحين كـــان المتعصبون من رجال الكنيســـة يقاومون النظريات الحديثة العلمية ، كل هذا أدى إلى فصـــل الدين عن الدولة ، وهو مـــا يسمى « بالعلمانية » ، ويمكننا القول بأن العلمـــانية اليوم هى بمثابة حركة رجعيـــة ، من حيث

تاريخها ، فقد زالت الظروف التاريخية التى كانت تتطلبها ، ورجعية من حيث جعلهـا الدولة تهمل واجباً من واجباتها ، وتنكمش عن تأديته ، ألا وهو واجب الروح .

ولا نعتقد أن العلمانية حققت أهدافها فى البلاد التى طبقت فيهـا ، بل وقعت فى تناقضـات واضحة ، والشعب المسلم التركى لم يقبل هـذه العلمانية ، ولم يهضمها .

رد الفعل فى تركيـا :

لذلك جاء الحزب الديمقراطى معبراً عن مشـاعر الشعب التركى حين قام « عدنان مندريس » بتشييد مـا يقرب من ألفى مسـجد فى القرى التركية ، وقـام بتجديد المواقع العظيمة التاريخية .

ولا ريب أن تطبيق العلمانية فى البلاد المسيحية أسهل منه فى البلاد الإسـلامية ، وذلك : أن النصرانية لم تشتمل على تشريعات تفصـيلية واسعة تؤثر فى الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للأفراد والجماعات ، أمـا الإسلام ففيه العقائد العبادات والأخلاق ، وأنه جـاء بنظام شامل يمس حياة الإنسـان فى شتى مناحيهـا ، وهو نظام يتفق مع طبيعة الحياة الإنسـانية وقد أكـد غير واحد من أسـاطير القانون فى العلم أهميـة « الشريعة الإسـلامية »وما تحويه من ثروة زاخرة ، أما علمانية الدولة فى البلاد الإسـلامية بمعنى أن تنفصـل الدولة عن الشريعة الإسلامية بصفة عامة ، فإنها لا تلائم الشـعوب الإسلامية بصـفة خاصة ، وذلك لأن الأمة العربية مدينة للاسـلام فى تكوينها الحاضر ، ويجب أن تكون حاملة رسالته إلى الإنسـانية جميعاً ، فالفصـل بين الدين والدولة معناه تجريد الحكومة العربية من أهم مقومات القومية ، فالأمة العربية منفصـلة عن الإسلام ورسـالته تصبح كجسم منفصل عن حياته ، وعن روحه ، والفصـل هذا يجعل من الجسم قشراً فارغاً لا لب فيه ، يسـهل دخول المبادىء الوافدة على اختلاف أنواعها .

الدولة الثيوقراطية :

كذلك فقد حاول التغريب والغزو الثقافى الادعاء بأن الإسلام : أقام الدولة الثيوقراطية ، أى الدولة الدينية ، التى عرفها الغرب بـ « حكم البابوات » والواقع أن الإسلام لم يعرف هذه الدولة الثيوقراطية التى عرفتها أوربا فى العصور الوسطى ، عندما سيطرت طبقة من رجال الدين على السياسة العليا وليس هذا النوع من الحكومة مما يقره الإسلام أو يعترف به •

فالإسلام لا يعترف بنظام الكهانة ، أو وجود طبقة ممتازة تدعى رجال الدين ، ولا يعترف بأن هناك طبقة أو شخصاً ما يستطيع أن يتميز بنوع من القداسة دون الناس جميعاً •

والنظام الإسلامى الاجتماعى نظام خاص ، يختلف من وجوه عديدة عن الأنظمة التى عرفها الغرب ، لذلك فالقول بأن الدولة الإسلامية كانت دولة « ثيوقراطية » هو قول باطل ومردود ، ذلك أن النظام الإسلامى نظام شامل للأمة جميعا ، يستمد مصادره الأولى من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ويفسح الطريق إلى الاجتهاد فى الفروع فيما لم يرد فيه نص ، ويقوم على إطارات واسعة مرنة ، قادرة على ايجاد حلول يسيرة لقضايا العصور والبيئات المختلفة والمتجددة ، مع التمكن من مواجهتها والاستجابة لها ، بما يحقق العدل ، دون أن يكون الإسلام فى ذلك مطية لأهواء المجتمعات أو خادماً لانحرافاتها •

فالتشريع الإسلامى لا يقر مذهبا يفرض مفهوما ماديا خالصا أو روحيا خالصاً على المجتمعات ، أو مذهباً يقدم الاقتصاد على الأخلاق والعقائد ، أو يفترض نسبية الأخلاق أو الهبوط بالإنسان إلى تجارب الحيوان • • •

أو التسليم بالإباحية المطلقة باسم الحرية والتطور المطلق ، ويقر

المفاهيم التى تقوم على الربط بين القيم وضوابط الحرية والمسئولية الفردية وإقامة حركة التطور من داخل دائرة الثبات •

دعـــوة باطلـــة :

ولقد كان من أغرب المحاولات التى قام بها التغريب والغزو الثقافى من أجل تثبيت المنهج الغربى للعلوم الســـياسية ، الادعـــاء بالباطل بأن الإســـلام لا يملك فكراً سياسياً ، وقد ظل الدكتور طه حسين وعـــدد من كتاب العرب الجارين فى فلك التغريب والتبعية الثقافية ، يلحون على القول بأن المسلمين والعرب لم يكن لهم نظام سياسى أصـــيل ، وأن مصدر النظرية السياسية هو فكر رومانى ، وأن العرب المسلمين كانوا نقلة لهذه الدراسات •

وقد ظل هذا الاتهام قائما كالسيف المصلت سنوات طويلة ، حتى قام دكتور ضـــياء الدين الريس بالكشـــف عن زيفه ، وتأكيد خطئه ، بمؤلف ضخم فصـــل فيه النظريات السياسية الإسلامية وكشف عن حقيقة الأمر فى هـــذا الصـــدر بما لا يدل فقط على أصالة النظرية السياسية الإسلامية بل على أنها كانت المصدر الأول للدولة الحديثة •

يقول الدكتور الريس : «لقد كان الذى يدرس لنا فى أوربا هى نظريات الإغريق والرومـــان وأمثالهم من المفكرين الأوربيين ، فأين مكـــان الفكر الإســـلامى بين هذا الإنتاج الإنسانى اليوم ، ولمـــا كانت الإجابة عن هذا السؤال يجب أن تكون مبينة على أســـاس علمى ، فلابد لنا من دراســـة شـــاملة للتراث الإسلامى الخالد ، وتعقب الأفكـــار التى بثت هنا وهناك فى ثنايا الكتب التى ألفهـــا القدماء فى العلوم المأثورة المختلفة ، ولا تزال مكتوبة بلغتهم الاصطلاحية التى لم تعد مألوفة اليوم ، ولن يكون الجواب بالسلب •

ذلك أولا : لأن إنتاج الفكر الإســـلامى فى مختلف نواحى العلـــوم

إنتاج حافل فلا يعقل أن يظن أن هـذه الناحية الهامة من نواحى الثقافة الإنسانية قد أهملت ، ونعنى بهـا الناحية السياسية •

وثانيا : لأن المجتمع الإسلامى من خلال العصور المتعاقبة قد نجح فى إنشاء دول بل امبراطوريات بلغت من الدقة فى أنظمتها وإدارتها وأساليبها ما لم تبلغه النظم السياسية والإدارية التى ألفها العالم قبل وجود هذا المجتمع •

اقتباسات النظم الأوربية :

ومن الحقائق التى لا تزال غير معروفة للكثيرين ، أن الدولة الحديثة — وهى إحـدى العوامل التى كانت سبباً فى انتقال أوربا من العصور الوسطى ، أو الفوضى الاجتماعية التى سميت بالنظام الاقطاعى — هـذه الدولة الحديثة كانت اقتباسا إلى حـد قريب أو بعيد من الدول التى كانت موجودة فى بلاد الشرق الإسلامى لهذا العهد •

كمـا أن النهضة القانونية التى حدثت فى أوربا وأدت إلى أن تكون تلك الدولة ، كانت صـدى لنشاط الدراسات القانونية فى الممالك الإسلامية التى كان القانون أو الفقه هو المـادة الأولى للدراسـة فى جميع كلياتها ، فنشـأت الجامعات فى إيطاليا وفرنسـا متأثرة بهذه الروح عـاملا على تنفيذ المنهج على النمط الذى شهدته فى الشرق •

فإذا كان هـذا هو أثر المجتمع الإسلامى فى ميدان السياسة العملية ، وذاك هو إنتاج الفكر فى مختلف نواحى العلوم ، فلا يتوقع إلا أن يكون لها مثل هـذا الإنتاج فى أفق السياسة النظرية مع مراعاة الحدود بطبيعة الحال التى أنتهت إليهـا الثقافة ، ووصل إليها التطور الاجتماعى فى ذلك العصر •

أسس الحكم فى الدولة الإسـلامية :

فالمسلمون قد فكروا فعلا فى السياسة ، وكونوا لهم نظريات عنهـا ،

غير أن بحثهم كان تحت اسم آخر ، وتكلموا بلغة أصبحت غير مألوفة فى العصر الحاضر ، فالنظريات التى وصلوا إليها كانت إما جزاءاً من مباحث علم الفقه والكلام أو التاريخ أو الفلسفة أو الأدب ، ويوجد بعضها أيضا فى تفاسير القرآن ، وفى شروح الأحاديث ، ولذا فإنه ينبغي لمن يريد أن يفهم هذه الآراء فهماً حقيقياً ويلم بها إلماماً تاماً ، أن يرجع إلى تلك العلوم جميعا .

وهذه النظريات فى مجموعها وهى تكون ثروة عظيمة القيمة جديرة بالدراسة ، تضاهى ما أنتجته أوربا فى بعض عصورها الزاهية بل إن من بين هذه الدراسات ما لم تصل أوربا إلى معرفته إلا بعد أن قطعت شوطاً طويلا فى طريق التطور ، وما يمكن أن يوصف بأنه يعبر عن أسمى المبادىء السياسية التى وصلت إليها الإنسانية .

ومن أبرز المميزات العامة للتفكير الإسلامى والتى تميزه عن التفكير الغربى فى كثير من عصوره أنه كان مرتبطاً دائما بالقيم الأخلاقية لا يستطيع أن ينفصل عنها أو يتجاهلها ، بل إن هذه القيم كانت هى غاياته الأساسية وجوهر حياته الذى يفقد كيانه إذا فقده ، وأنه منذ نشأته رسم الله له حدوداً جعلت تطوره ينتهى إلى غاية لا يعدوها ، وإن كان من الممكن فى العصر الحاضر أن يجعل ما أنتهى إليه من نتائج كأساس ، ويبدأ فى تحديد ووضع نظام محدث له .

وهكذا نجد أن معالم الفكر السياسى إسلامى قائمة فعلا بطابعها المستقل ، التى لا يمكن أن توصف بأنها مستمدة أو متشابهة مع الفكر السياسى الغربى ، فإذا وجدت مشابهة فى بعض الفروع ، فإنها تختلف فى الأساس والغايات كل الاختلاف ، ويقوم الفكر السياسى الإسلامى على أساس قانونى هو الشريعة الإسلامية التى تضع أهمية كبرى للمجتمع وسعادته .

والحريات الإسلامية هى حريات فعلية حقيقية ، وهى مقيدة وموصوفة بمبدأ معين ، هى المشروعية الإسلامية ، فهى ليست حريات لا موضوع لها كما فى النظم الديمقراطية الحديثة •

وقد سبق الإســـلام الغرب فى تقرير حقوق الإنســـان ، عندما أعلن أعلن حق المساواة فى الإنسانية ، وكانت المجتمعات الغربية زاخرة بالفوارق والخلافات •

كذلك سبق الإسلام الفكر السياسى الغربى إلى صـــيانة حقوق المرأة ورد الاعتبار الإنسانى إلى الطوائف المستضـــعفة ، والقضاء على الرق بطريقة تدريجية ، والقضاء على النظام الطبقى ونظام العبودية والغـــاء الفوارق الجنسية والعرقية •

كما أعلن الإسلام قبل أربعة عشر قرنا حرية العقيدة والتفكير ، وحق التمتع بحياة آمنة يتوفر فيهـــا الأمن والرزق ، الإعام من جوع ، والأمان من خوف •

السياسة الشرعية فى مؤلفات المسلمين :

وقد ألف المفكرون المسلمون القدامى أكثر من خمسين كتابا فى علوم السياسة والإدارة ، وهذا ينفى الزعم القائل بأن مفكرينا لم يولوا هذه الموضوعات عنايتهم ، كما أن الفقهاء قد وضعوا اســـتمدادا من القرآن والحديث ، الأحكام القانونية فى جميع نواحى السلوك الفردى والجماعى ، ومنها السلوك السياسى وسيتكرر البحث الفقهى السياسى فى بحث ما أطلق عليه « السياسة الشرعية والأحكام السلطانية » وفى كتب الماوردى « الأحكام السلطانية » ابن تيمية « السياسة الشرعية » •

كما تناول الفكر السياسى الإســـلامى : بحث أخلاقية السياسة وما يجب أن تكون عليه أخلاق الحكام من خلفاء وسلاطين وملوك وأمراء ، وفى

هـذا ألف النويرى « نهاية الأرب » ، والطرطوشى « سراج الملوك » وابن طباطبا « الفخرى فى الآداب السلطانية ، وتلك أبرز مفاهيم الفكر السياسى للاسـلام وهو عدم وجود خط فاصل بين السياسة والأخلاق ، وأن يكون السـلوك السياسى أخلاقيا ، فالمفكر السياسى الإسلامى ، يقرر اخضاع أعمال وسـلوك الإنسان لنظام معين ، هذا النظام هو المقيـاس الخلقى للتميز بين الأعمال السياسية القائمة على الخير والنفع ، والقائمة على الشر والضر ، وما ذلك إلا لأن مناهج السياسة الشرعية مناهج الهية المصـدر نبوية الشرح والتطبيق ، تابعها إجماع الأمة — فقهاء وعلماء — واجتهادها .

وجوه الاختلاف :

ويختلف الفكر السياسى الإسلامى عن الفكر الغربى الديمقراطى فى وجوه كثيرة :

أولا : أنه يؤكد وحدة العقيدة أكثر مما يؤكد وحدة الإقليم .

ثانياً : التأكيد على النظرة الجامعة المتكاملة بين ما هو مادى ومـا هو روحى .

ثالثاً : الاستناد على القاعد الخلقية ، فهناك مقياس خلقى لكل عمل سـياسى .

رابعاً : وبينما تستقر السيادة فى النظام الديمقراطى على الشعب بصورة كلية ، فإن الأمة فى الفكر السياسى الإسلامى مرتبطة سـيادتها بتعاليم الشريعة الإسلامية ، بعيدا عن الأهواء البشرية .

خامساً : لا يسمى المفهوم الإسلامى بأنه ديمقراطى ولا اشتراكى ولا ديكتاتورى ، لأنه مناهض لها جميعا ، فهو بعيد عن التطرف والإكراه والتسـلط .

سادسـاً : السـيادة فى النظام الإسـلامى ليست فى يد الأمـة (الديمقراطية) ولا فى يد رئيس الدوله (الديكتاتورية) ولكنها فى تطبيق الشريعة الإسلامية بما يبعد النظام الاسلامى عن أى منهج مخالف •

سابعا : يقرر الفكر الاسلامى أن المجتمع ضرورة لدوام حياة الأفراد وان المجتمع لا يمكن أن يستقيم دون وجود سلطة يلقى عليها مسؤولية تحقيق التقدم والاستقرار ة

ثامنا : الدولة فى الفكر السياسى الإسلامى ، تقوم على القـانون الإسلامى (الشريعة) وأن القوانين المنظمة للمجتمع ، لا يمكن أن تكون فعالة إلا إذا اكتسبت صفة التطبيق ، من السنة النبوية واجتهادات أهل الحل والعقد ، وأن على الدولة مراقبة سلوك الأفراد لانها المنوطة بمسئولية تحقيق سعادة الآخرين ، وسعادة ووحدة الأمة بأجمعها ، ومسئولية الحفاظ على التعاليم والأهداف الإسلامية •

تاسعاً : لا يعترف الإسلام بالحاكم المطلق بل بالحاكم الأمين على مبادئه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وعلى الحاكم أن يكون متجرداً من الهوى ملتزماً جانب الحق والعدل ، وللأمة حرية اختيار الحاكم وتقويمه إذا انحرف ، وتنحيته إذا اخطأ •

عاشراً : يقر الفكر السياسى الإسلامى حرية الفكر وحرية الاعتقاد ، فلكل إنسان — طبقاً للشريعة الإسلامية — أن يعتنق ما شاء وليس لأحـد أن يحمله على ترك عقيدته •

حادى عشر : يقوم النظام الدستورى الإسلامى مستمداً من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على أسس ثلاثـة : العدالة والشـورى والرحمة ، وفى علاقات القانون الدولى يعتبر القرآن الكريم أول تشريع نادى بالمساواة بين بنى الإنسان •

ثانى عشر : إن مرونة الشريعة الإسلامية وقابليتها للتطور تخضع لقيد الالتزام بالاصول الشرعية ومقاصد الشريعة وكلياتها ، وأن هناك فرقا بين الانطلاق والهدم وبين التطور والملاءمة ، ولا شك أن هناك جزءاً من أحكام الشريعة لا يقبل التطور ، وأن ما جاء فيه نص ، فإنه لا يجوز العدول عنه أو تعديل تطبيقه مهما طال الزمان ، بل إن مراعاة المصالح ليست أمراً لا قيد عليه بل هى محكومة بأصول الشريعة .

وبالجملة فإن كان نص وجب اتباعه ، وإذا كان أمر يقاس تقيدنا بالقياس وإذا لم يكن هناك نص نظرنا إلى مصالح الشرع مع حفظ الضرورات الخمس ودفع الحرج وتحقيق المنافع .

ثالث عشر : يختلف النظام السياسى عن كلا النظامين : الرأسمالى والاشتراكى ، فالنظام الرأسمالى مقصور على تأمين الحريات الفردية والحقوق الخاصة ، والنظام الاشتراكى ينحصر هدفه فى منع أسباب الصراع والاستقلال الطبقى .

أما النظام الإسلامى فيقوم على تحقيق ما يسمى بالمقاصد الشرعية وهى تتلخص فى التضامن فى تنفيذ ما أمر الله تعالى به ، ومنع ما نهى عنه ومن بينها : تأمين الحريات الفردية ومنع الصراع والاستغلال ، ولكنها أوسع فى جوانبها ومقتضياتها فهى لا تقصر على الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية بل أشمل فى نواحيها المعنوية والخلقية ، التى تضفى على الاقتصاد والاجتماع فى الإسلام شمولا واتساعاً لا تعرفه النظريات الاقتصادية المعاصرة (مصطفى كمال وصفى) .

رابع عشر : الفكر السياسى الإسلامى لم يجعل الوالى هو صاحب الحق فى السيادة بل اعتبر السيادة حقاً للأمة وحدها ، وتقوم الشورى الإسلامية على أهل الحل والعقد ، ولم يمنع الإسلام المرأة من أن تشارك بالرأى فى الشئون العامة ، كما لم يحرم الأرقاء من المساهمة فى الرأى والشورى .

والشورى لها مرحلتان : مرحلة الملاءمة ومرحلة المشروعية ، والملاءمة هى سؤال أهل الخبرة فيما هم خبراء فيه ، أما المشروعية فهى وزن رأى أهل الخبرة قياسا على الشرع ، فالمشروعية مقيدة بما أظهره أهل الخبرة وبما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من الأحكام •

خامس عشر : إن الفكر السياسى الإسلامى يرفض مصطلحات الديمقراطية ، والاشتراكية والقومية ولا يربطها باسمه ، ويرى أنها مذاهب غربية تختلف اختلافا واضحا عن مفهوم الإسلام الجامع ، وأن الغربى حين يستخدم هذه المصطلحات فإن يستحضر فى ذهنه أحداث تاريخ الغرب والظروف التى مر بها والتحديات التى واجهته •

سادس عشر : الفرق بين خواص الدولة فى الإسلام ، وخواصها فى العصور الحديثة يكشف عن نظام فريد للإسلام خاص به لا يتطابق مع أى نظام من النظم الحديثة ، قوامه الربط بين الدين والدولة •

سابع عشر : العقد الإسلامى السياسى هو الاتفاق السياسى بين الراعى والرعية وبين الحاكم والحكومة ، والعقد السياسى فى الإسلام يقوم على أفكار أصيلة حرة ، لا تقل شأناً عن الأفكار السياسية الحديثة ، وأهمها حرية الاختيار ، والموافقة من جانبى الحاكم أو الخليفة أن يتولى السلطة نيابة عن الأمة ، ومن هنا سبقت يظرية العقد السياسى الإسلامى نظريات روسو ولوك •

فساد المنهج البشرى :

ويكشف الدكتور محمد عبد الله العربى عن تجربته الخاصة فى دراسة النظام السياسى الغربى ، فيقول : « لقد أدركتُ كما أدرك غيرى من علماء أوربا أنفسهم : أن هذه النظم التى عكفتُ على درسها وتدريسها أكثر من ثلاثين عاما كانت من أهم الأسباب فى كل ما حاق بالبشرية وما زال يحيق بها من ويلات وكوارث وشقاء شامل » •

ويمكن أن يوصف ذلك بما يسمى فســاد المنهج البشرى ، فالنظم الأوربية تقوم على اضطراب وتناقض لأنها من تفكير البشر ، ومن صنع البشر الذين لا يرون إلا ما هو مكشوف لهم فى فترة محدودة من الزمن وفى قطاع محدود من الأرض ، رؤية فيها كل قصور الإنسان وانفعالاته العابرة وشهواته الجامعة ، فتفكيره من أجل ذلك لا مناص من أن يكون تفكيرا جزئيا وتفكيرا وقتيا ، ومن هذه الجزئية يقع النقص والقصور ، ومن هذه الوقتية يقع الاضطراب فى التمييز بين الحق والباطل فيكون الباطل حقا فى عصر ويكون باطلا فى عصر آخر •

لقــد احتجبت حضارتنا الإسلامية أمام غزو حضارة أجنبية وكــان تقليدنا لما خبث منها أسرع من اقتباسنا لما صلح منها •

واجبنا نحو شباب الجامعات :

واليوم نجد شبابنا فى الجامعات لا يـُدَرَّسون إلا النظم السياسية والاقتصادية كما تعرفها أوربا ونجد تشريعاتنا الوضعية فى شئون الحكم والاقتصاد والاجتماع تحتذى حذو التشريعات الأوربية ، وتنهج عــلى منوالها فيما تحرمه وفيما تبيحه ، وفى سياستنا الاقتصادية والمالية اقتبسنا نظمهم المصرفية والربوية ، التى سيطر من خلالها اليهود على اقتصاديات العالم ، وفى سلوكنا الاجتماعى أصبحنا نقلد مُجونهم وازيائهم ومباذلهم الفاجرة ، ومع كل هذا التقليد فقد عجزنا وتقاعسنا عن أفضل ابتكاراتهم الفنية وكشوفهم العلمية •

إننا مطالبون بتصحيح المفاهيم ، وتحرير المناهج الدراسية فى مجال الفكر السياسى الاسلامى حتى يعرف أبناؤنا أن لنا مفهوماً سياسياً ، ومنهجا إسلاميا يختلف ويتميز ويسمو عــلى المنهج السياسى البشرى المعــاصر •

الفصـــــل الثـــامن

القانون الوضعى والشريعة الإسلامية

عملان هامان فى مجال المناهج التعليمية والتربوية والثقافية :

أحدهما : إضافة تلك الصفحات المشرقة التى كتبها المسلمون لهـــذه العلوم التى تدرسها الجامعات والمدارس من قانون واقتصاد وسياســـة واجتماع ونفس وأخلاق وتربية وعلوم تجريبية ، فليس هناك علم من هذه العلـــوم التى تدرسها ، إلا وكـــان للمسلمين فيها دور وجهد وعمل هـــو بمثابة المقدمات التى مهدت للعلماء المعاصرين وضع هـــذه العلـــوم فى الصورة القائمة اليوم ٠

أما العمل الثـــانى : فهو تأصيل المنـــاهج المطروحة فى أفق التعليم والثقافة الإســـلامية ، وتحريرها من الانحرافات والأخطاء وما يتصـــل بوجهات نظر الغرب لها ، وما وضعه كأسلوب لمواجهة تحديات مجتمعه ، أو لما تأثر به نتيجة لمفاهيمه الدينية ، أو لغلبة الفكر الوثنى والمادى عليه فى هـــذه المناهج ٠

ولقـــد أصبح من الضرورى فى مطلع القرن الخامس عشر : انتقالا من عصر اليقظة والرشد الفكرى إلى عصر النهضة والأصالة ، إعادة النظر فى مناهج القانون والاقتصاد والسياسة والتربية والتاريخ ، لتحريرها من من التبعية ولكشف وجوه أصالة الفكر الإسلامى فى هذه الميادين ، لتعود الأمة الإسلامية الى منابعها الأصلية التى تحقق لها امتلاك الإرادة والتمكن فى الأرض ، والقدرة على دفع غزوات الصهيونية والشيوعية والاســـتعمار الغربى ٠

القانون الوضعى فى الشريعة الإسلامية :

على المثقف المسلم أن يعرف وهـــو يفتح أول صفحة من دراسات القانون الوضعى ، أن هناك قانوناً إسلامياً هـــو الشريعة الإسلامية :

الذى كان مطبقا فى العالم الإسلامى والبلاد العربية ، منذ دخلت هذه البلاد فى الإسلام وارتضته نظاماً اجتماعياً لها ، بالإضافة الى أنه دين عبادة وأخلاق .

ومنذ دخل الاستعمار العالم الإسلامى فى العصر الحديث ، وسيطر بالاحتلال على البلاد الإسلامية ، كان أول مسعاه أن يبدل هذا النظام القانونى الإسلامى بالقانون الوضعى الغربى ، وقد جاءت مؤمراته هذه — فى أول الأمر — تحت اسم « محاولة » إيجاد نظام قانونى لمعاملة الأجانب فى علاقاتهم بأهل البلاد .

ومع أن الأجانب عادة يحاكمون بقانون البلاد التى يقيمون بها ، فإن هذه القاعدة لم تنفذ فى العالم الإسلامى نظراً لوقوعه تحت سيطرة احتلال الغرب ، ونظر للعلاقات التى كانت قائمة قبل ذلك عن طريق الامتيازات الأجنبية التى حصلت عليها الدول الغربية فى الدولة العثمانية التى كانت تضم البلاد العربية بالإضافة إلى البلاد التركية ، والتى كانت تحكمها أنظمة الشريعة الإسلامية .

وقد أعطت هذه الامتيازات الأجانب الحق فى محاكمة قومهم أمام محاكم خاصة أطلق عليها اسم « المحاكم المختلطة » ، وكان من نفوذ هذه المحاكم الفصل فى قضايا الوطنيين الذين يتعاملون مع هؤلاء الأجانب .

وفى مصر خلال حكم الخديو إسماليل وبعد اتساع نفوذ الدول التى خضعت مصر لها بالاستدانة فقد فرض عليها اقامة (المحاكم القنصلية) وكانت كل محكمة تطبق قانون الدولة التى تتبعها ، وقد طُبقت هذه القوانين على المنازعات التى كان يرفعها المصريون على الأجانب لدى هذه المحاكم ، ثم تطور هذا النظام بإنشاء (المحاكم المختلطة) عام ١٨٧٥ ، وهى مشتركة بين قضاة أجانب وقضاة مصريين ، اختصاصها الفصل فى المنازعات فى المواد المدنية والتجارية فيما بين المصريين والأجانب ، وفيما بين الأجانب المختلفى الجنسية ، وظلت حتى ألغيت بعد معاهدة ١٩٣٦ .

كانت هذه المحاكم بقوانينها هى نواة الأنظمة التى جاءت من بعد للقضاء الوطنى ، فقد أصدرت الحكومة عدداً من القوانين :

القانون المدنى :

القانون التجارى ، التجارة البحرية ، المرافعات ، العقوبات .. تحقيق الجنايات ، وقد نقلت هذه التقنينات عن القانون الفرنسى ، مع تضمين القانون المدنى القليل من الأحكام الشرعية الإسلامية .

وكانت هذه القوانين مقدمة لانتزاع البلاد الإسلامية من نظام القضاء والقانون الإسلاميين : ذلك أنه بعد الاحتلال البريطانى لمصر — أى فى عام ١٨٨٣ — أنشئت المحاكم الأهلية ، على غرار الأنظمة الأوربية ، لتحقيق وقضاء المنازعات المدنية والتجارية بين الكافة فيما عدا الأجانب المستفيدين من نظام الامتيازات الأجنبية .

وكان هذا العمل شبيهاً بما تم بالنسبة للتعليم ، حيث وضعت المناهج فى مدارس الارساليات ثم نقلت إلى المدرسة الوطنية بعد ذلك بوجهات نظرها (المعارضة للعرب والإسلام) .

وقد رافق هذا أيضا إنشاء المصرف الربوى — البنك الأهلى ١٨٩٨ — وذلك للسيطرة على مختلف وجوه العمل الاجتماعى كله (القضاء ، الاقتصاد ، التعليم) .

يقول الدكتور أحمد عز الدين عبد الله : وكان إصدار التقنينات المختلطة والتقنينات الأهلية حدثاً هاماً فى تطور القانون المصرى إذ وجد به : (قانون وضعى) مصرى ، بعد أن سادت مصر خلال عدة قرون شريعة دينية هى : الشريعة الإسلامية التى « ضُيِّق على مجال تطبيقها فى ميدان المعاملات بحيث أصبح مقصوراً على مسائل الأحوال الشخصية والوقف مما تختص به المحاكم الشرعية » .

كما بقى بجانبها عدد من الشرائع الدينية للطوائف غير المسلمة تطبقها المجالس الملية .

هـذا هـو مدخل دراسة القانون الوضعى الذى سيطر على نظام القضاء فى البلاد العربية والإسلامية . بعد أن فصلت هـذه البلاد عن الشريعة الإسلامية بالتآمر والكيد وأبعدت الشريعة الاسلامية التى كانت الدولة العثمانية قد قننتها تحت اسم مجلة الأحكام العدلية .

ومن هنا نجد أن وجودنا داخل نظام القانون الوضعى هو وجـود اضطرارى وغير طبيعى ومؤقت ومن الضرورى التحول عنه بعد السنوات التى مرت — والشريعة الاسلامية محجوبة عن التطبيق — إلى الشريعة الإسلامية نفسها .

ومما يـُلاحظ أن ما حدث فى تركيا بعد سقوط الدولة العثمانية هو ما حدث فى إيران ، وهـو ما حدث فى الشام (بأجزائه) ، ومصر والسودان والمغرب بأجزائه الأربعة التى وقعت تحت الاحتلال : ليبيا وتونس والجزائر والمغرب .

* * *

بدأ التحول نحو القانون الوضعى منـذ عهد محمد على ، وبعد أن اتسعت صلات مصر بالدول العربية وخاصة فرنسا التى كانت قد هاجمت مصر عام ١٧٩٨ ، وقضت الثورة الشعبية على محاولتها فى احتلال البلاد .

ثم جـاء عصر محمد عـلى ، حيث توقفت الاتصالات السياسـية والاجتماعية فى الغرب على فرنسا بالذات ، وكان والى مصر قـد أوفـد عددا من الطلاب الى فرنسا ١٨٢٨ لدراسة القانون ، وعادوا ١٨٣١ ، بعد أن درسوا : القانون الطبيعى والقانون الدولى والقانون العام والاقتصـاد السياسى والاحصاء والادارة ، فكانوا نواة لرجال القانون الوضعى فى مصر .

وفى عام ١٨٣٦ ، أنشئت مدرســة الألسن ، التى خصص جــزء من مناهجها لدراسة القانون ، وقام طلابها بترجمة مجموعات القانون الفرنسى وبعض المؤلفات القانونية ، وقد استمرت الحكومة المصرية منذ ذلك الحين فى ايفاد البعثات الى أوربا لدراسة القانون حتى أنشئت مدرسة الحقوق والإدارة عام ١٨٦٨ ، مندمجة فى مدرسة الألسن ثم انفصلت عنها ١٨٨٢ ، وفى عام ١٨٨٦ حملت اسم مدرسة الحقوق •

وقد كان برنامجها دراسة القانون المدنى المصرى مع مقارنته بالقانون المدنى لأهم الدول الأوربية ، والقانون الطبيعى والقانون الرومانى وقانون التجارة البحرية والمرافعات المدنية والتجارية وقانون العقوبات وقــانون تحقيق الجنايات والمحاسبة التجارية ، وأضيف الى ذلك كله مادة واحدة ، هى الشريعة الاسلامية التى بدت وكأنها جسم غريب فى الكيان الغربى الخالص •

كان يتولى ادارة المدرسة ، ناظر فرنسى ويتولى التدريس أساتذة فرنسيون ، ثم رأس المدرسة ناظر إنجليزى بعد الاحتلال البريطانى ، وأدخلت اليها القوانين الانجليزية ، ثم جرى « تمصير » مدرسة الحقوق بعد الحرب العالمية الأولى حيث حل أساتذة مصريون محل الانجليز ، وفى عام ١٩٢٥ أطلق عليها اسم كلية / الحقوق ، وضمت الى الجامعة المصرية (الرسمية) وظلت وما زالت تقوم بدراسة القوانين الأجنبيــة الوضــعية ، مع غلالة صــغيرة عن الشريعة الاسلامية لا توحى للدارس بأى أهمية للشريعة الأصلية التى هى أصــول الحــكم فى هذه البلاد ، والتى غابت عن نفوذها ومكانها منذ سنوات طويلة •

ولقــد عاشت كلية الحقوق هــذه التجربة القاســية التى فرضت نظاما وضعيا مجافيــا لروح هــذه الأمة وعقيدتها طوال هــذه الفترة ، وفى هــذه الكلية تخرج رجال كثيرون عملوا بصدق فى سبيل اعادة الشريعة الاسلامية الى مكانها الصــحيح •

واكنت القوانين الوضعية قد صدرت : قانون العقوبات ١٩٠٤ وجدد ١٩٣٧ ، القانون المدنى ١٩٤٨ ، قانون المرافعات ١٩٤٩ وجدد ١٩٦٨ .

ويجمع الباحثون إلى أن عام ١٨٧٥ ، هو بداية ميدان القانون فى مصر الحديثة ، أى أننا الآن بعد مائة عام ، نحاول أن نؤصـل هذه العلاقة ونضع المقدمات الحقيقية لدراسة القانون فى مصر والتى هى ضرورية لفهم حقيقة الوضـع : سياسيا وتربويا .

بدأت المحاولة بروح التغريب والاستعمار والسـيطرة على العالم الاسلامى والبلاد العربية ، وتحويلها عن شريعتها القرآنية الربانية التى جاء بهـا الوحى من رب السموات والأرض ، والتى هى عماد المجتمع الاسلامى ودعامته ، وتجمعت هـذه القوى لفرض القانون الوضعى الذى يحجب كثيرا من القيم الأساسية والضوابط والحـدود التى نظمت بهـا الشريعة الاسـلامية المجتمع وحفظته من الأخطار ، ولقد عمـد القانون الوضـعى الى تغريب هـذا المجتمع فى مجالات كثيرة وخاصة فى مجال الأسرة ، وعلاقـات الرجل والمرأة ، والتعامل الاقتصـادى (الربـا) والاجتماعى (الزنـا) .

* * *

كان الهـدف هو تحويل المسلمين والعرب عن الشريعة الاسـلامية كمنهج أصـيل عاش المسلمون يطبقونه منـذ بزغ فجر الاسلام ، لذلك فقد كانت أولى شروط استقلال تركيا بعـد هزيمة الدولة العثمانية ، هـو ما أشارت اليه شروط « كرزن » بالغاء الشريعة الاسلامية فى نظام الحكم والقضـاء والاقتصاد واستبدالها بالنظام الغربى والقانون الوضعى .

فى الدولة العثمانيـة :

كانت الشريعة الاسـلامية هى شريعة البلاد لعدة قرون ، الى أن أوقفها مصطفى كمال أتاتورك عـام ١٩٢٢ ، وحلت بدلا منهـا القوانين الوضعية التى حلت بمصر ١٨٨٢ ، ولقـد كان القانون المدنى الذى طبق

فى الدولة العثمانية تحت اسم (المجلة العدلية) عام ١٨٦٩ ، عبارة عن تقنين لاحكام تلك الشريعة أخـذا بمذهب الإمـام ابى حنيفة • وقـد جرى تطبيق أحكامها على جميع رعايا الامبراطورية العثمانية • سواء من المسلمين أو غير المسلمين •

وقد ظلت أحكام الشريعة فى صورة هذا التقنين وهو المجلة العدليـة مطبقة فى سوريا ولبنان ، حتى بعد أن زالت عنهما السيادة العثمانية حتى انقلاب حسنى الزعيم حيث أحل محلها القانون الوضعى عام ١٩٤٩ بعد أن مهد الاحتلال الفرنسى لذلك •

وكانت الثغرة قد جاءت منذ بدأت العهود والمواثيق التى وقعتها الدولة العثمانيـة مع الدول الأوربية عـام ١٥٢١ ، والتى يطلق عليهـا أسم (الامتيازات) •

تلك المواثيق التى حولتها الدول الأوربية بعد ضعف الدولة العثمانية فى القرن ١٨ ، ١٩ من عهود أمان واتفاقات تجارية مؤقتة ، الى امتيازات فعلية استطاع الأوربيون بواسطتها إحكام السيطرة على البلاد والتأثير الخفى فى ثقافتها وسياستها واقتصادها •

نصت هذه العهود التى يطلق عليها (الامتيازات) ، بصورة عامة ، على السماح للاوربيين بدخول الاراضى العثمانية والاستقرار فى أى جزء من أجزائها ، دونما ضغط أو ازعاج ، والمتاجرة والتنقل واستيراد مختلف البضائع ، فلما ضعفت الدولة العثمانية استغلت أوربا تلك الروح الانسانية الكريمة فوسعت حق القضاء الممنوح لها ، حتى أصبح لكل دولة قضـاء خاص ينظر حاجاتها ، كما أنشئت المحاكم المختلطة •

وفى مصر : بدأت الحملة على الشريعة الاسلامية ظاهرة منذ جـاء الاحتلال البريطانى ، وكانت تصريحات اللورد كرومر فى تقريره ١٩٠٣ ، التى تراجع عنها ظاهريا فيما بعد عندما واجهته ردود كتاب الاسلام ،

فأشار الى أنه عنى بما كتبه الفقه وليس الشريعة الاسلامية وبذلك فتح الباب واسعا أمام التغريبيين الذين كانوا لا يتجاوزون ما أشار اليه من أن الشريعة لا توافق مدينة هذا العصر ، لا تنطبق على مصالح أهله .

فى نفس الوقت الذى تثبت فيه وقائع التاريخ ، أن حملة نابليون فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى فى مصر ، قد استطاعت عن طريق بعثتها العلمية المرافقة لها أن تنقل أنظمة الشريعة الاسلامية فى المعاملات من بيع ورهن وشراء وهبة وجرائم ، وذلك فى مدونة أطلق عليها (مجموعة قوانين نابليون) صدرت عام ١٨٠٤ ، أرجع الباحثون معظمها الى كتاب فى المذهب المالكى هـو (شرح متن خليل للشيخ الدردير) — رحمه الله .

من هذه النقطة بدأت عملية الاقتباس الغربى الحديث ، حتى جاء كرومر بعد مائة سنة ليهاجم الاصل الذى أخذت منه أوربا قوانينها الحديثة ، وإن كانت قد أعرضت عن العقوبات والحدود . وغيرت فيما أخذت كما شاء لها هواها .

هذا القانون الذى قال عنه نابليون : ليس مجدى وفخرى فى أربعين معركة ، ولكن الاثر الذى سوف يبقى خالدا الى أبد الأبدين هـو : القانون المدنى .

وعندما ضيق الخناق على مصر فى أواخر عصر اسماعيل للأخذ بالقوانين الأوربية الوضعية ، جرت محاولة لتطبيق الشريعة الاسلامية غير أنها لم تكن جادة ، ولم تكن فى نفس الوقت مما يرغب فيه النفوذ الاجنبى الزاحف الذى كان يطمع فى أن يجد سبيلا الى السرقة والرشوة والفساد واستعمال الربا والفائدة المركبة .

ويشير السيد رشيد رضا الى (قعود) أهل الأزهر عن اجابة طلب الخديو اسماعيل ، فى تأليف كتاب فى الحقوق والعقوبات ، موافق لحال العصر ، سهل العبارة مرتب المسائل ، على نحو ترتيب كتب القوانين

الأوربية ويشير الى أن رفضهم هذا الطلب هـو السبب فى انشاء المحاكم الاهلية ، واعتماد الحكومة فيها على قوانين فرنسا ، والزام الحكـام بترك شريعتهم وحرمانهم من فوائدهـا ، وهو السبب فى توجه عـزائم الكثيرين من نابتة الأمة الى درس تلك القوانين فى مصر وأوربا (المنار مجلد ٧ — ص ٢١٢) • وقد أشير فى هذا الحديث الى قول اسماعيل بأن أوربا تضطره الى الحكم بشريعة نابليون ، وأن هذا من أهم آثار سيطرة النفوذ الاجنبى نتيجة الاستدانة .

وهكذا استبدل القانون الفرنسى بالشريعة الاسلامية عام ١٨٨٥ ، وقـد اشترك رفاعة رافع وقدرى باشا ، وصالح مجدى ، فى تعريب قوانين العقوبات والمرافعات ، وتحقيق الجنايات وطبعت جميعها بالمطابع الأميرية عـام ١٢٨٣ هـ •

وقـد حفظ التاريخ لمحمد قدرى باشا أنه اتجه الى تقنين أحكـام الشريعة الاسلامية ، وأنه اشتغل بالتوفيق بين أحكـام القانون المختلط الجديد عن القانون الفرنسى وبين أحكام الشريعة الاسلامية ، وألف كتابا فى تطبيق ما وجد فى القانون المدنى الفرنسى موافقا لمذهب أبى حنيفة •

وقـد وصف محمد قدرى باشا ، بأنه أول من قنن الاحكام الشرعية وبوبها وفهرسها فى مواد مرموقة فى كتبه الثلاث : الاحـوال الشخصية والمعاملات والاوقاف •

ومن الذين عملوا فى هذا الميدان (على أبو الفتوح) ، بكتابه « الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية » ، وفيه دعوة الى اسـتخراج « الشريعة الاسلامية ، ووضعها فى أسلوب عصرى صالح للتطبيق •

ولقـد ووجه اتجاه اسماعيل الى التقنين الغربى بمعارضة شديدة ، وكان مفتى الديار المصرية فى طليعة المعارضين فاخرجه الخديو من منصبه •

وبعد (القانون الجنائى) ، اخطر القوانين الوضعية وأشدها مخالفة

للشريعة الاسلامية (وضع عــام ١٨٨٣ ، واعيدت صياغته ١٩٠٤) ، ثم أعيدت مرة أخرى ١٩٢٧ ، وفى كل مرة تعاد صياغته دون أن يتقدم نحو الشريعة الاسلامية الا خطوات ضيقة ، ذلك لأن المشرع الوضعى قد اعتبر الزنا (الوطء فى غير حلال) عملا مباحا لا مسئولية فيه ولا عقوبــة ولا تعويض ولا يعتبر جريمة •

ولقد بدت القوانين الوضعية منذ اليوم الأول لتطبيقها عــاجزة عن الاستجابة للنفس والمجتمع ، وللطابع المصرى — الذى هو عربى اسلامى أصلا — والذى يستمد مفاهيمه من الشريعة الاسلامية ، ومن هنا جرى التفكير أكثر من مرة فى تنقيح القوانين (الاهلية) وفى كل مرة ينــادى الناس بالرجوع الى الشريعة الاسلامية ، وفى عام ١٩٣٦ ، أدخل النص على أن تكون الشريعة الاسلامية مصدرا تشريعيا من الدرجة الثالثــة ، مسبوقة بالنص القانونى ، ثم بالعرف وهكذا أصبحت الشريعة الاسلامية ضمن المصادر الاحتياطية التى لا يرجع اليها القاضى الا فى حالة عــدم وجود نص فى القانون ولا قاعدة فى العرف •

وفى عام ١٩٢٣ ، جرت محاولة خطيرة ابان وضع الدستور المصرى الأول : تلك الدعوة التى أطلق عليها (مدينة القوانين) ، وهى دعــوى مسمومة طالب أصحابها — وهم من أتباع المحافل الماسونية — محمود عزمى وعزيز ميرهم — بتوحيد التشريع والقضاء ، وجعلها مدنيين فى الاحــوال الشخصية كما فى المعاملات وقد ووجهت هذه الفكرة بمعارضة شديدة فقال الشيخ رشيد رضا (مجلد ٢٣ — المنار) : ان مدينة القوانين هى سعى المتفرنجين الى نبذ بقية الشريعة الاسلامية من مواد الدستور الاساسية : ان دين الدولة المصرية الرسمى هــو دين الاسلام ، وقد ساءت هــذه المواد بعض الملاحدة المتفرنجين • وقام منهم من يقترح أن تؤخذ قوانينها فتجعل كلها مدينة لوضع قانون مدنى للاحوال الشخصية من زواج وطلاق ، والهدف هو ترك الشريعة الاسلامية ونبذها وراء الظهور حتى فى الاحكام الشخصية التى تتعلق بمــا يدين المسلمون ربهم به • هــذا الفريق من

المتفرنجين ، ربيب بعض ساسة الفرنجة الذين سعوا لتحويل حكومة مصر وغيرها عن أحكام الشريعه الاسلاميه فى المعاملات المالية والعقوبات وغيرها واستبدال قوانينهم بها ، فكان لنجاحهم تاثير عظيم على إضعاف مقوماتنا باعراضنا عن اصول التشريع الذى قامت عليه مدنيتنا العربية الزاهرة •

واشـــار الى ان هناك خطه استعمـــاريه ترمى الى حل (الرابطـــة الاسلاميه) فى شعوب المسلمين عن طريقين : أحدهما ، تعليم المـــدارس الخاصه بهم كمدارس دعاة المتبرين فى بلاد الاسلام ومدارس الحكومه التى يسيطرون عليها •

والطريق الثانى : هـــو اقناع المتفرنجين من الادباء والكتاب بوجوب الفصل بين الدنن والحكومة ، وبأن الشرع المبنى على أصول الدين لا يصلح لترقى البشر الدنيوى ، وبأن الشرع الاسلامى قـــد وضع لأمة بدوية فلا ينطبق على مصالح الناس فى هذا العصر وبوجوب توحيد قوانين الامة وجعلها موافقة لجميع أهل الاديان •

غير أن هذه الصيحة المسمومة لم تلبث أن سقطت بعد أن تكشفت مصادرها •

* * *

عندما أعلن استقلال البلاد العربية ، ونظمت حياتها السياسية وفق النظام الديمقراطى الغربى ، وأنشأت الدساتير نص على أن دين الدولة الرسمى هو الاســـلام ، وقـــد وضع هـــذا النص فى الدســـتور المصرى عام ١٩٢٣ ، وهو نص لم يترتب عليه أى التزام من الدولة بتطبيق الشريعة الاسلامية ، (أو على حد تعبير بعض الباحثين ، إن هـــو الا بمثابة تحية كريمة العقيدة الدينية التى تدين بها الاغلبية ، أو كفـــارة تقدمها الدولة لعدم التزامها أحكام الشريعة فى قانينها) •

أما تركيا بعد الحرب العالمية الالى ، بعد أن سقطت الدولة العثمانية ، فقد نصت فى دفستورها على أنها دولة علمانية ، كما فعلت لبنان •

غير أنه جد من الامور ما جعل أعادة النظر فى تطبيق الشريعة أمراً لا محيد عنه ، فقد حملت حركة اليقظة الاسلامية لواء الدعوة الى تطبيق الشريعة فى القوانين المعمول بها فى البلاد العربية ، وقد حقق هذا الاتجاه الذى جند عشرات من رجال القانون الذين آمنوا بأن الشريعة هى السبيل الصحيح للحياة القانونية والقضائية • حقق فى سوريا شيئا أضيف الى دستور الجمهورية السورية عام ١٩٥٠ وهو (المادة ٣ فقرة ٢) التى نصت على أن الفقه الاسلامى هو المصدر الاساسى للتشريع (٢) • وقد تابعت دولة الكويت هذا الاتجاه فأعلنت فى دستورها عام ١٩٦٢ ، أن دين الدولة الرسمى الاسلام والشريعة مصدر رئيسى للتشريع ، وقد أخذت مصر بذلك عام ١٩٧١ ، بعد أن استجابت رغبة الشعب فى تطبيق الشريعة ، وكان النص الذى تمت عليه الموافقة هو : الشريعة الاسلامية المصدر الاساسى للقانون ، وجرى تعديل طفيف باستبدال المصدر الاساسى بكلمة مصدر أساسى ، ثم عادت مصر الى الأصل •

وهكذا أخذت الشريعة الاسلامية تستعيد مكانها الاصيل حثيثا ، وظهر تحرك واسع فى انحاء البلاد العربية نحو العودة الى تطبيق الشريعة الاسلامية وفقهها ، وشعور بالتفريط السابق ، وبوجوب الرجوع الى الخط الاسلامى الذى يحمى المسلمون من تألب الدول عليهم •

ويقول الدكتور مصطفى الزرقا : وقد زاد هذا الشعور بعد كارثة ١٩٦٧ التى انهزمت فيها الدول العربية أمام اسرائيل • وقد تألفت فى مصر لجان غير رسمية فى مجمع البحوث الاسلامية فى الازهر من فقهاء المذاهب ورجال القانون لتقنين الفقه الاسلامى من كل مذهب على حدة ، تمهيدا لصياغة قانون مستمد من مجموع هذه المذاهب ، وقد اتجه التغيير فى ليبيا الى الاستمداد من الشريعة الاسلامية وفقهها فى جباية الزكاة ، وفى اعلان بعض الحدود من العقوبات الاسلامية •

وفى المملكة الاردنية جرى وضع مشروع قانون مدنى مستمد من الفقه

الاسلامى بمعناه العام ، كما جرى بحث توحيد التشريع فى البلاد العربية على أساس الشريعة الاسلامية ، وقد أشارت أبحاث عديدة فى هذا الصدد الى أن الجماهير المسلمة كانت دائما قائدة لمسيرة الاتجاه نحو الشريعة ، والعمل بها ، فضلا عما يوجد فى مبادىء الشريعة من عمل وفى ونظام أدق ·
وقد أدخلت الى القانون المدنى من أحكام الشريعة عدة مواد أهمها :

١ ــ أحكام أهلية القاصر والمجنون والسفيه وذى الغفلة ·
٢ ــ أحكام نظرية التعسف فى استعمال الحق ·
٣ ــ مبدأ الحوادث الطارئة ·
٤ ــ حوالة الدين والابراء منه ·
٥ ــ أحكام مجلس العقد وخيار الرؤية فى البيع ·
٦ ــ مبدأ الغبن فى بيع القاصر وبيع المريض : مرض الموت ·
٧ ــ ايجار الاراضى الزراعية وأيجار الوقف والحكر ·
٨ ــ غرس الاشجار فى الارض المؤجرة ·
٩ ــ فسخ الاجارة بالعذر والشفعة ·
١٠ ــ أحكام العلو والسفل والحائط المشترك ·

ومع ذلك فان القانون الوضعى فيه تخلف كبير عن الشريعة الاسلامية فى احكامها ، وفيه نقص عنها ومخالفة لها ·

* * *

ان من أبرز عيوب القانون الوضعى السائد الآن فى العالم الاسلامى كله ، أنه لا يستوآعب فكرة تحرير الانسان ورفعه عن الماديات والاهواء على النحو الذى قصدت اليه الشريعة الاسلامية ، من أجل ذلك تجد أن هناك بنودا كثيرة تخالف الشريعة الاسلامية وتترك فجوات واسعة دون احكام ، وخاصة موقف القانون الوضعى من السرقة والقذف والزنا

والسكر وبيع الخمر وترويجها والحرابة والقتل والربا وأكله والتعامل معه والردة

والقوانين الوضعية حين تقدم الأحكام فى هذه المواد فانها تجىء عاجزة عن تحقيق أمن المجتمع وسلامة الفرد ، بذلك تتعارض مع غاية الشريعة الاسلامية ، وقد أجاز القانون المدنى الحالى آمرين يخالفان أحكام الشريعة الاسلامية مخالفة صارخة :

أولهما : أجاز تقاضى فوائد ربوية فى الديون المدنية والتجارة بحد أقصى هو سبعة فى المائة • والربا فى مفهوم الاسلام : هو أبشع أنواع استغلال الانسان لاخيه الانسان ، وقد حرم الله الربا بنصوص قطعية كما حرم كل أنواع المقامرة (الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) البقرة : ٢٧٥ •

ثانيهما : أنه أجاز بعض أيواع المقامرة

أما فى القانون الجنائى فان هناك فجوات واسعة تتيح الفرصة لاكبر افساد اجتماعى للاسرة والعرض ، فان القوانين الحاضرة تقضى بعدم توقيع العقوبة على الزانية اذا كانت سنها ثمانية عشرة سنة فصاعدا اذا حدثت الجريمة برضاها وكانت غير متزوجة ، أو كانت متزوجة ولم يرفع زوجها الدعوى عليها أو قام بالاجراءات ثم أوقفها •

وتقضى هذه القوانين كذلك ، أنه لا توقع عقوبة على الزانى اذا زنى بأمرأة غير متزوجة برضاها ، وكانت سنها ١٨ سنة فصاعدا ، أو زنى بامرأة متزوجة ولم يرفع زوجها الدعوى •

كذلك لا توقع عقوبة على الزانى المتزوج فى الحالات السابق ذكرها اذا ارتكب جريمته فى غير منزل الزوجية ، أو ارتكبها فى منزل الزوجية ولم ترفع زوجته الدعوى عليه •

وتقضى هــذه القوانين كذلك أنه لا توقع عقوبة على هاتك العرض اذا كان من هتك عرضــه ذكرا أو أنثى قد بلغ ثمــانى عشرة سنة ووقعت الجريمة برضــاه ، ويقصد بهتك العرض مــا يقع بين الذكر والذكر من أعمــال الشذوذ الجنسى ومــا دون المواقعة من الاعمــال الجنسية التى تقع بين الذكر والانثى •

هــذه الحالات التى يعفى فيهــا الزانى والزانية وهاتك العرض من العقوبة بحسب القــانون الوضعى تشتمل فى الواقع على معظم الحــالات التى تحدث فيهــا هذه الجرائم • فقانون العقوبات المصرى قــد أعفى اذن من العقوبة جرائم الزنا وهتك العرض والشذوذ الجنسى •

وهذه المواد مقتبسة من قانون العقوبات الفرنسى ، وعن هــذا القانون استخدمت معظم القوانين الأوربية و الأمريكية •

وقد وضــعت هذه المواد فى القوانين التى صــدرت فى مصر والبلاد العربية إبان الاحتلال ، وقصــد بها فتح الباب واســعا أمام افســاد المجتمعات الاســلامية استهدف بهــا الاستعمار القضــاء على مقومــات المجتمع ، وتغيير العرف الاســلامى القائم على القيم الاخلاقية المســتمدة من الدين ، وقد نقلت أســاسا من القوانين الغربية التى وضعت لمجتمع غير مجتمعنا ، ولعرف غير عرفنــا ، وفى ظل ظروف تختلف تماما ، فالمجتمــع الاســلامى يقدس العرض ، ويكرم العلاقة بين الرجل والمرأة ويضعها فى أعلى مكــان ، ومن المسلم به أن القانون فى أمة من الامم ، انمــا يســتمد مواده من قيم المجتمع وأخلاقياته وعاداته وأعرافه ، ولما كانت هــذه القيم والاعراف فى المجتمع العربى والاســلامى غاية فى الرعاية للفضــيلة فان هذه المواد تشــكل تعارضا شديدا مع هذه القيم •

والمعروف أن الاستعمار عندما أقر هــذه القوانين • كان يســتهدف أن تكون هــذه البلاد مشاعا لكل الامم ، وكانت الانظمة والقوانين توضــع بهدف اســتغلال هــذه البلاد لفائدة الاغيار ، ومن هنا كانت الحمــاية

القانونية التى تتمتع بهـــا الحانات وبيوت الدعارة ، مما لا نظير له فى البلاد العريقة فى الإباحيه والفوضى ، كل ذلك وليد ســياسة الاســتعمار التى ترمى الى هــدم القيم الاسلامية بحصانة القانون .

ولا ريب أن عقوبات الشريعة الاسلامية فى هذا المجال وغيره عقوبات زاجرة رادعة ، بينما عقوبات القوانين الوضـــعية ، هى أقرب الى الإغراء بالمعاصى ، والتســاهل فى غشــيان الفواحش والآثام منهــا الى الزجر والـــردع .

ولا ريب أن مقصـــد الشريعة الاســـلامية من إقامة الحدود واضح . وهو حمـــاية الاعراض والانســـاب وصيانة العقول والاموال ، وقد ثبت عجز القوانين الضـــعية عن اصلاح المجتمعات .

ولا ريب أن شـــوع الزنا والفاحشـــة وشرب الخمور وتفشى سرقة الاموال ، هى نتيجة ضـــعف العقوبات فى القوانين الوضـــعية ، ونتيجة أنها ليست زاجرة ولا رادعة .

وليس صحيحا مـــا يقال من أن تنفيذ الحدود يخلق فى المجتمعـــات الانسانية مجتمعات تسودها القسوة والإذلال ، وشيوع العاهات ، قد أحاط الشـــارع هذه الحدود بشرط وتحوطات جعل تنفيذها يتم فى حدود ضيقة . ولقد كانت المجتمعات الاســـلامية ابان تنفيذ الحدود ، تمر بهـــا الاعوام والاعوام دون أن يرجـــم أحد أو يجلد أو تقطع يده لان العقوبة الرادعة تحول دون وقوع الجريمة .

* * *

لقد تنبه علماء القانون الغربيون الى عظمة الشريعة الاسلامية ووفائها بحاجات المجتمعـــات منذ وقت بعيد ، وتوالت كتاباتهم وتعالت صيحاتهم فى نفس الوقت الذى كانت فيه البلاد الاســـلامية مقيدة بسلاسل القوانين الوضعية ، لا تســـتطيع منها فكاكا ، ويكفى أن أعترف بالشريعة الاسلامية

كمصدر عالمى للتشريع والقـــانون عدد من المؤتمرات التى عقدت منذ عام ١٩٣٢ الى اليوم :

* القانون المقارن الدولى فى لاهاى عام ١٩٣٢ ٠
* مؤتمر لاهاى المنعقد فى عام ١٩٣٧ ٠
* مؤتمر القانون المقارن فى لاهاى سنة ١٩٣٨ ٠
* المؤتمر الدولى عام ١٩٤٥ فى واشنطن ٠
* شـــعبة الحقوق بالمجتمع الدولى للقانون المقارن ١٩٥١ بباريس ٠

وقد صدرت عن هذه المؤتمرات قرارات متعددة :

١ ــ اعتبار التشريع الاســـلامى مصدرا رابعا لمقارنة الشرائع ٠

٢ ــ الشريعة الاســـلامية شريعة مســـتقلة ، وصالحة لمجـــاراة التطور الحديث ٠

٣ ــ الشريعة الاسلامية قائمة بذاتها لا تمت الى القـــانون الرومانى أو الى شريعة أخرى ٠

٤ ــ صلاحية الفقه الاسلامى لجميع الازمنة والامكنة ٠

٥ ــ تمثيل الشريعة الاسلامية فى القضـــاء الدولى ومحكمة العدل الدوليـــة ٠

ومنذ وقت بعيد أشـــار علماء القانون الى سماحة الشريعة الاسلامية واتساعها وأثارها البعيـــدة على السلام والعدل العالميين ، وهـــذه عبـــارة الاستاذ « لامبير » الفقيه الفرنسى المعروف ، فى المؤتمر الدولى للقانون المقارن فى لاهاى عام ١٩٣٢ ، حين أشـــار الى ظاهرة التقدير الكبير للشريعة الاسلامية الذى بدأ يســـود بين فقهاء أوربا وأمريكا فى العصر الحـــاضر ثم قال : ولكنى لا أرجع الى الشريعة نفسهـــا لأثبت صحة مـــا أقول ، ففى هذه الشريعة عناصر لو تولتهـــا يد الصياغة فأحسنت صياغتها ، لصنعت

منهـــا نظريات ومبادىء لا تقل فى الرقى والشـــمول وفى مســـايرة التطور عن أخطر النظريات الفقهية التى تتلقاها عن الفقـــه الغربى اليوم ، وفى مقدمة هـــذا :

١ — نظرية التعسف فى استعمال الحق .

٢ — نظرية الظروف الطارئة .

٣ — نظرية تحمل التبعة .

٤ — مسؤلية عدم التمييز .

فان لكل نظرية من هـــذه النظريات أساســـا من الشريعة الاسلامية لا تحتاج الا الى الصياغة والبناء .

*** * ***

واليوم والامة الاسلامية العربية تتجه نحو العودة الى تطبيق الشريعة الاسلامية ، نجد أن هناك محـــاولات تبذل للحيلولة دون ســـلامة هـــذه العودة ، بآراء تتحدث عن أســـلوب يرمى الى تعديل القـــانون الوضعى القائم ، والرأى الاصـــواب هو (إنشـــاء قانون اسلامى أصـــيل) ، فى متابعة ومصـــادره ومواده ، ذلك لان القـــانون الوضـــعى لا يصلح أصلا لمشروع تشريع اســـلامى ، لان مصطلحات القانون الوضـــعى تختلف فى معـــاينها عن مصطلحات الشريعة الاسلامية ، ذلك أن القـــانون الاجنبى صـــادر عن عرف خاص وبيئة خاصـــة وفلسفة خاصة يختلفان كثيرا أو قليلا عن الروح الاســـلامية ومن ثم فان إقرار مـــا يبدو منه فى ظاهره متفقا مع الشريعة الاسلامية يجر حكما خاضعا للروح الغربية التى صـــدر عنها القانون الوضـــعى . كذلك فان القانون الوضـــعى يعبر عن قيم اخلاقية معينة ســـادت فى المجتمع الغربى فى عصر من العصور .

أما القـــول بتنقية القوانين الموجودة بمـــا فيها من أحكام متعارضة مع أحكام الشريعة فهو رأى تغريبى ، فالقوانين الوضـــعية لا تجدى معنا

تنقية لانعدام الصـلة بينها وبين الشريعة الاسـلامية حتى فى الأحكـام التى تبدو أنهـا تتفق مع أحكـام الشريعة ، ومحاولة تنقيتها ممـا يكون فيهـا من أحكام متعارضة مع أحكـام الشريعة خطوة خطيرة ٠ وهى فى الحقيقية محاولة إسـباغ الشريعة على باقى الاحكام والاغراق فى الوهم بالتماثل والتشابه بينها وبين الشريعة مع اختلاف نسيج هـذه عن نسيج تلك اختلافـا واضـحا مبينـا ، كذلك فـان القوانين الوضعيـة المسـماة باسم الشريعة قد يرسخ فى الاذهان بعد مدة أنهـا أحكام شرعية بالرغم من البعد بينهما بعد المشرقين ٠

لذلك فان الضرورة تقضى ، بأن يكون الفقه الاسـلامى فى منطقـه وصياغته وأسلوبه فقها اسلاميا خالصا ، لا مجرد محاكاة للقوانين الغربية ، ومن ثم فان القوانين الوضعيـة لا تصـلح أساسا لتقنين شرعى ، فهى لا تجدى معهـا تنقية ، ولا يصـلحها ترقيع ، ولابد من وجـود قوانين اسـلامية لحما ودما نابعة من واقع الشريعة الغراء ، ولذلك فنحن نرحب بمجموعة القوانين الاسلامية التى أعـدها المستشار على على منصـور لدولة الامـارات العربية المتحدة ، والتى نأمل أن ترى النور فى القريب ان شـاء الله ٠

الفصـــل التاســـع

من علمانية التعليم الى اسلامية التعليم

ان احتواء التعليم فى اطـــار التغريب قد حقق مجموعة من الاهداف فى وقت واحد :

أولا : القضـــاء على « الذاتية الاســـلامية » المتســـمة بأخلاقهـــا وايمانها بالله وصـــدق الوجهة ، فى التعرف على الحقيقة الاساسية ، وهى : ان الله تبارك وتعالى هو الخالق ومن وراء كل معطيات الحضـــارة ، وليست القوانين الجبرية التى يدعى أنها تحكم مسار الكن دون تغيير .

ثانيا : القضـــاء على « الفصـــاحة العربية » التى أوجدتها منابـــع البلاغة العربية ممثلـــة فى القرآن الكريم والســـنة النبوية وذلك بعد أن استطاعت وســـائل التعليم الحـــديث أن تقطع الشباب المســـلم عن تراثه جميعـــــه .

ثالثا : القضـــاء على « الاحساس بعظمة العطاء الذى قدمته الامة الاســـلامية » للبشرية حين قدمت اليها منهج الحضارة الذى حرر الانسان من عبودية الانسان وحرر العقل البشرى من العبودية للوثنيات والخرافات والاســـاطير وأعظمهم هذه المعطيات انشـــاء المنهج التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الغربية المعاصرة .

رابعا : القضـــاء على تمثل « الدور التاريخى الذى قام به الاسلام » حين نشر عقيدة التوحيد فى العالمين ، فأخرج هـــذا العالم من ظلمات الوثنية والاباحية والرهبانية الى مفهوم الحرية والكرامة والعمل والســـعى فى الارض .

ومـــا كان لابطال الاسلام من دور فى تقديم الاســـلام للبشرية ، وحمله الى أقصى الارض بروح الايمان واليقين والصدق والجهاد فى سبيل اعلاء كلمة الله .

لقد استطاع احتواء المناهج التعليمية الوافدة القائمة على النظرية المـادية ،المنكرة للدين الاخلاق وبنـاء الفرد على القيم والمثل ، هـذا الاحتواء للمدرسـة الاسلامية بفرض مناهج الغرب ، كان له أبعد الاثر فى تدمير الشخصية الاسلامية الناشئة وحرمانها من التعرف على حقيقتها ودورها وهدفها .

وفى هـذا يقول مسـتر نيروز أحد رؤسـاء الجامعة الامريكية فى بيروت : « لقد برهن التعليم على أنه أثمن الرسائل التى استطاع الميشرون أن يلجأوا اليهـا ، فى سعيهم لتنصير سـوريا ولبنان ، أن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقى مقدس أمرا صعبا جدا » .

وما يتحدث عنه المبشر الامريكى ليس قاصرا على سوريا ولبنان ولكنه منبث فى أنحـاء العالم الاسلامى من أرخبيل الملايو والجزيرة الهندية الى تركيا الى مصر الى شـمال افريقيا الى الجزائر والمغرب .

فان خطة السيطرة على المناهج التعليمية التى قام بها النفوذ الاجنبى (وورثهـا لمن جاء به من حكومات وقيادات نشأت فى اطار الايمان بالغرب والاعجاب به والتسـليم له) قد شـملت مختلف الميادين من السلوك الفردى الآداب الاجتماعية الى الآداب والفنون .

وقد تحولت الاسـاليبمن التبشير المباشر الى التبشير الخفى الذى يتصـل بالثقافة والصـحافة حيث يقوم الكتاب التغريبيون بأداء دور خطير فى تحويل الاهداف الماسونية الى حقائق مطبقة .

وقد أسـهمت المنظمات الدولية فى هـذا المجال بما فى ذلك الامم المتحدة ، واليونسكو ، والتربية الاسـاسية على وجه الخصـوص ، التى تعتبر امتدادا لمخططات ترمى الى فصـل الدين عن الدولة ، وتخريج شباب متميع منهزم خاضع للاهواء والشهوات .

وقد استعانت على ذلك بالمسرح والسـينما والاذاعة والتلفاز ، بمـا

يحيط بالعقل والقلب من كل أقطاره ، ويسيطر على ويفرض عليه سمومه ، وبذلك استطاع النفوذ الاجنبى المستخفى اليوم وراء هذه المنظمات والمؤسسات تطويع برامجنا التعليمية لكثير من أهدافه وأغراضه .

ولم تستطع الدول المحتلة — بعد لااستقلال — أن تحرر ارادتها أو تحقق وجهتها فى التماس أسلوب التربية الاسلامية ذلك لان النفوذ الاجنبى قد أسلم قيادة الثقافة والصحافة والتعليم فى أغلب بلاد الاسلام الى مجموعة من أهل الولاء للغرب — بشقيه : الشيوعى والرأسمالى — فهم مستغربون أكثر من الغربيين أنفسهم وهم يقدمون سمومهم تحت اسم التجديد والعصرية والتقدمية .

مواجهة التخطيط :

ومن أجل هذا الخطر فقد أوصت مؤتمرات عديدة ، عقدت فى السنوات الاخيرة ، لدراسة هذه التحديات بانشاء هيئة علمية على مستوى العالم الاسلامى، تعمل على التحرر من الاستعمار الفكرى والثقافى وصياغة المناهج التعليمية وفقا للعقيدة الاسلامية .

ولا ريب أن هناك ثلاث تحديات خطيرة تواجه الامة الاسلامية فى هذا المجال :

أولا : منهج علمانى قومى فى البلاد .

ثانيا : الارساليات المفتوحة فى البلاد العربية تلتقط أبناء المسلمين .

ثالثا : شبابنا المسافر فى بعثات الى الغرب .

أما المنهج العلمانى القومى : فانه ميراث قديم تشكل ابان الاحتلال الاجنبى للبلاد الاسلامية ثم لم تتمكن هذه البلاد بعد استقلالها من التحرر منه ، وقد قام أولا :

على الاقتباس من مناهج الارساليات ومدارس التبشير ، التى كانت

قد شكلت منهجها على أساس اخراج شباب المسلمين من دينهم ، ثم جـاء المبشرون الفرنسيون والانجليز والهولنديون ،فسـيطروا على منـاهج التعليم الاسلامية التى كانت مبثوثة فى المدارس القومية فأزالوا منها كل ما يتصـل بالدين والاخلاق والتاريخ وعظمة الاسلام والامة الاسـلامية واللغة العربية ».

وفى بعض البلاد أعدمت هذه الكتب السابقة لعهود الاستعمار حتى لا يبقى لها أى أثر فى دور الكتب القديمة كتراث يمكن الرجوع اليـه أو التعرف على وجهة هذه المنـاهج أو يقيم مقارنة بينهـا وبين مـا صنعه الاسـتعمار •

وقداعتمدت المدرسـة الوطنية بعد الاحتلال على مناهج الارساليات مع تعديلات يسيرة ثم جـاءت موجة (مذهب ديوى) وتشكلت معـاهد التربية التى فرضت على المعلمين أن يتخرجوا منه ، فاندلعت تلك الفكرة المسمومة الخبيثة فى مجـالات التعليم فى العالم الاسـلامى وهى حجب الاسـلام أو مفهوم الدين والاخلاق عن هذه المناهج •

ويبقى الخطر الثالث قائما : وهو المتمثل فى أبنائنا الذين تتلقفهـم مؤسسات التبشير والاستشراق فى عواصم العالم الغربى لتشكلهم كمـا تشـاء ، حتى يكونوا على ولاء لاهدافهـا وهم يتابعون بعد عودتهـم بالمناصب والمؤتمرات والجوائز والنياشين ويردون عنهم أى خطر يتهددهم حتى يحققوا أهداف التغريب فى مجال التعليم على النحو المنشود •

حقيقة المنهـاج التغريبى :

أمـا المنهج الغربى الذى أعتمدته المنـاهج المدرسـية ، فهو شىء مختلف تماما عن منهج الاسـلام فى التربية وفى الحياة ، فالتعليم الغربى يحمل روحا مسـتقلة ، ويعبر عن أفكـار أهل الغرب ومجموع أقدارهم وقيمهم ، فاذا طبق فى بلاد مسلمة أو مجتمع اسـلامى فانه يحدث صراعا

عقليـــا يتدرج ثم يتدرج الى تدمير العقيـــدة والى خلـــق الردة الفكرية والدينية .

يقـــول الاستاذ محمد أســـد (المعروف باسم ليوبولد فابس) : ان الاسلام والمدينة الغربية يقومان على فكرتين فى الحياة متناقضتين تماما ، لا يمكن أن يتفقا ، فاذا كان ذلك كذلك ، فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئةأحداث المســـلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة فى مجموعها على التجـــارب الثقافية الاربية ، على مقتضياتها ، خالصة من شائب النفوذ المعـــادى للاســـلام .

ان التنشـــئة الغربية لاحداث المسلمين ستقضى حتمـــا الى زعزعة ارادتهم فى أن يعتقـــدوا ، أو أن ينظروا الى أنفســـهم على أنهم ممثلوا الحضارة الربانية الخاصـــة التى جاء بهـــا الاسلام ، وليس ثمة من ريب فى أن العقيدة الدينية اخذة فى الاضـــمحلال بسرعة بين المتنورين الذين نشأوا على أسس غربية .

وقد أشـــار أحد الباحثين الى أنه بمراجعـــة المناهج التى تدرس للمســـلم فى المدارس الاعدادية والثانوية نجد الآتى :

أوربا (٣٧٠ صفحة) .

الحضارة الاســـلامية ٢٥ صفحة .

الثورة الفرنسية ٣٥ صفحة .

الدعوة الاسلامية ٢٣ صفحة .

نابليون ١٦ صفحة .

عمر بن عبد العزيز صفحة واحدة .

فاذا ذهبت تبحث عن مضمون الحضـــارة الاسلامية ، وجدتها كلها تنصب على القول بأن المســـلمين آخذوا فكر أرسطـــو وأفلاطون ، وأنه

مصــدر فكرهم الاســلامى ، وأن المعتزلة والفلاســفة هم الذين أنشأوا الحضــارة الاسلامية ، وان هــذة الحضارة لم تلبث أن انهزمت عندمــا ســقط المعتزلة وجــاء أمثال الغزالى وابن تيمية •

هذا مــا يقال عن فكرنا وحضــارتنا ويتعلمه أبنائنا على صــورة جماعة من المغامرين المندفعين الى الصراع والقتل والتآمر •

« وقد أدرك أعداء الاســلام أن النظام التعليمى والتربوى له أثره الفعال فى توجيه حاضر الشــعوب الاسلامية ومستقبلها نحو المصــير • نجد ذلك فى مؤتمرات اليهود فى بازل عام ١٨٩٧ ،حين أكد حكماء صهيون أن أفضــل طريقة لتحقيق سيطرتهم على الشــعوب الاخرى هو التأثير على النظام التعليمى والتربوى بتدريس الناشئة التاريخ القديم ، المشتمل على المثل السيئة أكثر من اشتماله على المثل الحسنة ، وعلى ضرورة طمس العصور المضية فى ذاكرة النشء الجديد التى قد تكون معارضة لمخططات اليهود وأمانيهم فى تحقيق السيطرة على العالم •

وليس اليهود فقط هم الطامعون فى تزييف أهداف التعليم الاسلامى ، وانما يشترك فى ذلك النفوذ الغربى القائم على مفهوم التبشير والتنصير والاستشراق الذى يطمع دائما فى تصوير الاسلام على أنه دين عبادى وليس دينا ودولة •

ويجرى مغالطته على محــاولة تزييف منهج الاسلام الاجتمــاعى والسياسى وذلك بــاقامة القانون الوضعى بديلا للشريعة الاسلاميــة واقامة منهج الربا فى الاقتصاد الاسلامى ، ومنهج التعليم العلمانى بديلا عن التعليم الاسلامى •

وقــد جاءت موجة الغزو الماركسى لتحمل معها مفاهيم مســمومة للثقافة والتعليم ترمى الى تفسير يقوم عــلى المقاييس المادية ومحاولة القول بأن الفتح الاسلامى كان بهدف البحث عن الطعام •

أهداف التزييف :

وهكذا تتكاثف القوى الغاضبة على تزييف منـاهج التعليم والتربية والثقافة فى العالم الاسلامى ، وذلك كله انما يهدف الى تخريج شباب غير مؤمن بوطنه أو دينه أو تاريخ وقيم وأمجاد أمته ٠

وقـد احتقر هذا الوجود والتاريخ كلـه ، بينما عرف عن الغرب وأبطاله ومواقعه وخاصة الثورة الفرنسـية أكثر مما يعرف عن الدعـوة الاسلامية وعن نابليون أكثر مما يعرف عن خالد ابن الوليد ٠٠

وما تزال كتب التـاريخ المقررة فى مدارسنا تحوى كثيرا من هـذه السموم حيث تركز على المواقع التى تتعرض للخلافات والخصـومات والحركات المضادة للاسلام ، مع أن هذه الصفحات كلها لا تصل الى جزء من معطيات الاسلام وايجابياته وحضارته وثمراته الباذخة ، ولكنها محاولة لتصوير التاريخ الاسلامى بصورة سوداء قاتمة فى نفوس الشباب المسلم ، وكيف لا ؟ اذا كان الذين يدرسون له هذه المادة ماركسيون أو ذوو ولاء فرنسى أو بريطانى أو يهودى أو كانوا هم فى ذاتهم غير مسلمين ٠

مغالطات ومفارقات :

وفى دراسة الجغرافيا تجد أن ما كتب عن الولايات المتحدة متضاعف عن مجموع بلاد الوطن الاسلامى ٠

ويمتد هذا المخطط الهدام الى مجالات الكيمياء والفزياء والرياضيات فلا ذكر فى هذه الدراسات للدور الهام والخطير الذى قام به المسـلمون منشئو المنهج العلمى التجريبى ، وانما يبدأ البحث من المرحلة التى تولاها الغربيون وتبدو المسألة غاية فى الصعوبة والغرابة حين يكون معروفا للعالم كله و اعتراف المنصفين من كتاب الغـرب فى العصر الحديث (درابر — هونكة — جوستان لوبون ٠٠٠ الخ) ان علم الفيزياء انما أوجده المسلمون ، فالحسن بن الهيثم هو واضع علم البصريات ، وكثير من مكتشفاته لم يضف اليها العلم الحديث أى شىء ٠

وفى المناهج الاخرى عن الرياضيات والفلك والتقدم العلمى لا يذكر مطلقا اية منجزات للحضارة الاسلامية مما سبقت فيه الغرب بقرون ٠

ولا يذكر مثلا أن (ابن النفيس) هــو الذى اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل ولادة (وليم هارفى) الذى يقترن اسمه باكتشافها بثلاثة قــرون ٠

ولا يعلم الطالب المسلم أن (الرازى) هو الذى أجرى أدق العمليات الجراحية للعيون بأدوات جراحية دقيقة تثير الدهشة والاعجاب ٠

ولا يوضح أن ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والنحل » قــد اثبت كروية الارض بدلائل من الكتاب والسنة قبل تسعة قرون ٠

ولا يدرس طلبة الجغرافيا أن قطر الارض ومحيطها قد قيسا على عهد المأمون على أيدى محمد وأحمد إبنى موسى بن شاكر ٠

هذا جزء يسير مما حاول خصوم العرب والمسلمين طمسه ، بتزييف مناهج التعليم فى المدارس الوطنية مما لا يزال كثير منه قائما الى الان فى الكتب ، وذلك فى محاولة لتفريغ عقــول الناشئة من أمجاد أمتهم ، وحتى يؤمنوا بأن الغرب هو الذى صنع هذه العلوم ٠

ومن هنا يتكشف للباحث المتعمق أن : القول بدراسة الدين فى المدارس وحتى الجامعات هو انجاز هام ، فان حركة اليقظة الاسلامية تتطلع الى أن يصبغ الاسلام كل ما تقدمه المناهج من المدرسة الابتدائية الى أرقى درجات التعليم الجامعى ، وانه لا يمكن فصل الاسلام عن دراسات : (١) اللغــة (٢) التاريخ والجغرافيا (٣) العلوم والتكنولوجيا (٤) علوم الاجتماع والنفس والاخلاق والاقتصاد والسياسة والتربية ٠

وأنه فضلا عن دور المناهج الوافدة فى عزل دور المسلمين الايجابى والاساسى فى بناء هذه المناهج ، فانها تصوغ الفكرة فى أغلب هذه الدراسات

على عزل روح الاسلام ، ووفق مفهوم الفلسفة المادية التى تقوم عــلى المحسوسات والطبيعة ، وليس فيها روح الايمان بالله خالق كل شىء والنائم على نواميس الكون وسننه ، والقادر على تحويلها كذلك ، أما فى علوم النفس والأخلاق والاجتماع والنقد الأدبى ، فان نوع الانســان يدرس على أنه حيوان يضطرم بشهوتى البطن (الماركسية) والجنس (الفرويدية) وهما اللذان يتحكمان فى كل تصرفاته ، فردا وجماعة سلما وحربا وتقدما وهزيمة .

بينما نرى المفهوم الاسلامى يختلف عن ذلك اختلافا كبيرا ، ويجعل للروحيات والمعنويات وللعقيدة الدينية والأخلاق آثــار كبيرة فى تفسير الأحداث والوقائع وتحولات المجتمعات وهزيمة الامم وسقوط الحضارات .

وفى مجال العلوم الاجتماعية : يجرى المنهج الذى تدرسه جامعاتنا ومدارسنا على مفهوم غربى خاطىء بالنسبة لعقيدتنا وقيمنا ، وان كــان مقبولا فى الغرب ، وهو أن المجتمع ظاهرة متطورة يصنع مبادئه بنفسه ولا يأخذها من الله تبارك وتعالى ، وعلى هذا الاساس تكون الاخلاق من صنع المجتمع غير مفروضة عليه ، ولا يكون لها مفهوم روحى ، ويكون عمل عالم الاجتماع أن يسجل الواقع المتطور للمجتمع ، وقد تقدم لهذا المجتمع قواعد للسلوك مستمدة ، من القواعد التى يمنحها العلم .

ووفق هذا الاتجاه فليس من المنطق العلمى أن يقال : ان الــواقع صحيح أو خطأ أو صالح أو سىء .

كما يصبح (الدين) مجرد ظاهرة من ظواهر المجتمع ، تملأ فراغا فى نفس الفرد ، وهو قابل للتطور مع التطور الاجتماعى ومع متطلبات العقل البشرى .

هذا المفهوم المادى كله مضاد لمفهوم الاسلام فى علم الاجتمــاع ، الذى يقوم على أساس المفهوم القرانى للانسان وعلاقته بالآخرين ، وعلى أساس النظر الى السلوك نظرة واقعية يفرق فيها بين الصحيح والخاطىء وعلى أن يوجه المجتمع الى الطريق الصحيح .

والمعروف أن الاخلاق فى الاسلام جزءٌ من بنائه لها ثباتها وليست من صنع المجتمع ، ولذلك فهى لا تتطور وهى أمر من أمر الله وليست ظاهرة تتغير بتغير الزمان أو المكان •

وفى المفهوم الاسلامى لعلم الاجتماع لا يمكن فصل التطور الاجتماعى عن المسئولية الاخلاقية ، والفرد فى الاسلام لا يخضع لاوضاع المجتمع اذا انحرفت ولكن عليه أن يغير هذا الواقع بالتماس مفهوم الاسـلام الصحيح •

وفى دراسة العلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ : يجب أن تكـون روح القرآن واضحة على أساس أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق والصانع وان الكون فى قبضته تبارك وتعالى ، وأن الحياة فى هذه المجتمعات يجب أن تقوم على أمره ، وان يسعى الانسان فى الكون لاقامة المجتمع الربانى ، وان يلتزم بالمسئولية الفردية والاجتماعية والاخلاقية التى تقرر الجـزاء الاخروى والبعث والحساب بعد الموت •

ولابد أن تقوم دراسـات الحضارة والتاريخ على : أن لله تبارك وتعالى سننا لا تتغير ، وان لحياة الامم وتقدمها وكبوتها قانونا حاسما ، وان كل أمة تغرق فى الترف والتحلل وتغفل عن المرابطة والقيام على حدود الله ، بالاعداد والتأهب للجهاد ومدافعة الاعداء لابد أن تعاقب بالسقوط والهزيمـة •

ولابد أن تتجه العلوم الطبيعية لتكون أداة لاثبات قدرة الله وتوحيده وهو عكس ما نراه اليوم مطبقا فى مناهج التعليم •

منهج العقيـدة :

وليس ارتباط مناهج التعليم بعقيدة الامة ونظرتهـا العامة بالامر المستغرب ، أو أنه مطلب جديد ، بل هو ما تفعله كل أمة •

فاليابـــان البوذية والهند البرهمية وروســـيا الشيوعية واسرائيل الصهيونية ، وكل أمـــة قد جعلت التعليم والثقافة مصطبغان بصبغتهـــا الحضارية وفلسفتها العقائدية فلماذا بعد المسلمون وحدهم عن عقيدتهم ، ولماذا هم الخاضعون للمناهج الوافدة ماركسية أو غربية ، وهم يملكون أعظم المناهج وأرقاها وأصلحها لسعادة البشرية .

ففى روسيـــا :

لم تأخذ بمبدأ التعليم والتربية من حيث هو مبدأ انسانى عالمى ، ولم يسمح باستيراد منهج من مناهج التعليم من خارج المعسكر الشيوعى ، ولا بادخال العلوم والآداب التى نشأت فى حضانة الليبراليين أو الرأسماليين . خوفا من أن تضعف مفاهيمهم ونزعاتهم العقيدة الشيوعية أو تشكك فيها .

لقد أخضعت روسيا جميع العلوم والآداب النظرية فيها والتطبيقية ، حتى علوم الطبيعة والجغرافيا والتـــاريخ لمبادئها الشيوعية ولنظريـــات قادتها ومؤسسى دعوتها (ماركس ، وانجلز ولينين) وربطت بين هـــذه العلوم وبين أسس أولئك القادة رباطا وثيقا مقدسا ، على حد عبارة الكاتب الذى نقلنا عنه هذا النص — فهى تغار عليه غيرة المؤمنين القدامى عـــلى عقائدهم وحرماتهم يقول « جورفين » العالم الطبيعى السوفيتى :

« ان العلم الروسى ليس قسما من أقسام العلم العالمى ، أنه قسم منفصل قائم بذاته يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف فان سمة العلم السوفيتى الاساسية أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة .. ان التحقيقات العلمية لا تزال فى حاجة الى أساس وان اساس علومنا الطبيعية : « الفلسفة المادية » التى قدمها ماركس وانجلز ولينين وستالين . أننا نريد أن نخوض وفى أيدينا هذه الفلسفة فى معترك العلم الطبيعى ونصارع جميع التصورات الاجنبية التى تناهض فلسفتنا المادية والماركسية بكل حزم وقوة .

وبذلك استطاعت المناهج التربوية والتعليمية الروسية أن توفق بين

العلوم التى احتاجت اليها والمبادىء التى آمنت بها ، وجعلت منها وحدة متناسقة ولم تترك فجوة بين الحياة التى تعيشـــها أو تسعى اليهـــا وبين المبادىء التى تؤمن بها ، وتدعو اليها فى حماسة فسلمت من الاضـــطراب الفكرى الذى يسود فى عالم تتوزعـــه القوى المتناقضة ويسوده النفـــاق والتناقض .

وكذلك اسرائيل بعد الاتحاد السوفيتى تقيم منهج التعليم من أصل دعم نظرية الصهيونية ، وتقوم على أساس احياء لغة ماتت منذ ألف سنة تقريبا فى كافة المواد ، والعناية بالدراســـة الدينية — لاثبات البـــاطل فى العقل الباطن — ورغم اختلاف الاحزاب فهى تلتقى جميعهـــا فى الفكـــرة الاساسية ، ويرى بعضهم أن التقاليد اليهودية هى النبراس الذى ينبغى أن تستهدى به نظم التعليم وتحتم بعضها على المعلمين أن يحرصوا عـــلى التقاليد اليهودية حتى صدقهم العالم رغم خرافة المنهج .

وبعد : أليس من الاهداف الهامة أن يكون التعليم فى جميع العلوم باللغة العربية ، وهناك تجربة صادقة منذ سنوات طويلة فى احدى الجامعات العربية (فى سوريا) ، فعلى الجامعات العربية أن تنطلق من هذا البدء لبناء الحضارة الاسلامية التى لابد أن تقدم العلوم والتكنولوجيا فيها من خلال اللغة العربية ، وهذا لا يعنى عدم معرفة اللغات الأجنبية ، ولكن ايمانا بأن اللغة العربية هى لغة الحضارة والثقافة كانت ولا زالت من أقوى لغـــات العالم فى قدرتها على النمو والاشتقاق والتعريب والتصريف ، وقد ثبت بالحجة الدامغة التى قامت بها كلية طب دمشق منذ زمن بعيد نجاح التجربة ، واودت ما يفحم المعارضين وما يوضح أن لغتنا الحبيبة قادرة على الاطلاع باعباء التعليم الطبى والعلوم الأخرى .

الفصـــل العاشر

مولد المدرسة الاسلامية فى علم الاجتماع

أعتقد أنه قد آن الاوان بمطالع القرن الخامس عشر الهجــرى أن يقوم المسلمون بتأصــيل العلوم باستمدادها من منابعها الاسلامية بعد أن عاشوا خلال هــذه الفترة الطويلة يتعلمون ويطبقون مناهج وافــدة صاغتها طبيعــة وظروف وتجديات مجتمعــات أخرل تختلف عن المجتمع الاسلامى عقيدة ووجهة وثقافة ، وفرضتها محاولات احتواء خطيرة سيطرت على التعليم والثقافة لادخال المسلمين فى اطار الفكر العالمى الأممى القائم على النظرية المادية وعلى المفهوم الاباحى .

فالمجتمع الغربى الذى صدّر للعالم الاسلامى تجربته ، قد تشــكل على نحو مختلف عن مجتمع الاسلام الذى كان قد عــاش أكثر من ألفى عام فى اطار رســالات السماء هــذا المجتمع الغربى الذى تشــكل ابان الامبراطورية الرومانية على نحو غاية فى استعلاء السادة والامراء وذلة الطبقات المستعبدة ، وعلى نحو من الترف والاباحية والفساد والطغيان . مجتمع القياصرة والفراعنة والاباطرة والاكاسرة ، الذى كان يعبد الحاكم ويسجد له .

هذا المجتمع لم يلبث أن عــرف الرحمة والسماحة عندمــا دخلت النصرانية فازالت كثيرا من غروره وغطرسته ، وأحلت محلها رهبــانية ابتدعوها ما كتبها الله عليهم فما رعوها حق رعايتها ، فأصبح مجتمعــا منفصلا عن الحياة ، راغبا الى العزلة منقطعا عن الدنيا .

ثم جاءت مرحلته الثالثــة مع النهضة ، انقلابا آخــر بالعودة الى الاستعلاء بالجنس والاستعمار والحضارة ، وانصرافا عن الدين جملة فى محاولات متعددة ، لاقامة منهج حياة ونظام مجتمع يقوم على المطــامع

والاهواء والتسلط ، منكرا حاجات الروح والنفس والمعنويات ، مما نتج عنه ما يعيشه الان المجتمع الغربى من صراع شديد بين الفرد والمجتمع وبين المجتمعات الرأسمالية والمجتمعات الماركسية ، وما يتصل من دعوات الى المادية والاباحية والوجودية والهيبية ، ومن اضطراب فى علاقات الاسرة والمرأة والشباب على النحو الذى يهدد كيان الحضارة كلها بالانهيار ويهدد كيان النفوس الانسانية بالتمزق •

فى اطار التحول الخطير من الرهبانية الى الاباحية ، وضعت مناهج علم الاجتماع الذى سيطر على الثقافة الغربية والذى نقله علماء الجامعات الغربيون الذين استقدموا لهذا الغرض فى بلاد العرب والمسلمين والذين سافروا الى الغرب من شباب المسلمين أمثـال منصور فهمى وطه حسين ومحمود عزمى وعلى عبد الواحد وافى وعبد العزيز عزت •

وقد تلقى هؤلاء علوم الاجتماع على قادة مدرسة العلوم الاجتماعية ، التى كانت قد ظهرت فى فرنسا فى العشرينات ، والتى ظلت مسيطرة على مناهج الاجتماع حتى اليوم وهم دور كايم وليفى بريل وموسى وفوكونيه ، وهى مدرسة تقول بأن قواعد الاخلاق ليسـت الا ظواهر اجتماعية ، لا نستطيع فى علاجها شيئا ، وكل ما يجب علينا عمله هو أن نرصدها لنستخرج منها قواعد عامة ، وأن الانسان مادة فحسب ، وان مبادىء الاخلاق التى هى ظواهر اجتماعية ، انما تملى على الافراد دون أن يكون لهم دخل فى بنائها أو فضل الايمان بها ، وان ارادة الانسـان الحرة التى يعتز بهـا ليست الا وهما لان المرء لا يملك لنفسه شيئا وانما هـو مسير بغرائز وقـوى •

ولا ريب أن هذا المفهوم لا يتفق مع الدين المنزل ولا الفطرة البشرية وأنه يحاول أن يهدم مفهوم الاخلاق الدينى الذى عرفته الاديان السماوية جميعا وأن جماعة مدرسة العلوم الاجتماعية اليهود انما يسيرون فى نطاق المخطط الذى رسمته الصهيونية لهدم الارادة الفردية والاخلاق والاسرة •

وتقوم نظرية مدرسة العلوم الاجتماعية المادية ونظرية دارون على مفهوم الفلسفة ونظرية فرويد ، وتحاول أن تخضع مفهوم العلوم الاجتماعية الى النظرية التجريبية المطبقة على المادة من ناحية أو على مفهوم الحيوان من ناحية أخرى ، ولا ريب أن ذلك كله يختلف مع مفهوم العلوم الانسانية المتصلة بالنفس والروح والاخلاق مما لا يمكن اخضاعه لمناهج العلم المادى .

ذلك أن الجوانب النفسية والروحية والوجدانية التى تشكل السلوك والاحاسيس والتصرفات انما تتصل أساسا بالعقائد وترتبط بالايمان بالله ، ولقد وجدت هـذه الدعوى معارضة شديدة وأثبتت الابحاث العلمية عجز المناهج التجريبية المطبقة على المادة عن تحقيق نتائج صحيحة بالنسـبة لمشاعر الانسان وعواطفه وأخلاقه وتصرفاته .

وتستهدف النظرية الاجتماعية المطروحة القضـاء على الشخصـية الفردية قضاء تاما ، بدعوى خضوع الفرد للتجربة الاجتماعية التى تقول بأن الانسان محكوم بعدة عوامل ، هى التى تدفعه فى طريق الحياة ، وهى بذلك تحاول القضاء على قاعدة وطيدة فى الاسلام وفى المجتمع الاسلامى : وهى قاعدة الارادة الفردية والمسئولية الفردية والالتزام الاخلاقى .

كذلك تحاول هذه المدرسة انكار أصالة قيام الاسرة منذ العهـود البشرية الأولى ، وفى مفهوم الاسلام ان الاسرة تكونت فى بداية البشرية ولم يخل منها جيل من الاجيال .

ولا يعترف الاسلام بأى نظرية عن تطور العائلة أو القول بـأن المرأة كانت مشاعة فى عهد البشرية الاول ، فالقرآن الكريم يقرر صراحة أن نظام الاسرة نظام أصيل فى الطبيعة البشرية .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » النساء : ١

ولا ريب أن مدرسة العلوم الاجتماعية تستهدف التشكيك فى نظام الاسرة ، توطئة للدعوة الى القضاء عليه على النحو الذى يحدث الآن فى المجتمعات الغربية •

وقد جرت محاولات للقضاء على الأسرة على مر التاريخ ، ولكنها عجزت عن ذلك وسيظل نظام الاسرة ثابتا مكينا على مر الازمان وسيظل أى نجاح يتحقق لخصومه فى القضاء عليه ، عملا جزئيا يسقط بمرور الزمن ، ولا يأخذ صفة الشمول أو الاستقرار •

وتنطلق نظرية علم الاجتماع من مسبقة فرضية هى أن الانسان مادة وجسم وأنه ليس له قوى أخرى (شأنها فى ذلك شأن علوم النفس والتحليل الفرويدى) ولا ريب أن مثل هذه العلوم الاجتماعية والنفسية انما تخضع لاهواء الفلاسفة ومزاجهم الشخصى وهى نتاج عامل واحد من عدة عوامل تسيطر على المجتمعات والفكر البشرى ، هذا العامل هو العصر وأحداثه •

وأغلب هذه العلوم تعتمد على الاسطورة الاغريقية وتتخذ منها تصورا عاما للحياة ، ومع أنه قد تكشف لمدرسة العلوم الاجتماعية أن الظاهرة الانسانية ليست كالظاهرة الطبيعية وأنها من نوعية مخالفة ، وأن الظاهرة الاجتماعية ليست شيئا ملموسا يقاس كما تقاس الظاهرة الطبيعية فان هناك خطة للاصرار على الخطأ وقد أشار العلماء التجريبيون الى أن الظاهرة الانسانية لا تخضع للمقياس المادى وتشذ عنه وتتميز بحرية باطنة فيها ، ولا يمكن التنبؤ بمجراها أو وقت وقوعها ، وأن الظاهرة الانسانية أقرب الى الذات ، والانسان ذات وليس موضوعا ، بالرغم من هذا كله فان أصحاب الفلسفات المادية ما زالوا يخدعون ويغالطون •

* * *

وفى الجامعات المختلفة فى العالم الاسلامى درست مواد علم الاجتماع منقولة ومترجمة من كتابات الغربيين ، الذين قايسوا هذا العلم وفق مفهوم

النظرية الليبرالية الغربية والأساتذة الأجانب الذين كانوا يقدمون هـذه المـادة فى الجامعات العربية كانوا ينتقون المدرسـة التى ينتمون اليهـا فالمتخرجون من الجامعات الفرنسية كانوا يتبعون منهج المدرسة الفرنسية وكذلك المتخرجون من الجامعات الانجليزية والامريكية ، كل حاول توجيه دراساته ومؤلفاته وفق الثقافة التى تخرج فيها والولاء الخاص بها ، لذلك لم تكن الاصالة على وجه العموم واضحة .

والاصالة لا تظهر على العموم الا عند محاولة دراسة النظم الاسلامية ومقارنتها بالنظم الاوربية الحديثة أما فيما عدا ذلك فهى ترديد للافكار الوافدة ، وكل الكتب التى صدرت عن علم الاجتماع فى هذه الفترة متأثرة بمؤلفات أصحاب النظريات العضويـة التصورية التى كانت سـائدة فى أوربا — على حد تعبير الدكتور شحاته سعفان — مثل كتاب نقولا حـداد الذى وصف بأنه أول مؤلف باللغة العربية فى علم الاجتماع وكذلك كتابات سلامه موسى وطه حسين وكلها متأثرة بنظرية التطور ، وقائمة على حدود المفهوم المادى للفرد ، وتقوم على أن الانسان حيوان خـاضع لشهوتى الطعام (ماركس) والغريزة (فرويد) ، وأنه مسوق بهاتين الشهوتين فى كل تصرفاته ، وهو مفهوم لايعترف بالقيم المعنوية والروحية ، ولا يحفل بأثر الدين ودعوته فى تغيير نظم المجتمع ، كمـا أنه متأثر بمفاهيم جمهوريـة أفلاطون التى تقوم على أساس الاعتراف بالفصل بين السادة والعبيـد وضرورة وجود مجتمع العبودية فى خدمة السادة وقد أقر أرسطو هـذا المفهـوم .

مـاذا يريدون ؟ :

هذا من ناحية ، من ناحية أخرى فقد أكد الباحثون (علم الاجتماع) القائم اليوم فى المجتمعات العالمية ، ليس علما قائما بذاته يعمل على النحو الذى يفرضه العلم الصرف ، ولكنه يعمل فى خدمة النظام الغربى وما يتصل به ، من تثبيت سلطانه ونفوذه فى عالم المستعمرات أو البلاد الخاضعة له

اقتصاديا ، ومن هنا فقد أشار باحثون كثر الى أن علم الاجتماع الامريكى مثلا لم يقف عند حدود مجتمعه بل تعداه الى بحوث استهدفت مقـاومة التغيير فى العالم الثالث وضرب الحركات التحريرية •

وأثبت علماء أخرون ارتباط البحث الاجتماعى فى الغـرب بأدوات السياسة والقوة العسكرية ، وأن بحوث علم الاجتماع تستخدم كوسيلة فى الفراغ العالمى وتثبيت تبعية العالم الثالث للنظام الرأسمالى فكرا وتوجيها •

كذلك ففى الاتحاد السوفيتى نجد أن جانبا كبيرا من الفكر الاجتماعى موجه نحو كشف مآسى وتناقضات المجتمع الرأسمالى على وجه العموم وأن الباحثين السوفيت يدرسون قضايا المجتمعات النامية بهدف كشـف أثر الرأسمالية والاستعمار على أوضاعها وتغيراتها ، ومعنى هذا أن علم الاجتماع فى الغرب ليس علما أصيلا وانما هو علم موجه ، فهـو فى داخل المجتمعات الغربية لخدمة أهداف النفوذ والسيطرة ، وفى داخل المجتمعات الماركسية لكشف عوامل أو أخطار السيطرة الغربية ، ومعنى هذا أن علم الاجتماع الآن بصـورته الحـالية هو علم تبرير الواقع ، وأنـه ملتزم بتوجيهات الايديولوجية والحزب •

ويقول الدكتور عبد الباسط عبد المعطى الذى يكشف هذه الحقائق فى كتابه : (اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع) •

أن دور كايم وفيبر ومن قبلهما أوجست كونت ، أرادوا جميعا التنظير لصعود الرأسمالية الاوربية والمحافظة على منجزاتها وتبنى توجه ليبرالى غالى فى الفردية التى هى جوهر المشروع الرأسمالى ، وان الرواد لعلم الاجتماع لم يكونوا قادرين على وضع نظرية عامة شاملة ، وأنهم خضعوا لمجتمعاتهم ولتحديات عصرهم وبيئتهم فى حدود فرنسا وألمنيا ، وبذلك جاءت ملاحظاتهم متعايشة مع هذا الواقع متحددة به •

كما أن هؤلاء جميعا كانوا منظرين للطبقات الحاكمة والمسـيطرة ،

فتحول العلم لديهم الى تحكم ذى بعـد واحد ، قضى على واحـدة من خصـائص العمومية ؛ أى نسيج البنـاء الاجتماعى بطبقاته وجمـاعاته وقطاعاته • وانهم اتخذوا جميعهم موقفا تبريريا من أوضاعهم الاجتماعية . وتلك أقوى مقـاتل علم الاجتمـاع الذى نقله المسلمون فى مدارسـهم وجامعاتهم ، وحاولوا أن يصوغوا مجتمعاتهم على ضوئه الكئيب •

كذلك فقد أشـار الدكتور عبد الباسط فى أحدث دراسـة عن علم الاجتماع تأثر هذا العلم بمنهج العلم الطبيعى ، كما أشرنا من قبل ، كذلك فقد أنكر الباحثون أن علم الاجتماع قادر على الوصول الى قواعد عامة للتطور الاجتماعى •

ويرى الباحثون أن علم الاجتماع — على هذا النحو — يمكن أن يكون علما إنسانيا ويمكن أن يكون ضد الانسان وبمعنى آخر أنه يمكن أن يسهم فى حل المشكلات ويمكن أن يؤكد التخلف ويخدم الاقلية •

وقد بلغ الأمر أن يقول أحد علماء الاجتماع « هوارد بيكر » الى جانب من نقف : هل نأخذ جانب المسيطرين أم الخاضعين : الحكام أم المحكومين ، وليس أقسى من هذا التساؤل ليكشف أمام أبصار المسلمين فساد تجربة علم الاجتماع الذى يخضعون له منذ أكثر من سبعين عاما •

فساد منهج أوجست كونت :

وفى مراجعة لفكر الاربعة الكبار فى علم الاجتماع : أوجست كونت ودور كـايم وماكس فيبر وليفى بريل ، نجد أن القاعدة الاساسية هى : نظرية دارون التى تقول ان الانسان حيوان ناطق وتدرجه فى نظام الحيوان ، وتفرض عليه أحكامه متجاهلة جوانبه الروحية والمعنوية ، وهى أساس النظرية المادية ، بالاضافة الى نظرية فرويد فى الجنس والتفسير المادى التاريخ الماركسى •

ولا شك أن القانون الذى وضعه أوجست كونت وأطلق عليه اسم (المراحل الثلاث) قد فشل فشلا ذريعا ووجهت اليه انتقادات جمة ذلك لأنه تجاهل ظاهرة الدين الموحى به والقادر على تغيير المجتمعات ، ويقف عند النصرانية ولم يجد من الشواهد التاريخية ، ما يؤيده عمليا فضلا عن خضوعه لفكرة التطور المطلق الذى لا يعترف بالثوابت •

وكذلك يقوم الاطار الفكرى لمفاهيمه على أساس الفلسفة الوضعية التى تحكم المجتمع على أساس القوانين الطبيعية التى لا تتغير وهو يؤمن بأن الفرد شىء لا قيمة له •

ويهدف علم الاجتماع عنده لان يكون أداة للمحافظة على الواقع القائم وتأكيد السلطة الحاكمة ، ولذلك نادى بالحد من حرية التفكير وهلل عندما قبض نابليون على ناصية السلطة بيد من حديد ، ونادى بضرورة محاكاة علم الاجتماع للعلوم الطبيعية ، وقد حرص على أن يكون علم الاجتماع الوليد أداة محافظة وتبرير ، وهو يرى أن على الانسان أن يتواءم مع ما هو قائم ، فليس له من ارادة ولا يجب أن تكون له ، وأن العيب كل العيب فى الانسان وأخلاقه ، لا فى الظروف المحيطة به ، وهذا تصور — كما يقول الدكتور عبد الباسط عبد المعطى — ليس ضد الانسان فحسب بل هو مشوه ومزيف لتاريخ الانسان •

مذهب دور كايم ضد الفطرة :

وكان دور كايم قد انتقل بعلم الاجتماع نقلة حاسمة الى أفق التلمودية ، التى صيغت مفاهيمها فى قوالب علمية مرتين : فى نظرية فرويد (النفس والاخلاق) وفى نظرية دور كايم (الاجتماع) •

فدعوة دور كايم تقوم على الجبرية المطلقة للفرد فى اطار المجتمع واقراره بعجز الانسان عن تغيير المجتمع وضرورة خضوعه له ، وقوله أن العامل الفعال التى يؤثر فى المجتمع هو البيئة الاجتماعية ، وهو الغاء

كـامل لدور الفرد ، وقد شهد له الباحثون بالتناقض والخلط ، وكـان يثير التساؤلات ولا يجيب عليها ، ويتركز خطؤه فى دعواه أسبقية المجتمع على الفرد ، وخضوعه لفكر البرجماتية والنفعية . وتسير كتاباته المتنوعة فى مسـار تأكيد ضرورة انصـياع الانسان لما هو قائم ولما هـو محيط فالظاهرة الاجتماعية اجبـارية والزامية وان دراسـاته فى نظر كثير من العلماء وأراءه يعوزها كثير من الصدق العلمى .

ومن أخطائه اعتباره الجريمة هى الفطرة والاسرة هى الشذوذ وهو خليط من جميع المذاهب المادية الماركسية والفرودية والبرجماتية وبه تحول علم الاجتماع الى دراسة الظواهر دون أن يكون له أثر فى تغيير المجتمع ولا شك أن من أكبر أخطائه دعواه العريضة بأن المجتمع هو الذى أنشأ العقيدة وأن الدين لم ينزل من السماء ، وانما أوجدته الجماعة على النحو الذى حمل لوائه الدكتور طه حسين ودعا اليه فى الثلاثينات .

ولا ريب أن مفاهيم دور كايم اليهودى ربيب المذهب الماركسى أصلا والنظرية المادية ، معارض تماما لكل القيم الاساسية التى تقوم على الفطرة ، والتى جاءت بها الاديان فى منهجها الربانى القائم على الاصالة وعلى التكامل بين المادة والروح .

وقد بدأت خطوات التبعية فى العالم الاسلامى لمفهوم علم الاجتماع الغربى ، عندما قدم الدكتور منصور فهمى أول رسالة فى فلسفة الاجتماع اجامعة باريس ١٩١٣ تحه اشراف اليهودى ليفى بريل ، عن حالة المرأة فى التقاليد الاسلامية ، وقد صاغها فى اطار المدرسة الفرنسية الاجتماعية ، التى كان عميدها دور كايم ، وقـد وقع تحت تأثيرات تفسـير كثير من المستشرقين المتعصبين ضد الاسلام فأتت رسالته مجافية تماما لقواعد الاسلام وما يجب أن يتصف به المسلم ، اذ تناول سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعدد زوجاته بكثير من الخلط والفساد وقال ان المرأة بعـد الاسلام ساء موقفها لانها أصبحت تعامل كفرد لا كقريبة ، وقال ان محمدا

(صلى الله عليه وسلم) يشرع للجميع ويستثنى من ذلك نفسه ، ومضى يتحدث عن ذلك كله بأسلوب المستشرقين ، واحتوى عصل من الرواية نقدا لأكثر من موقف للنبى صلى الله عليه وسلم • ولحياته الزوجية والاجتماعية ، وقال ان الاسلام هو الذى فرض الحجاب على المرأة والاستقرار فى المنزل (وقد رجع الدكتور منصـــور فهمى عن هذه الآراء فيما بعــد وكتب عن الاسلام كتابات رائعة) وقال : انه وقع تحت تأثير المستشرقين اليهود ، كما وقع الدكتر طه حسين فى ارائه عن أن الدين خرج من الأرض كمـــا خرجت الجماعة ومحمود عزمى الذى كان يفرق بين مفهوم الاقتصـــاد السياسى ومفهوم الربا فى الاسلام ويقول : اذا ذكر الاقتصاد فلا يذكر الدين •

كما أعلن طه حسين أن ابن خلدون غير كامل الاهلية العلمية ، ونقده نقدا جارحا وأعلن عدم اعترافه بأن ابن خلدون مؤسس علم الاجتمـــاع أو حتى مبشر بعلم الاجتماع الحديث ، مخالفا بذلك الاغلبية الساحقة لعلماء الاجتماع المعاصرين الذين أعترفوا لابن خلدون بفضل السبق والاصالة ومنهم توينبى البريطانى وفريرو الايطالى وجملبو فنتز البولندى وذلك جريا وراء التبعية لرأى اليهودى دور كايم فى ابن خلدون حقدا وغلوا •

كذلك فان الدكتور على عبد الواحد واف الذى وكل اليه انشاء قسم الاجتماع فى الجامعة المصرية ، ظل والى اليوم خاضعا لمفهوم دور كايم والمدرسة الفرنسية ، وهو الذى روج له وقدم مفهومه بالعربية فى كتاب ضخم ولقد كان كل أساتذة الاجتماع على هذا النحو ومن جاء بعدهم عبد العزيز عزت والساعاتى والخشاب ، فقد تعاموا على فوكونيه وماسينيون وكان هؤلاء يبحثون عن المفكرين المسلمين الخاضعين للفكر اليونانى أمثال ابن مسكويه الذى تأثر فى بحثه باخلاق بأفلاطون فى جمهوريته وبأرسطو فى كتابه الاخلاق •

وقد خضع الدكتور حسنى الساعاتى والدكتور مصطفى الخشـــاب

لمفاهيم علم الاجتماع الغربى وتلقــاه على أيديهم عشرات من المثقفين فى العالم العربى ، وقد عالجوا جميعا المجتمع العربى الاسلامى على أنه مجتمع محكوم عليه بنظام علمانى خالص فى اقتصاده وسياسته وقوانينه ،فلم يكن هناك ما يفتح الباب أمام المفاهيم الاسلامية فى علم الاجتماع وقد أحيا هؤلاء دراسات أوجست كونت صاحب المذهب الوضعى وسان ســيمون وفكر المدرسة الفرنسية (دور كايم وليفى بريل) كما عنوا بالانثروبولوجيا والأساطير والفلكلور على اعتبار أنها المادة التى تصنع منها المجتمعات البــدائية ، وجروا شوطا طويلا وراء مفاهيم علم الاجتماع الغربى الوافد الذى لم يكن يلتقى مع الفكر الاسلامى فى أى أساس من أسسه ما عدا بعض علامات بسيطة أظهرت مفهوم الاسلام • منها كتابات الدكتور حسن سعفان عن رفض المجتمع الاسلامى للنظرية الماركسية فى تفسير التاريخ ، وقــد قال أحدهم : ان كل ما لدينا من علم الاجتماع هو من صناعة الأربعة الغربيين الماديين أوجست كونت وهربرت سبنسر واميل دور كايم وماكس فيبر •

فجر جديد لعلم اجتماع اسلامى :

ولكن الامور لم تكن لتمضى على هذا النحو بعد أن علت صيحة حركة اليقظة الاسلامية بالعودة الى المنابع ، والبحث عن الاصالة وترشيد الفكر وتحريره من التبعية وتصحيح المفاهيم ، وهى الدعوة التى تعــالت فى العقدين الاخرين من القرن الرابع عشر ، والتى امتدت الى كل جوانب البحث والثقافة ، وخاصة فى مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية ومن ثم ظهرت خيوط رقيقة من الدراســات التى استحصدت وقويت ، وخاصة ما قدمه الدكتور مصطفى محمد حسنين فى كتابه « نحو علم اجتماع اسلامى » الذى صدر منذ عشر سنوات •

ويرى الدكتور مصطفى حسنين أنه حيث يجعل دور كايم الظواهر الاجتماعية أساس الدراسة وتجعل المدرسة الانجليزية والامريكية النظام الاجتماعى

أساس الدراسة ، فان الاسلام يجعل من واقعات العمران البشرى موضوع الدراسة ، وأن كثير من علمائنا قد أخطأوا فى ظنهم أن واقعة العمران البشرى — كما عرفها ابن خلدون — هى بذاتها الظاهرة الاجتماعية عند دور كايم ، ولكن طبيعة الواقعة الاجتماعية تختلف فى وظيفتها وبنائها الاجتماعى اختلافا جوهريا عن وظيفة المظاهر الاجتماعية وبنائها الاجتماعى ، وان واقعة العمران البشرى — كما قدمها ابن خلدون نسيج وحدها فى الوظيفة والتركيب الاجتماعى على السواء ، وان دور كايم أهدر كل تقييم أخلاقى حتى أنه يقول : ان الجريمة ظاهرة ضرورية وهى ليست ظاهرة مقيدة ، ولا ريب أن هذا لا يستقيم اطلاقا مع النهج الاسلامى فى النظر الى مجتمع المسلمين ، بل هناك ما هو أسوأ ، فان دور كايم ينتهى فى نظريته فى الظواهر الاجتماعية الى القول بأن اصل الاديان أصل أرضى يرجعها الى الطبيعة •

وهناك فارق كبير وعميق بين المدرسة الاسلامية والمدرسة الاجتماعية يكشف عنه الدكتور مصطفى حسنين (ذلك ان ابن خلدون يربط بين قيام الواقعية الاجتماعية ووظيفتها ربطا شديدا ، اذ جعل العمران هو هدفها وغايتها ، واذا كان الاسلام قد شد بين صالح الفرد وصالح الجماعة فى نطاق واحد وجعل كل مصلحة منها تساند الأخرى وتدعمها فان ابن خلدون على أساس الفهم الاسلامى كان يتبنى واقعات العمران على أساس ما تحققه من مصلحة للجماعة والأفراد على السواء •

ويشير الدكتور مصطفى حسنين الى أن بحوث دور كايم ، وان جعل موضوعها ، العرب فى شمال افريقيا وبلاد الشام والبدو بصورة عامة ، كانت تتجه الى وصف هذه الجماعات على انها (بدائية) متخلفة بالاضافة الى آراء دور كايم المرفوضة فى الدين الوضعى •

من أجل هذا رأى الدكتور مصطفى حسنين أن يرجع الى أساس المدرسة الاجتماعية الاسلامية التى أرسى دعائمها ابن خلدون ويقول : انه

لابد لنا ونحن أصحاب المنهج الاصيل الاول اذا أردنا مقاومة هذه الافكار الهدامة ولكى نصلح أمرنا ، ونعود الى الاصالة ، أن نؤكد على منهجنا فى التفسير وأن نصد كل رأى مخالف بنفس الأسـلوب الذى يتخذونه فى محاربتنا ، أنهم يقولون : انهم أصحاب أسلوب علمى ونحن نقول لهم : ان لنا أيضا أسلوبنا العلمى المكين ، وأسلوبنا العلمى قائم على هذا العلم الذى هو فقه الشريعة الأصيل قرآننا وسـنة رسولنا — صلى الله عليه وسلم — ، أسلوبنا واحد غير مسبوق بمثله ، لم يتبدل ولم يتغير ، هـو القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك ما قـام الدليل الشرعى عليه بأنه طاعة الله ورسوله ٠

الفصل الحادى عشر

دراسات النفس والأخلاق من التبعية إلى الأصالة

لا ريب أن الدراسات الحديثة فى مجال النفس والاخلاق ، التى تقوم الجامعات فى العالم الاسلامى على تقديمها للشباب المسلم ، تمثل مجموعة النظريات التى طرحها الفكر الغربى ، والتى هى فى الحقيقة تمثل التحديات التى يواجههـا المجتمع الأوربى والأمريكى فى العصر الحديث ، ولا تمثل تحديات المجتمع الاسلامى ولا النظرة الاسلامية فى هذه المسائل والقضايا •

والباحث المسلم حين يدرس أو يستوعب هذه النظريات يعتقد أن هذا المفهوم المطروح فى النفس والأخلاق هو الاجابة الوحيدة عن كل هذه القضايا والتحديات ، بينما للاســلام مفاهيمه وإستجاباته التى تختلف اختلافا عميقا ، والتى تتصل بمجتمعه وبالنفس الانسانية الاســلامية العربية — وبكل نفس على الاطلاق •

ومن شأن هذا أن يجعل المسلم يواجه الحياة والمجتمع بمفاهيم باطلة وأن يظن أن الاسلام ليس لديه حلول واجابات لمثل هذه القضايا •

مقدمات للتنبيه :

ولذلك فان من ألزم الواجبات أن تسبق هذه « المناهج » الدراسية « مقدمات » تبين « الاصالة الاسلامية » وتكشف عن أن هذا الذى يدرس ما هو الا بمثابة نظريات قابلة للصواب والخطأ ، وليست حقائق عـامة ثابتة ، ذلك أن (العلوم الانسانية) ليست لها صفة « الثبات »التى تعرفها العلوم التجريبية ، ولانها تتصل بالعواطف والمشاعر وأهواء النفس فانها تختلف ، ولانها تتصل بالعقائد والتقاليد فانها تتباين بين مجتمع وآخر •

ولما كان المجتمع الاسلامى يقوم على قاعدة الايمان بالله الواحـد ،

ويلتمس فى تفسير أحداثه وتحدياته مفهومه الاصيل المستمد من « القرآن الكريم » والسنة النبوية ، فان من الخطر تصور أنه محاصر فى مفاهيم بعيدة كل البعد عن ذاتيته ومشاعره وبيئته •

فاذا كانت هذه النظريات قد طرحتها تحديـــات ليست موجودة فى المجتمع الاسلامى ، وانها لم تستطع على وضعها الحالى أن تستجيب للنفس الغربية فى حل مشاكلها ، فان التماس فهمها ودراستها فى المجتمع الاسلامى من شأنه أن يكون بعيد الاثر فى افساد النفس البشرية المسلمة ، وتسميم منابع الخير فيها •

ولقد يكون الامر أقرب الى النظرة العلمية ، حين تطرح هذه المذاهب على أنها مذاهب غربية لبيئة غير بيئتنا ، وأن يقال انها نظريات ، أى وجهات نظر لفلاسفة وباحثين ، قابلة للصواب والخطأ ، وأنها ليست الكلمة الاخيرة ، وليست الحقيقة العلمية الثابتة ، وأنها محاولة ستتلوها محاولات ، وأن الزمن يلاحقها بالتغيير والتبديل •

ان أى نظرية يقوم بها فيلسوف أو مصلح تتمثل فيها حقائق هامة :

أولا : ان هذه النظرية هى فرضية افترضها هذا الفيلسوف بناء على نظرته الى الأمور وثقافته ومكونات شخصيته •

ثانيا : انها نظرية تتصل اتصالا تاما بالتحديات الخاصة لشخصية هذا الفيلسوف وبيئته وعصره ومجتمعه وظروف معينة قائمة أمامه •

ثالثا : ان الانسان على أعلى درجة من التفكير والنظر ، لا يستطيع أن يخرج عن أبعاد وجوده البشرى والعقلى والنفسى ، ولا يستطيع أن يشرع للجمتمع الانسانى كله •

ومن ثم فان ما يقدمه « الفكر البشرى » هـــو فرض يقبل الخطـــأ

والصواب ، وقد يصلح لمجتمع ولا يصلح لآخر ، وينفع فى عصر ولا ينفع فى جميع العصور ٠

ولقد اعتورت النظريات والمناهج أسباب القصور وحل بها التناقض ، واحتاجت الى الاضافة والحذف ، على مدى قريب من ظهورها ، وذهب بعضها وانطوى عجزا وفسادا ، وليس أدل على ذلك من مذاهب الفرويدية والوجودية المطروحة فى مجال علمى النفس والاخلاق ، ونظرية دور كايم ومدرسة العلوم الاجتماعية المطروحة فى مجال الاخلاق والاجتماع ٠

وجملة القول أن نظريات الفكر الغربى فى النفس الانسانية المطروحة فى مناهج الجامعات فى البلاد الاسلامية وآفاق الثقافة ، تختلف كل الاختلاف عن مفهوم الاسلام ، وتتعارض مع طبيعة النفس البشرية التى قدمتها لنا (الأديان) وأضاء مفهومها (الاسلام) على نحو كاشف صريح يقوم على أساس الفطرة البشرية الجامعة بين أشواق الروح ورغبات الجسد والتى تتحرك دائما رفعة الحس وقوة الايمان ٠

ومن هنا فقد تركت « مفاهيم النفس » الوافدة أثرا بعيد فى اثارة جو الشك والاضطراب والقلق والتمزق ، لانها بدت وكأنها حقائق علمية ، بينما لم تزد على أنها نظريات ووجهات نظر لفلاسفة ، لهم أهواؤهم ومطامعهم ، ولهم تحديات مجتمعاتهم ، ومن ورائهم تحديات أخرى تقوم عليها اليهودية العالمية ، وتستهدف بها زلزلة الاخلاق والسكينة والامن النفسى وادخال العالم كله فى اتون التمزق والصراع كمقدمة لتحقيق أهدافها ٠

ولعل من أخطر مفاهيم علم النفس المطروحة الآن فى أفق الفكر الاسلامى والدراسات الجامعية ، هو التعميم والقصور والانشطارية والتجزئة ، وأخطرها جميعا « الارضية المادية » التى ينطلق منها هذا الفكر ، سواء فى لونه الغربى أو لونه الماركسى ، وهذه السمات جميعا يتسم بها

الفكر الغربى اليوم فى كل معطياته المحدثة ، ومراحله الاخيرة ، وخاصة القول بأن « الجنس » هو أساس الدوافع النفسية جميعا ، وأن الانسان مقسور فى اطار « الجبر » الذى تفرضه هذه الغريزة على كل تصرفاته ، بحيث يعجز عن أن يكون له ارادته الخاصة القادرة على الاختيار وعلى التغيير .

ومن خلال هذه الفرضية الجزئية حاول (فرويد) ومدرسته استخلاص مفاهيم تتعارض تماما مع مقدرات النفس الانسانية وأعماقها البعيدة ، وخاصة فيما يتصل بحركة التوازن القائمة بين العقل والغريزة ، وبين النفس والجسم ، وبين الروح والمادة .

وحين يفرتض (فرويد) أن الشهوة الجنسية هى الحـــافز الأول لنشاط الانسان ، فانه يضع قاعدة خطيرة هى :

اعلاء الجانب الغريزى فى الانسان ، ورد كل العوامل عليها تحت اسم « حيوانية الانسان » .

ومن هنا يذهب الى القول بأن النشاط الذهنى والاجتماعى والفنى والدينى ، له أساس جنسى ، ويمضى الى القول بحب الام وكراهية الأب عند الرجل ، ويعتمد فى ذلك على أسطورة يونانية قديمة هى (أسطورة أوديب) التى تحولت على يديه الى مركب ، وكذلك فيما يتصل بحب الأب وكراهية الام عند المرأة ، ويعتمد فيه على أسطورة أخرى هى (أسطورة الكترا) .

ويمضى فرويد فيقرر أن الانســـان فى جوهره : حيوان كغيره من الحيوانات ، وأن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هى أساس سلوكه فى الحياة .

وهكذا نجد أن أخطر ما تقدمه مفاهيم النفس فى المنهج الغربى الوافد

من آراء ، انما تدعو الى معارضة مفاهيم الدين فى مغالبة النفس ومجاهدة الاهواء ، وعدم الخضوع للدوافع المدمرة للكيان الانسانى .

غير أن الدين الحق حين دعا الى المغالبة والمجاهدة لم يدع الى الكبت أو الاسقاط ، أو تحريم هذه الرغبات الحسية بل اعترف بها ودعا الى مارستها وتحقيقها فى اطارين :

الأول : اطار النظام الاختماعى وقوانينه الحافظة من أخطاء الزنا والاباحية .

الثانى : اطار الضوابط التى تحمى الطبيعة البشرية من التحلل والانهيار .

فالاسلام أساسا لم يحرم الرغبات الحسية بل اعترف بها ، ولكنه نظم الممارسة فى اطار كريم ، ومتوازن مع حاجات الانسان الاخرى ، بحيث تتحقق أشواق الروح ورغبات الحس فى وقت واحد ، دون طغيان من أحدهما على الآخر ، وليس على هذا الاسلوب الذى يدعو الى الانطلاق الحر غير المقيد الذى تدعو اليه المذاهب النفسية والاجتماعية الغربية .

هذا فضلا عن وصف الرغبات الحسية بأنها عوامل الكبت ، وأنها من مصادر الخطر العقلى والجسمانى ، ومن هنا تجىء الدعوة الى اطلاقها ، ولكن ذلك يرجع فى الواقع الى واقع المجتمع الغربى نفسه فى تعامله مع عقائده الدينية وتقاليده الاجتماعية ، وهو ما لا نجد له شبيها فى المجتمع الاسلامى .

ومن هنا يمكن القول بأن « مناخ » علم النفس المطروحة مفاهيمه فى مناهج الدراسات الجامعية العربية ليس اسلاميا ، وليس صحيحا ، وليس أصيلا ، بحيث يعطى النفس حاجتها وسلام مفهومها وليس قادرا على أن يحررها .

ومن هنا نجد ذلك الاضطراب الذى يجتاح مجتمعات الشباب ، من حيث أنه يظن أن ما يدرسه هو حقائق علمية ، أو أضواء كاشفة ، أو أنوار هادية الى فهم الحياة والتحرك فيها ، ومن هنا يخسر المجتمع الاسلامى خسارة ضخمة ، نتيجة الضحايا الذين يقعون فى الشرك ، ويفسد اتجاههم نتيجة اعتمادهم على تلك المفاهيم المسمومة •

ولو أن هذا الشباب وهذه الاجيال وجهت الى فهم القيم الاسلامية فى النفس ، وعرفت أن ما تدرسه فى هذه المناهج ليس علما وليس يقينـــا خالصا ، لامكن أن تنجو من الهزيمة والفساد الذى أصاب كثيرا من النفوس •

ولقد كان حقا علينا أن نكتب فى مقدمات المناهج لشبابنا ، أن مناخ المفاهيم النفسية التى بين أيديهم انما يستمد استجاباته من تحديات معينة ، هى خلاصة تاريخ العلاقات الاجتماعية فى مجتمعات أوربا والغرب ، والتى استمدت مضامينها من جو الرهبانية واضـــفاء الكراهية على العلاقـــة الطبيعية بين الرجل والمرأة ، حيث بالغت النصرانية الغربية فى فرض القيود على النشاط الحيوى ، وأنكرت حق الفرد — لا فى مزاولته ، بل فى الاحساس بالرغبة فى هذا النشاط ، حيث لا تكتفى بوضع القيود على الميدان العملى ، بل تتعداه الى مجال الشعور النفسى على سبيل الالزام •

وهذا يعنى معارضة الطبيعة البشرية ، وقمع الجسد ومقاومة رغبة النفس وامتهان الجسد ، كوسيلة لا وسيلة غيرها للارتفاع بالروح ، وقد صاحب هذا الاتجاه :

تلك الدعوة الحارة الى الرهبانية والزهد ، وما اتصل بالاديرة من أحداث وأهواء ، وما يرتبط بهذا من عدم اباحة الطلاق ، كل هذا قد أدى الى مفهوم وواقع كلاهما متعارض مع الفطرة البشرية — هذا المفهوم والواقع مع تحدياته وآثاره الخطيرة — كانت نظرية فرويد هى رد الفعل الطبيعى لهـــا •

ولم تكن نظرية فرويد الا مجموعة من الفروض التى استقاها من تجربته مع المرضى والشواذ والمصابين ، وليس مع الاصحاء أو الاسوياء ، وهى وجهة نظر معينة لم تثبت طويلا فى مجال التجربة ، حتى قال كثير من الباحثين : ان فرويد أقــرب الى المتنبئين منه الى العلمــاء ، وأنه يلقى بنظرياته وآرائه دون أن يقدم لها البرهان العلمى أو السند الواقعى ، وأنها تقوم فى أغلبها على الافتراض ، ثم تصديق ما يفترض ، فيبنى عليه كأنه حقيقة علمية ، لا يأتيها الباطل ٠

وقد أثبتت الدراسات العلمية بما لا يقبل الجدل ، أن الدافع الجنسى يأتى فى مرتبة أدنى من كثير من الدوافع الاخرى ، كالدافع الى طلب الهواء أو الشراب أو الطعام ٠

ثم ان الدافع الجنسى يخضع للتربية ، بمعنى أننا نستطيع تربيــة الانسان على العفة ، بحيث يضبط دافعه الجنسى ويتحكم فيه ، وبذلك تكون العفة أمرا ليس ممكنا فحسب بل ضروريا ٠

ويقول الباحثون : ان نقطة الضعف الأساسية فى فرويد كعالم : هى انه اتخذ من دارسة نفسه ودراسة طفولته قاعدة للتعميم ، والوصول الى قوانين عامة وقد ترك فرويد من كتاباته عن نفسه وعن حياته ، ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه وهواجسه ومشاكل صباه — كيهودى فى النمسا المتعصبة ضد اليهود — قاعدة لكل تصميماته ٠

ويقول الباحثون ان « فلسفة فرويد » تمتاز بأنها ميكانيكية جبرية ، فانها تنظر الى الانسان على أنه آلة عديمة الحرية ، خاضعة كل الخضوع لقوى خفية ، لا يمكن التغلب عليهــا الا بالحيلة ، وأن فرويد أسرف فى كل ظاهرة سلوكية الى الغريزة الجنسية ٠

بل ان فرضيات فرويد لم تكن موضع قبول من العلماء العاملين فى حقل علم النفس ، بل على العكس من ذلك ، كانت موضع المعارضة ٠

وقد عارض يونج وأدلر نظرية فرويد فى الجنس ، ورفضا رأيه فى الغريزة الجنسية ، وفى الطفولة وفى عقدة أوديب •

أما أدلر : فانه نبذ أهمية الغريزة الجنسية النبذ كله ، وأرجع تكوين الشخصية ونشأة الامراض العصبية الى مجرد الرغبة فى القوة والتعويض عن نقص الكيـــان •

ويعتقد إدلر أن حافز (تأكيد الذات) وليس (الدافع الجنسى) هو القوة السائدة الايجابية فى الحياة •

ويرى يونج : أن الجنس ليس هو الدافع الحقيقى ، ولكن هو الرقى والسيادة والرغبة الملحـــة فى التفوق ، وأن الحب الجنسى ليس الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه السيادة ، وأن هناك وسائل أخرى لا علاقة لها بالحب الجنسى •

ويرى أدلر : أن الشعور بالنقص أهم فى عوامل الامراض العصبية من الأمور الجنسية التى بالغ فرويد فى ابراز خطورتها •

ويقول يونج : ان آراء فرويد ذات جانب واحد وغير ناضجة تمام النضوج ، وأن مصدر سرور الطفل فى الحصول على الغذاء هو (اللبن) ولكن يجب أن لا يوصف بأنـــه جنسى أبدا ، وذلك باعتبـــار أن الدافع الجنسى لم يتميز بعد عن الميل الابتدائى للحياة ، وينكر يونج أن (اللبن) جنسى بكليته وهو يعتبر أن اللبن هو ارادة الحياة •

وقد أجمعت الابحاث التى كتبها أقرب الناس الى فرويد ، ومنهم صديقه ومترجمه الدكتور أرنست جونز : على أن فرويد لم يكن (سوى) الطبيعة أو الصحة ، وأنه كان عرضة للاغماء على أثر بعض المفاجئات ، وكانت مرارة الطبع خلة ملازمة له فى علاقته بغيره ، وكانت لاحلامه وجوه خفية ترمز الى دلائلها فى سريرته الباطنة وكانت له ضروب من القلق تنم عن باعث من بواعث الحيرة المكتومة الباطنة •

وكانت أظهر حالاته الخاصة أنه يحـــارب التشبث بالعقائد الدينية والعادات والتقاليد الخلقية ، ولكنه يتشبث بالتفسير الجنسى للعقـــائد والعادات ، شيئا يفوق فى اصراره وشدته تعصب المتعصب اللدود لمذهبه ودينـــــه •

وقـــد تبين أن فرويد كان مجموعة من هذه العقد النفسية الى آخـــر حياته ، وكان ينسى الاسماء منها اسم أحد معارفه : الدكتور فرويد • •
وكان يتتبع أوراقه التى تدخل فى ترجمة حياته فيحرقها ، وكان فى طفولته ينسى نفسه ليلا فى فراشه (يبول فى فراشه) ، وكان يخشى من السفر بالقطار ، ويحضر الى المحطة قبل موعد قيامه بنحو ساعة وكان دائم العزلة ، ولا يسمح لأحد أن يصاحبه طويلا •

واليوم نجد أن العلماء قد مزقوا (نظريات فرويد) فى مؤتمرات عديدة للعلوم النفسية : منها مؤتمر شيكاغو ١٩٥٦ ، حيث كشف العلماء بوضوح عن فساد نظريات فرويد ، وقـــال الدكتور برسيفال بنلى مدير معهد النفسيات بولاية الينواز :

ان آراء فرويد لا تضيف شيئا الى القيمة الانسانية ، لانه يـــرد الانسان الى أغوار العقل الباطن ، ويهمل جانبه المنطقى والشاعر ، وأنه لم يكن يفهم المرأة ولم يكن يتذوق الموسيقى ولا يحس جلال العقيدة •

وقال آخرون : ان مصادر فرويد هى حوالى مائة مريض التقى بهم وليس بين مصادره سوّى واحد ، وهذا كله من شأنه أن يكشف فســـاد الأعتماد على آراء فرويد فى تقديم منهج لعلم النفس •

كذلك اعتمدت دراسات الاخلاق على مجموعة أفكار يونانية قديمة ، وتراث رومانى ونصرانى ، وقوام الفلسفة الاخلاقية الغربية الحديثة :

هى نظريات الصراع بين البشر وبين الله (سبحانه وتعالى عما يقولون

علوا كبيرا) الاسراء ، والخصومة بين الالهة والناس ، فالالهة تنتقم من الناس فى وحشية وعنف ، لتنفرد وحدها بالقوة ، وهذا الأساس الفاسد هو الذى يقوم عليه المفهوم الغربى والمسرحيات والقصص .

وقد اتصل هذا المعنى الاغريقى بالفكر الرومانى ، الذى يقيم فلسفته على أساس (أن أهل روما هم السادة والناس جميعا خارج روما عبد) .

ومن ثم علا مذهب المنفعة ، وقام كل شىء على أساس القوة وعبادة القوة ، اعتقادا بأنها وحدها مصدر الثروة ، وكانت الفكرة المسيطرة فى احتكار القوة واستغلال الامم لمصلحة روما (وهو ما يطبق اليوم بين الشمال والجنوب) وبين الاستعمار والدول النامية ، التى يطلقون عليها المتخلفة ، مع أنها هى المالكة الحقيقية للثروة التى ينتهبها الغرب .

والنظرية الثانية التى استمدت منها النظريات الاخلاقية الغربية هى : « الرهبانية » القائمة على تعذيب الجسد ، بحسبانها مثلا كاملا فى الدين والاخلاق ، والاحتباس فى الأديرة والغاء الزواج ، وهو تضاد للفطرة الانسانية وتقييد للطبيعة ، وكان من نتيجة هذه المعاكسة تفشى حركة الاباحية والمادية العاتية .

وقد ورثت الحضارة الأوربية المعاصرة هاتين النزعتين ، وتطورتا حتى جاء عصر النهضة فأعلى من قدر الانسان حتى أصبح معبودا ، ثم ظهرت نظريات دارون وماركس وفرويد ، وكلها تحاول أن تفرد الجانب المادى وبالاحرى الجانب الحيوانى فى الانسان بالحياة ، وتنكر جانبه الروحى .

ومن هنا تحول مفهوم الاخلاق الذى جاءت به الأديان الى أنانية شديدة ، ودعا ميكافيلى الى السلطة الاوتقراطية كوسيلة لترويض الانسان الذى وصفه بأنه مطبوع على الشر ، وانه أقرب الى الحيوان منه الى الملائكة ، كما دعا الى أن الغاية تبرر الوساطة .

ثم دعـــا فرويد الى اطلاق الغرائز الجنسية وعدم تقييدها ، وكـــان هذا مســـتمدا من الاخلاق اليونانية ، ثم أعلن دور كايم : أن نظام الاسرة والجمـــاعة ليس نظاما فطريا ، ثم أعلنت المـــاركسية أن الاخلاق خاضعة للظروف المعيشـــة لكل مجتمع •

وهكـــذا حاولت النظرة الغربية أن تجرد الاخلاق من فكرة الالتزام والواجب والضـــمير الخلقى ، بينمـــا لا يمكن أن توجد الاخلاق كقوة فاعلة فى المجتمع ، دون فكرة الالتزام ، بحسبان أن الالتزام هو العنصر الاساسى أو المحور الذى تدور حوله المشكلة اخلاقية •

ان زوال فكرة الالتزام يقضى على جوهر الحكمة العملية التى تهدف اليهـــا الاخلاق ، فاذا انعدم الالتزام انعدمت المســـؤولية ، واذا انعدمت المسؤولية ضـــاع كل أمل فى وضـــع الحق فى نصـــابه ، واقـــامة أسس العـــدالة •

ومفهوم « الالتزام » يقتضى أن تكون الفضـــيلة قوة فـــاعلة ، اذا ملأت نفس المرأ حفزته الى العمل النـــافع والى النشـــاط المستمر ، حيث تتحول الفضـــيلة من قوة معنوية فى نفس الى قوة حية ، ويكون (الخير الاخلاقى) بمثابة سلطة ملزمة يتقيد بها الجميع •

وقد دعـــا (القرآن الكريم) الى الالتزام الخلقى ، وكشف عن أن النفس الانســـانية عرفت منذ تكوينها الاول معنى الخير والشر ، « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »سورة الشمس — وان النفس الانسانية قـــد ألهمت الحدس الخلقى فعرف طريق الفضـــيلة والرذيلة « وهدينـــاه النجدين » سورة البلد •

وقد تنحرف الطبيعة الانسانية نحو الشر ، ولكن الانســـان قادر على أن يردهـــا ويستعيد قدرته وسيطرته على قيادها ، وفى النفس قوة كامنة

تهيء النصح « النفس اللوامة » وتحدد للانسان ما يجب عمله وما يجب تحاشيه ، هذه السلطة التى تسيطر على قدراتنا وعلى غرائزنا هى أسمى جزء فى نفوسنا .

وقد واجه مفهوم الاخلاق الغربى الوافد تحديا خطيرا بالنسبة للفكر الاسلامى ، وما جاءت به الاديان ، وخاصة فى دعوته الباطلة الى فصل الاخلاق عن الدين ، ذلك أن مصادر الاخلاق كانت دائما مرتبطة بالاديان نابعة منها ا وأن أى عمل أخلاقى لا قيمة له ، اذا لم تكن حركته قائمة فى اطار العقيدة .

وكان من أكبر أخطاء مفهوم النظرية الاخلاقية الغربية قولها بالخطيئة وأن النفس شريرة فى أصلها ، وقد جاء مفهوم الاسلام مقررا أن الانسان يولد على الفطرة ، وأن أهله هم الذين يوجهونه الوجهة التى يرونها وأن الانسان قابل لكل من وجهتى الخير والشر ، وأن بناء الارادة واقرار فريضة الالتزام الخلقى ، هو الذى يمكن من التوجه الى الخير « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » سورة الشمس — وقد عنى القرآن الكريم بايقاف المشاعر النبيلة ودعا الى الخير وإثارة مشاعر الاخوة والكرامة والرحمة .

كذلك كان من أخطر أخطاء النظرية الاخلاقية الغربية : القول « بتطور الاخلاق » والواقع أن الاخلاق ثابتة ، وأن الذى يتطور ويتغير هى التقاليد والعادات لأن الاخلاق جزء من الدين لا يتغير ، لاتصالها بالفطرة الانسانية الثابتة على مدى ازمان ، وان التقاليد هى من صنع المجتمع ولذلك فهى تتغير وتتغير .

ومن هنا فان الاخلاق الاسلامية : تتسم بسمة الثبات : وثبات الاخلاق من ثبات القيم العليا ، التى قدمها الاسلام فى اطارات واسعة ، ولم يسمح بتجاوزها ، وان أتاح لها فرصة الحركة فى ظل الضوابط

والحدود ، التى جاءت سمحة يسيرة بتقرير عامل الزمن ، ومراعـــاة الظرف والوسع والطاقة والتوبة •

وهنا تتمثل « وســـــطية الاســـلام » وواقعيته فى ارتباط المطلق بالنسبى والمثالى بالواقعى ، ومن نقطة ثبات الاخلاق ، يتبين الفـــارق بين الاخلاق والتقاليد ، فالاخلاق ثابتة لإنهـــا جزء من الدين الموحى به ، وهى بذلك شـــطر كيان متكامل ربانى المصـــدر انسانى الهدف •

أمـــا التقاليد فهى وسائل عارضة من صـــنع المجتمعات لا من صنع الله ، تختلف وتتغير باختلاف الزمن والبيئة •

مظـــاهر الثبـــات :

ويبدو ثبات القيم الاخلاقية فى قواعد الحلال والحرام والخير والشر ، والحق والباطل ، ويتجلى ثبات القيم فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، وبين الاسرة والابنـــاء •

ويخضـــع لقانون الثبات : الانســـان نفسه فى طبيعته وتدرجه من الطفولة الى الشـــباب الى الكهولة ومن ثبات القيم : ثبات حقيقة الموت •

وهكذا نجد أن اتخـــاذ مفهوم النظرية الاخلاقية الغربية فى دراساتنا وجامعاتنا له أثر بعيد فى تخريب النفوس الشـــابة ، التى تتصـــور أن هذه النظرية هى حقيقة يمكن اتخـــاذها مصدرا للسلوك بينما هى فى مجموع فروعهـــا تتعارض مع الفطرة ، وتختلف مع مفهوم الدين الحق ، وان من شـــأن الاعتقاد بها والتماسها فى التطبيق أن تصـــل بالانسان الى شىء غير قليل من التمزق والاضطراب النفسى والغربة ، لانه يفصـــل الانسان عن الفطرة والاصالة •

وشر مـــا تقدمه هـــذه النظرية من خطر هو تراخى مفهوم (الالتزام الخلقى) الذى هو فريضـــة حقيقة من شأنها أن تحقق بناء الشخصـــية الانســـانية على أساس متين وقادر على فهم الحياة والتكامل •

ان أبرز مفهوم الاخلاق فى الاســلام : « الالتزام الخلقى » الذى يتمثل فى الدعوة الى اتباع القواعد العــامة ، التى أمر الله بهــا ، مع ترك حرية التصرف والاختيار للمرء فى نطــاق التفاصيل ، التى تعرض تبعــا لتغير ظروف الحياة •

ومع ذلك فان القانون الاخلاقى فى القواعد لا يدعى أن هناك طريقة واحدة لفهم القاعدة ، أو أن هناك طريقة واحدة لتطبيقها •

ومن مضمون هــذه النظرية أنه بالالتزام الخلقى فى مفهوم الفكر الاســلامى ، نجد حلا جذريا للمعضلة التى أثارها الفلاســفة الغربيون ، لانها تقوم على وســطية الاسلام وتكامله وقدرته على الحركة ، دون أن يجنح الى الجمود أو التعصــب أو الانحراف ، ذلك أن قوام الاخلاق فى الفكر الاسلامى هو : الحرية والاختيار •

فلا أخلاق بغير حرية ، كما لا تكليف بغير اختيار ، لذلك يقرر الاسلام أن المكره اذا فعل مــا يكره عليه له عذره وقد ســمى الاســلام (حرية الارادة) : الكســب والاختيار ، وجعلهــما مناط التكليف ومدار العمل الخلقى ، ومن حرية الاختيــار أن يكون العمل الخلقى متصــفا بالطواعية والانبعاث من أعماق النفس ، حتى يكون صــادرا عن ارادة طيبة فى حب الخير والحق والفضيلة •

ولعل أخطر مــا تردده النظرية الغربية فى الاخلاق : انفصــالها عن الدين والدعوة الى أخلاق منفصلة ، وتلك نظرية خطيرة يعارضها الاسلام الذى يقوم مفهومه على التكامل بين القيم ولا يفصــلها ، فليس هنــاك أخلاق منفصلة عن الدين •

ذلك : أن المسؤولية الاخلاقية هى مســؤولية جزاء ، والجزاء من الدين ، فلو تقرر فى النفس أن ليس هنــاك دين ، فمعنى هــذا أنه ليس هناك جزاء ،وهناك لا تكون للاخلاق قيمتهــا الحقيقية المندفعة من أعماق النفس •

وقد أجمع كثير من الباحثين على أن العـالم فى العصر الحديث قـد تضـخم عقله وضعف روحه ، فالاخلاق لم ترتق ارتقاءا مناسـبا مع تقدم العلوم ، بل أن الفلسفات فتحت بابا من الوهم فى الاسـتهانة بأخلاقية العلم ، وان تقدم العلوم لم يضمن تقدم الاخلاق ، ذلك أن الانسـان قد أصابته لوثة من الغرور ، نتيجة توسـع مجال الكشـف والاختراع على الظن بأنه صاحب الفضل فيه «أنما أوتيته على علم عندى» سورة القصص— ولم يدر أنه من عطاء الله تبارك وتعالى ، ومن ثم : فقد أعلن خطأ ونكرا أن البشرية أصبحت راشـدة ، وليست فى حاجة الى توجيـه الدين ، ثم كانت انطلاقة الغرائز واللذات ، عاملا مؤشرا على فكرة الالتزام الخلقى ، وغلبة مذاهب المنفعة والانانية ، بالاضـافة الى عزل الاخلاق والدين عن مجـال التربية والتعليم فى الغرب ، كل هـذا أدى الى عزل الاخلاق عن حركية الحياة والمجتمع • وهذا مصدر « أزمة الانسان الغربى الحديث » •

وفى هـذا يقول العلامة « جود » أسـتاذ الفلسـفة الانجليزية فى كتابه (سخافات المدنية الحديثة) : « ان المدنية الحديثة ليس فيهـا توازن بين القـوة والاخلاق ، ومنذ النهضة ظل العلم فى ارتقـاء والاخلاق فى انحطاط ، وقد غلب على الفكر الغربى طابع التحرر المطلق فى مجـال المجتمع والمرأة والفن ، وظهرت الدعوة الى غلبة النزعـة الجمالية على النزعـة الاخلاقية ، وطغيان فكرة الفن للفن » •

ولا شك أن هـذه الحركة كانت رد فعل أكيد لمفـاهيم المسـيحية الغربية فى الاخلاق ، هذه المفاهيم التى قامت على أساس الحرمان والرهبنة وتعذيب الاجسـاد بما يعوق الفطرة ، مما خلف انفجارا طاغيا فى الدعوة الى التحرر ، فالتحلل ، وظهور مذاهب تجدد الدعوة الى الاباحة الاخلاقية « الابيقورية القديمة » بحسـبان أن اللذة الجسمية هى الغرض الاسمى من الحيـاة وان العقل والتفكير هى أكبر معول فى هدم الانسانية •

وكذلك كان ذيوع نظرية (فرويد) فى السـلوك الجنسى ، وظهور

الوجودية ، بمثـابة رد على تحدى الحربين العالميتين الاولى والثانية ، وكل المذاهب الفلسفية تظهر فى مواجهة تحديات ، وهى تحديات متموجة بالنزعة الابيقورية ، تظهر فى مواجهـة النزعة الرواقية ، والالحـاد يظهر فى مواجهة الجمود ، والتحلل يظهر فى مواجهة الرهبـانية ، والزهد يظهر فى مواجهة الترف ، ويرى الباحثون أنه لا توجد نظرية طبيعية تظهر من فراغ •

ولقد حاولت هـذه المذاهب اطلاق حرية الانسـان اطلاقا كاملا ، والسخرية من (الالتزام الخلقى) بحسبان أن المجتمع عدو للانسـان ، وقد قامت هذه النظرية على أساس [القلق ، الضياع ، العدم] وكلها نظريات وفلسفات مرتبطة بواقع المجتمع الاوربى وظروفه بين الحربين العـالميتين وبعدهمـا •

ومن هنا نجد أنهـا لا تصلح أسـاسا للثقافة العامة أو الدراسـة الجامعية ، من حيث أنهـا تمثل فكر أمة أخرى فى ظروف أزمة اجتماعية وأخلاقية وانسـانية ، ومن حيث أنها لا تتصل بقيم الفكر الاسـلامى ، وتعتمد على المفهوم المـادى • فضلا عن معارضتها للفطرة ، ومن حـق المسلمين أن يقدموا وجهة نظرهم فى الاخلاق والنفس جميعا •

ذلك أن الفكر الاسـلامى فى مفاهيمه الاساسية يستطيع أن يواجه الحيـاة الحديثة وتحديات الحضـارة ، على خير ممـا يواجهها به الفكر الغربى ، لانه يقوم على فكرة متكاملة جامعة بين الروح والمـادة ، وليست مادية صرفه ، ولانهـا تتصل بالفطرة الانسانية ولا تتعارض معها ، ولانها ربانية المصـدر ، وليست بشرية من أهواء الناس وشـهواتهم ، فان من شأن معطيات المفهوم اخلاقى الاسـلامى : أن يحفظ الشخصية الانسانية سليمة من عوامل الاضـطراب والقلق والضـياع والتفسخ ، ويعطيهـا الى ذلك قدرتها على الصـمود أمام الاخطار ويمنحهـا الارادة القادرة على التغيير •

لقد قدم الاسـلام للاخلاق مفهوما جامعا عميقا ، يقوم على أسـاس

الربط بين الدين والاخلاق • فالاخلاق معرفة وعمل ، والمبادىء الاخلاقية أســاس الواقع تستهدف تكوين وازع داخلى لمقاومة دافع الشر ، وهى ليست مجرد وعظية نظرية ، بل هى مبادىء ايجــابية محكمة بنيت على تقوم على الالتزام والتقوى •

ولقد عادل الاســلام بين الانطلاق والانضباط ، وأعطى المســلم « الاستطاعة » : « فاتقوا الله مــا استطعتم » آية : ١٦ التغابن) ورفع عنه القسروالاضــطرار والخطأ : « وليس عليكم جناح فيمــا أخطأتم به ولكن مــا تعمدت قلوبكم » الاحزاب : ٥ •

وفى هــذا المجال يدعو مفهوم الاخلاق الاســلامى الى : اتقــاء الشبهات ، وأعلن أن الحلال بيّن والحرام بيّن وأن بينهما أمورا مشتبهات ، فمن اتقى الشــبهات فقد استبرأ لدينه وعرضــه ، وأن البر مــا اطمأنت اليه النفس والاثم مــا حاك فى الصدر ، وخشيت أن يطلع الناس عليه •

وهكذا يحتضن الفكر الاســلامى مفهوما غاية فى الوسطية والمرونة والاعتدال والتكامل •

وبالنســبة للالتزام الخلقى ، فهو يقضى باتباع القواعد العــامة مع ترك حرية التصرف والاختيــار للمرء فى نظــام التفاصيل تبعــا لتغير الظروف ، وتلك قاعدة مرنة فى الاختيار والتصرف وفيهــا جانب الاجتهاد الشــخصى •

اختــلاف بيّن :

ومن هــذا كله نجد أن مفاهيم النفس والاخلاق الاســلامية تختلف اختلافا واضــحا وعميقا عن مفاهيم الفكر الغربى ، التى يدرســها أبناؤنا

واخوتنا فى عديد من الجامعات والكليات ، تحت اسم فرويد وسارتر وماركس ودور كايم وديوى ٠

ولا مانع من تدريس هــذه النظريات على أنهــا نظريات وفروض تقبل الخطــأ والصواب وأن للاسلام ازاءها وجهة نظر ومفهوما واســعا عريضا مستمدا من الفطرة وأقرب الى العلم والاصــالة منها جميعا ٠

---

(١) الابيقورية : نسبة الى الفيلسوف الاغريقى ابيقور الذى كان يقــول بحرية اللذة .

(٢) الرواقية : مذهب مناقض للابيقورية .

الفصـــل الثانى عشر

حضارة التوحيد وحضارة الوثنية

ان مفهوم « الحضـــارة » المطروح فى مناهج الدراسات الجامعية والمدرســـية ، يدور كله فى فلك الحضـــارة الغربية ويقوم على مجموعة من المسلمات التى يراد فرضـــها على العقلية الاسلامية والفكر الاســـلامى ، على نحو يخلق التبعية العقلية والاجتماعية ، ويستهدف القول فى مجموعه : بأن هناك حضـــارة واحدة عرفتها البشرية ، بدأت فى أرض اليونان وانتهت اليوم فى الحضارة الغربية ، وان كل حضارة ظهرت بين ذلك فهى امتـــداد لهذه الحضارة وجزء منها ، وأن الحضارة الاسلامية ما هى الا رافدة من روافد الحضـــارة الغربية ، وهو غير الحق ، وقد حفلت الدراسات المختلفة المقدمة فى مناهج الدراســـة بالشبهات التى تحـــاول أن تغض من شـــأن الحضارة الاسلامية ، وتوجه اليهـــا الاتهامات والشكوك •

فهم ينسبونها الى العرب مرة وينسبونها الى انها نتاج الفكر اليونانى أو القانون الرومانى مرة أخرى •

طرحت تلك المفـــاهيم التى تغض من شـــأن الحضارة الاســـلامية فى أفق كل الدراســـات والمناهج ، فى دراسات القانون ودراسات الفلسفة ، ودراســـات العلوم ، فى محاولة لانكار فضـــل العرب والمسلمين والقول بأنهم أقاموا حضـــارتهم على فلســـفة اليونان وأنهم لم يقدموا شـــيئا للبشرية •

وقد وضـــعت جميع النصوص التى كتبها المتعصبون على الحضارة الاســـلامية بين أيدى الشباب المسلم ، من أمثال ما كتب رينان وجلدسيهر وماسنيون ، بينما حجبت الكتابات المنصفة التى كتبهـــا جوستاف لوبون وكارليل ودرابر وغيرهم •

بل لقد وصفت هذه المنصفة بالسذاجةوالخلط لانها تقول الحقيقة وتحول دون هدف الاحتواء الذى يفرضه التغريب .

حضـــارة التوحيد :

وقد انطلقت ابحـــاث الحضــــارة المطروحة فى أفق الفكر الاســـلامى من منطلق الاســـتعلاء باللون أو الجنس ، تقول هـــذه النظرية : ان هناك حضـــارة عالمية واحدة ، وان العرب والمسلمين كانوا حلقة من حلقات هذه الحضـــارة .

والواقع أن الحضـــارة الاسلامية — بالرغم من أنهـــا أخذت الخيوط الاولى لمـــا كان معروفا فى العالم القديم من علوم — فانهـــا ابدعت حضارة جديدة لهـــا ذاتيتها الخاصة وطابعها المميز ، وان الاســـلام قد قدم مفهوما جديدا « للتحضر » يختلف عن مفهوم « المدنية » المـــادى المرتبط بالعمارة والصناعة والرياضيات والفلك والجغرافيا ، ذلك الذى قـــدمه الاســـلام ، انمـــا هو بمثابة الوعاء الذى تصاغ فيه المدنية من بعد وتصهر فيه العلوم ، ذلك هو التوحيد والايمـــان بان الله تبارك وتعالى هو الخـــالق والزارع والصانع ، وهو القائم بقدرته من وراء الكون كله ، ســـاعة بعد ســـاعة ولحظة بعد لحظة ، وأنه هو الذى أنشأ هذا الكون من العدم وأنه أقـــام له قوانين وناميس يتحرك من خلالها الى أجله المحتوم .

وقد اطلع الله تبـــارك وتعالى البشرية على بعض هـــذه القوانين والنواميس حين جاءات رسالة الاسلام بالقرآن تضع هذه المفاهيم بين يدى الانسان لينتفع بها فى سعيه الى استكناه الكون واستخراج ثروات الأرض ، وان هذه الدعوة التى وجهت الى البشرية بالنظر الى السموات والارض .. والتفكر فيهمـــا : كانت منطلق « التجريب » الذى عرفه المسلمون وحاكموا اليه كل الفكر القديم الذى عرفته حضارات بابل وفارس والفراعنة واليونان والرومان ، فصححوا اخطاءه ورفضـــوا مـــا كان منه قائما على الســـحر والخرافة ، وحولوا خلاصـــة هذا التراث القديم الى مادة خام صنع منها

ومن غيرهـا « المنهج العلمى التجريبى » الذى قدمه العلمـاء المسلمون للبشرية •

هـذا فى جانب العلم ، أمـا فى جانب الحياة فقد قدم الاســلام مفهوم المســاواةوالاخاء الانســانى ووحدة البشرية كلهـا لادم ، وآدم من تراب وأنه لا فضل لعربى على عجمى ولا لابيض على أسود الا بالتقوى وبذلك شجب الاســلام النزعة العنصرية وقضى على مفهوم العبودية الذى قامت عليه حضارات الفراعنة والفرس والرومان •

هذا هو اطار الحضــارة الذى اقامه الاسلام لتصاغ فى اطاره المدنية المـادية القائمة على العمارة والصناعة والرياضــيات والفلك والجغرفيا ليكون ذلك كله خالصا لله (تبارك وتعالى) مستهدفا أقامة المجتمع الربانى القائم على العدل والرحمة والكرامة •

ومنــذ جاء الاســلام فان حوض البحر المتوسط قد انشــطر الى حضارتين : فقد برزت حضــارة لها طابعها وذاتيتها وتشــكيلها الروحى والفكرى والنفسى والاجتماعى ومن خلال الاســلام قامت حضــارة لها مضمونها الاجتماعى ولهـا نظريتها الخالصة ولها أسلوبها فى المعرفة ولها منهجهـا العلمى التجريبى الذى قدمته الى البشرية كلهـا ثم قامت عليه الحضارة العالمية الحديثة •

هذا التميز الخــاص بالحضارة الاسلامية قد عرفه رجال تشؤوا فى اطار الحضارة الغربية ، وقارنوها بالحضــارة الاسلامية :

يقول الاســتاذ ليوبولد فايس : « ان الحضــارات المختلفة قامت ونشأت رويدا رويدا من تراث الماضى ، بما حوى من ضروب الرأى وتيارات الفكر ، التى استغرقت فى تبلورها الى شكلها الخاص وكيانها المحدد أمادا طويلة من الزمن ، وقد انفردت حضارة الاسلام وحدها بانبجاثها الى الحياة دون سابق عهد أو انتظار ، وقد جمعت فى فجر نشأتها كل المقومات الاساسية

لحضـــارة مكتملة شابة ، فقامت فى مجتمع واضح المعالم له نظرته الخاصة الى الحياة ، وله نظامه التشريعى الكامل ، وله فهمه المحدد لعلاقات الافراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع •

ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخر بهـــا الماضى ولا وليدة تيارات فكرية متوارثة ، ولكن هذه الحضـــارة كانت وليد حادث تاريخى فريد ، هو تنزيل القرآن الكريم وكان مردها الى رجل فذ فى التاريخ هو « سيدنا » محمد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ •

فلقد أدرك الذين أمنوا بالاسلام واتبعوا محمدا صـــلى الله عليه وســـلم ، وصـــدقوا بالقرآن فاتخذوه قاعدة حياتهم ، ان الدين الجديد الذى جاءهم به القرآن : يتطلب منهم هجرة بائنة الى مـــا جاءهم به • عمـــا توارثوه من عقائد الحياة ومـــا الفوه من مناهج السير فيهـــا ، فكان قبولهم لمـــا جاء به بداية حدث جديد فى حياة البشر وتاريخهم •

اذا أنهم أدركوا أن الاســـلام وقد جاء نظاما شاملا للحياة قد افتتح حقا حضارة جديدة ، وما كان دوره ليقتصر على التمهيد لغيره من الحضارات والارهاص بها فتبينوا كمـــا تبين من جاء بعدهم : أن مبعث رســـول الله صلى الله عليه وسلم كان إيذانا ببدء عهد جديد بكل مـــا ينطوى عليه البدء من حقائق ومعان •

ولن يفهم من هـــذا أن الاسلام قد قطع كل صلة بين حضـــارته وبين الماضى ، فهذا فهم لا يقبله العقل أو يستسيغه لان كل كائن عضوى لا يمكن أن يوجد دون اســـلاف وأباء ، فلن ندهش اذن حين نرى أن مـــا جاء به رسول الله « صلى الله عليه وسلم » على مـــا هو عليه من جدة فى النظر الى الكون والحياة ومن استحداث نظام اجتماعى كامل يتضمن كثيرا مما جاءت به الاديان ويتحدث عن كثير من الفضائل الخلقية التى كانت لدى من سلف قبله ، ولم يتنكر لهذه الفضائل والحقائق أحد من أهل الاسلام ، بل لقد كان القرآن ذاته أصرح ما يكون اعترافا وتسليما •

والقرآن الكريم هو الذى دعا الى العلم والعقل والبرهان ، فحقق قيام « منهج التجريب » وهو الذى دعا الى وحدة البشرية والاخاء الانسانى فحقق تحرر الانسان من عبودية الاباطرة والأكاسرة ، وللقرآن هو الذى دعا الى التوحيد فحقق تحرر العقل الانسانى من الوثنية وعبادة الاحجار •

هذا هو التميز الواضح الذى يقطع بأن حضارة الاسلام لم تكن حلقة فى حضارة سابقة أو لاحقة ، ومنه يتكشف زيف الدعوى بالقول بأن العرب والمسلمين لم يكونوا فى وجودهم التاريخى الضخم الذى انفردوا به الف سنة كاملة على الاقل • (منذ بزوغ الاسلام الى ظهور النهضة الاوربية الحديثة عام ١٥٠٠ م) الا جزءا من حضارة البحر المتوسط ، أو مرحلة من مراحلها ، بل كانت حضارة الاسلام « **وجودا ذاتيا قائما بالحق** » شطر البحر المتوسط ولا يزال يشطره الى حضارتين •

ولا ريب أن الحضارة الغربية الحديثة ، حين أخذت منهج التجريب الاسلامى ، قد سجلت على نفسها أنها تنطلق من حيث قامت الحضارة الاسلامية فى هذا الجانب وحده ، دون أن تأخذ بمفهوم الاسلام المتكامل فى الإخاء البشرى أو صياغة العلم والحضارة فى « بناء المجتمع الربانى » الذى دعت اليه أديان السماء ورسم الاسلام منهجه كاملا •

وهذا الفهم الواضح الصريح يرد زيف دعاوى الفهم الذى اعتمدته المناهج الدراسية والجامعية والذى يقول (الحضارة العربية) ولا يقول (الحضارة الاسلامية) هى حضارة سطحية ظاهرية انتجتها عقول أوربية ومنابع يونانية فارسية هندية وحيثما وجد الانسان ظاهرة من ظواهر الحضارة فى البلاد العربية فلا بد من ارجاعها الى عقلية أرية وانتاج غير سامى •

وقول ماسينيون : ان كبار رجال الحضارة الاسلامية لم يكونوا ذوى دم عربى محض بل موالى مستعربين ، قول غير دقيق ، وقد رد كثير من كتاب العرب والمسلمين على هذه الاتهامات •

يقول الدكتور جواد على : ان هــذه النظريات لا قيمة لهــا أبدا ، اذا لم تدعم بالنصــوص والبراهين ، كمــا أن الاستشهاد بحادثة أو رواية لا يتخذ حجة للحكم به على أمة ، وانى اســتطيع أن أجعل الامة الجرمانية أمة همجية بربرية خاملة لم تنهض الا اخيرا بالاســتناد الى النصوص الجرمانية نفســها ، وعن طريق مجموعة من المصــادر والمنابع عن التاريخ الجرمــانى .

ويستطيع كل مؤرخ أن يفعل ذلك فى تاريخ أى أمة ، وأعتقد أنه لو كانت الامة العربية قوية فى الوقت الحــاضر لكانت النظرية على عكس ذلك تماما ، ويقــول : ان الحضــارة الاسلامية ليست حضــارة عنصرية ، وقد اشترك فيهــا كل الذين اعتنقوا الاســلام بصرف النظر عن اجناسهم ، فان القرآن واللغة العربية التىشكلت الفكرالذى صنع الحضــارة ، ولقد جاءت حضــارة الاسلام بعد حضارات العبودية الفارســية والفرعونية والرومانية ، وعبادة الفرعون والقيصر وكسرى لتقدم للبشرية الاخــاء البشرى والعدل والرحمة ، وترفع العبودية عن العقيدة وعن علاقة الانسان بالانســان .

وبذلك فهى تختلف أشــد الاختلاف عن الحضــارات اليونانية وغيرها وعن الفكر اليونانى وغيره .

ولكن هــذه الحضارة استطاعت أن تصهر فى بوتقتها مــا كان موجودا فى العالم من ومعــارف بعد أن امتحنتها واستصفتها وادخلتها فى بوتقــة « التجريب » الذى هو المنهج الذى صــنعه المسلمون ، وقدموه للبشرية وقامت عليه الحضــارة المعاصرة ، وان مــا وجده المسلمون لدى اليونان لم يكن ســوى نظريات بعضها صحيح وبعضها خاطىء فضلا عن الخرافات والاســاطير التى استبعدها المسلمون تماما .

ومن ناحية أخرى فان منطلقات الحضــارة الاسلامية وغاياتها تختلف عن منطلقات الحضارات السابقة عليها من فرعونية وفارسية ويونانية وما تلتها من حضارات الغرب الحديثة .

ولذلك فان محـــاولة فرض مفاهيم عامة وقوانين شـــاملة للحضارة البشرية ، تحاكم اليهـــا الحضارة الاســـلامية ، من شأنه أن يكون قاصرا ، لانه يعجز عن اســـتيعاب ذلك التباين الواضـــح فى المنطلقات والغايات التى يمثلها الاسلام :

أولا : فى مســـألة التقدم :

فالاســـلام يفهم التقدم على غير مـــا تفهمه الحضارة الغربية ، وهو لا يقر التقدم المـــادى الخالص ، ولا يرى تضحية القيم الاساسية من أجل هـــذا التقدم المادى ، ويقرر الاسلام ان الرقى مادى وروحى معا ، وان كليهمـــا لا يعارض الآخر ، وانهما وجهان للحياة الانسانية يتكاملان معا ولا يصـــلح احدهما دون الآخر •

وان التقدم الاســـلامى مفهوم متكامل أساسه « انسانى » جامـــع للمعنويات والمادة ، والتقدم المادى وحـــده ليس فى نظر الاسلام تقدما كاملا ، والاســـلام دعوة الى التقدم فى اطـــار الاسلام والايمان وسيادة الانسان على الكون تحت حكم الله •

ثانيـــا :

ان طابع الحضـــارة الاسلامية أخلاقى فى أســـاسه ، وان ثمة أرتباطا وثيقا بين الحضـــارة وبين الايمان بلله ، بينمـــا لا ترى الحضارة الحديثة آن « الاخلاقية » أساس من اسسها ، وتستبدل بهـــا (النفعية) والتبرير القانونى الذى قدمه ميكافيلى ونظرية الذرائع لديوى •

ثالثـــا :

يقوم المفهوم الاســـلامى للحضارة على التكامل ، بينما تقوم الحضارة الغربية على مفهوم تجزئة الكون والطبيعة « والفصل بين العالم وصانعه » •

رابعـــا :

تقوم الحضـــارة الاســـلامية على مفهوم العدل الشـــامل للبشرية كلها ، بينما تقوم الحضـــارة الغربية على مفهوم التحيز بالعدل للجنس

الابيض وحده ، مع النظر الى باقى الامم على انهـا أقل درجة من ناحية العنصر أو الكفاية •

خامسـا :

فصـل الاسلام بين العقيدة التى يجب احترام حريتها عند الآخرين ، وبين المصالح الدنيونة التى تعتمد على الكفاية والامانة ، والتى لا تميز بين دين ودين ، فى سـبيل التعاون ، لتحقيق المثل العليا الانسـانية بينمـا لا تعترف الحضـارة الغربية بعقائد ولا حريات الآخرين •

سادسـا :

يقوم مفهوم الاسـلام على « الاخاء البشرى » بينمـا يقوم مفهوم الحضـارة الغربية على مفهوم العنصرية والصراع بين القوميـات ، ويقيم مفهومه الاسـتعمارى على أساس ابادة الاجنـاس المقيمة ، واستعباد الاجناس المهاجرة •

وقد أشـار كثير من الباحثين الى : أن عقلية الرجل الابيض مسممة بالتعصب العنصرى ، والتفوق العنصرى ، ورسالة الرجل الابيض ، وان الثقافة الأوربية لم تتخل قط عن نصرانيتهـا وتعصبها •

ومن أخطر مفاهيم الحضـارة الغربية انهـا رفضت مزاحمة المسلمين لهـا فى أوربا فقالت : ان المسلمين يجب أن ينتهوا عند جبال البيرنيه •

يرفض المفهوم الاسـلامى للحضـارة الكثير من مقاييس الحضـارة الغربية التى لا تتفق مع الفطرة أو القيم أو واقع الحياة :

١ — يرفض الفكر الاسـلامى فكرة التفـوق لبعض الامم ، وهى التى تهدف الى فرض تفوق موهوم للجنس الابيض أو للجنس اليهود ، والمعروف ان هـذه النظرية قد تعين فسـادها وزيفها ، والحقيقة العلمية أن الاجناس كلهـا شاركت فى بقاء الحضـارات الانسانية •

٢ — يرفض الفكر الاسـلامى فكرة التفسير المادى للتاريخ ويرى

أن الاقتصـــاد عامل من عوامل متعددة تصـــنع التاريخ ، وان للاحداث التاريخية جانبين مـــادى وروحى ، وقد تبين خطأ القول بأن الحضـــارات والحروب والمجاعات وقيام الدول وسقوطها ، يرجع الى العوامل الاقتصادية المجردة أو صراع الطبقات •

٣ — رفض الفكر الاســـلامى الصراع بين ايديولوجيـــة الحرية وايديولوجية العدل ، حيث قدم الاســـلام مفهوما جامعا للحرية والعدل ، بعيدا عن انحرافات الرأســـمالية التى تؤله الفرد ،والماركسية التى تؤله الجمـــاعة •

ان الدراســـة الاصيلة للعلاقات بين الحضارة الغربية وبين الحضارة الاسلامية ، تكشـــف عن ان النفوذ الاجنبى (اســـتعماريا وصهيونية وماركسيا) حاول أن يتخذ من أدوات ووسائل الحضارة الغربية ســـلاحا لهزيمة المسلمين والحيلولة دون نهضتهم أو الوصول الى مكانهم الحق ، ووجه كل اســـلحته الحربية والعلمية والفكرية والاجتمـــاعية والاقتصادية الى العالم الاسلامى ، على تعبير أحد رجالهم — الفريد كانتول سميث بقصد اذلاله وتحقيره وأشـــعاره بالضآلة والخنوع كما حاول أن يتخذ من سلبيات الحضـــارة عاملا من عوامل الهزيمة للمسلمين •

بل أنه حجب عن المســـلمين كل أيجابيات الحضارة وخاصـــة العلم والتكنولوجيا واغرق العـــالم الاســـلامى فى جوانب الفســـاد والتحلل والمغريات وفى مقدمتهـــا « الخمر » •

يقول هنرى دى كاســـترى : أن أحدّ ســـلاح يســـتأصل به العرب والمسلمون ، وأمضى سيف يفتك بهم هو الخمر ، وقد جربنا هذا الســـلاح على أهـــل الجزائر فأبوا أن يتجرعوه ، فتضـــاعف نســـلهم ، ولو قبلوه لاصبحوا أذلاء ، وكذلك ســـلطت الحضارة الغربية الربا على المسلمـــين فاستأصلت ثرواتهم وامكانياتهم الاقتصـــادية •

ان من اخطر مقاتل الحضـــارة الغربية ، اســـتعلاء عناصر التحلل

والانطلاق من اطار الضـــوابط ، وكذلك استعلاء فكرة الحرب والابادة .

يقول رومـــان رولان : ان هـــذه الحرب نزاع دنس تتذوجه أوربا المجنونة وهى تســـير الى حتفهـــا كهتلر الذى قضى على نفسه بيديه ، أن القتال لم يتوقف يوما واحدا ، منذ نشبت الحرب الاولى عام ١٩١٤ .

وطبيعة الحضـــارة الغربية طبيعة حربية واتجاههـــا الى انشاء وسائل الحرب أكبر من اتجاهها الى وســـائل العمران وقد استغلت فيها سيطرة الآلات .

يقول هنرى فورست : ان عصر الالات هـــذا نعيش فيه كى يظـــل كشـــبح الوحش بتهديد الهـــائل على طريق الرقى الانسانى . وقد صرنا جميعا منقسمين الى طوائف وأصبحت شخصيتنا تخبو وتختنق وتتضـــاءل الى حـــد عظيم .

وان الفكر الاسلامى ليرفض هذه الانحرافات التى تمر بها الحضارة الغربية ، والتى توردها مورد الهلاك ، فقد حملت الناس على الانصراف عن المعنويات الى المـــاديات ، ودفعتهم الى ذلك الاندفاع وراء تملك الاشياء والاســـتهلاك ، وهى نفس العوامل التى أدت الى ســـقوط الامبراطورية الرومانية . كذلك ضـــعف الروح الدينية عند الافراد والجماعات .

وقد بدأ هـــذا بعد الحرب العالمية الاولى وعلى اثر ويلاتهـــا ، وظهور طابع الوحشـــية الذى القى ظلالا كثيفة على روح العدل الانسانية ، وبعد ذلك ضـــعف نظام الاسرة وتداعى صرحهـــا ، وضعفت الروابط الاجتماعية لنقص القوانين وعدم وفائها بحاجات التضـــامن والتكافل الاجتمـــاعى ، والاشتراكية المتطرفة تحت ســـتار الديمقراطية الكاذبة .

لقد حرص المسلمون فى مفهوم الحضـــارة على الحفاظ على « الذاتية الاســـلامية » والشخصية الحضارية ، والتمسك بالاصالة والحيلولة دون الانصهـــار فى اتون العالمية أو الاممية ، أو السقوط فى مصيدة الاحتواء الخـــارجى ، ولم يكن شـــغل المسلمين الشـــاغل على مدى التاريخ انشاء

شخصية حضـــارية ، بل كان هدفهم حماية الشخصية الاسلامية الحضارية من ان تذوب وتتلاشى فى شخصيته حضارية أخرى ، ولقد كانت صـــيحة قادة الفكر الاســـلامى والحضارة الاسلامية أن المسلمين ليســـوا فى حاجة الى أن تصرعهم هذه الحضارة المـــادية ، وليس من مصلحتهم أن يذوب وجودهم فى خضمهـــا كذلك فان أبرز أخطاء المفهم الغربى محـــاولة محاكمة الاسلام الى واقع المجتمع الاسلامى المعاصر والخلط بين الفكرة الاسلامية الربانية وبين التطبيق البشرى المتناقض ولا ريب أن المنهج العملى الاصيل يفرق تماماً بين الامرين : بين حكم الاســـلام فى شىء وموقف المســـلمين منه : أى الفرق بين قوانين الاســـلام وتطبيقات المسلمين •

وتختلف الحضـــارة الغربية عن مفهوم الحضـــارة الاسلامية فى أمور اساسية ورئيسية :

أبرزها ايمـــان الحضارة الغربية بالربا ونســـبية الاخلاق والتطور المطلق ، بينما يقيم الاســـلام حضارته على الاخلاق الثابتة باعتبارها جزءا من الدين لا ينفك عنه ، ورفض الربا رفضا تاما ، والايمان بالتطور فى إطار جوهر الثبات •

وللاسلام موقفه من المرأة وعملها واختلاطها وارتباطها بالمجتمع ، وله موقفه من مفهوم الترف والرفاهية ومن مفاهيم اللباس والزى ، ومن التفرقة بين رجولة الرجل ، وأنوثة المرأة ومن تعرية الجسم وستره ، ومن مختلف قضايا الخمر والميسر والاباحية •

والاسلام يرفض هذه الجوانب من الحضارة الغربية التى تقـــوم عـــلى وثنية الترف والتحلل والتعرية ، ويفرق بين الحضارة وبين العلم المتحـــرر •

ويرفض الاسلام الاتجاه الذى يحاول به بعض الباحثين استعمال مفاهيم الاسلام بتأويل النصوص أو تبرير الحضارة فى وضعها الحالى ،

فالاسلام لا يقر الواقع الفاسد ولكنه يطالب الحضارة بأن تعدل نفسها لتتفق مع قيمه وتتحرك فى اطاره .

ان الحضارة الغربية قــد خرجت عن نواميس الحضارات الصالحة للبقاء ، فقــد عقت الفطرة واستعملت العلم فى سبيل الابــاحة والقتل الجماعى ، وقــد عجزت عن أن تتجاوب مع تماسك القيم فى علاقات الامم والشعوب ، وهى تتجه الآن الى الانهيار والدمار .

لقــد بدأت الحضارة الغربية دورتها منذ أوائل القرن الخامس عشر حين كانت الحضارة الاسلامية قد أوشكت أن تبلغ نهاية الدورة التاريخية لها ، فحملت منذ ذلك الوقت الى اليوم فى سبيل هدفها الذى اتخذته عنوانا لها « الرفاهية » وقدمت فى هذا المجال معطيات باهرة لاسعاد الانســان الغربى مهما كانت الوسائل ، ولكنها واجهت التحديات الخطيرة التى أدخلتها مرحلة الازمة لعدة أمور :

أولا : لانها ربطت الحضارة بالاستعمار ، وجعلت من الشعوب والأمم النامية مصدرا لخدماتها وسوقا لمنتجاتها وقــد جرى ذلك فى كل حركات الاحتلال والغزو والسيطرة السياسية والعسكرية .

ثانيا : لأنها عزلت نفسها عن المفهوم الانسانى الكامل الجامع بين الروح والمــادة .

ثالثا : لاستعلائها الجنس الأبيض صانع الحضارة الذى لا يقهــر (فى تقديرهم) وتجاهلها الدور الذى قامت به الحضارة الاسلامية فى بناء المنهج التجريبى .

رابعا : لغلبة الطابع المادى الصرف وأسلوب التعامل الربوى اليهودى والسيطرة الاقتصادية والغزو الفكرى .

خامسا : معاملة الاجناس المختلفة معاملة عبودية ، واحتجاز الكرامة الانسانية والحرية والرفاهية لاهلها وحدهم .

وقــد شهد بهذا الانحراف كثير من البــاحثين الغربيين المنصفين : تقول الكاتبة الفرنسية « مدام سنت بوانت » :

« انى أتهم المدينة الغربية بأنها قصرت فى القيام بالمهمة التى تزعم أنها ألقيت على عاتقها فى الاجيــال الاخيرة ، أعنى المهمة التى ترمى الى نشر تعاليم الانسانية وتعميمها على وجه الأرض بحيث تؤدى الى الاتحاد .

ويمكن للانسان أن يعبر عن هذه المهمة العظيمة بوسيلتين لا غيرهما وهما وسيلة حب الذات ووسيلة حب الغير ، أما الغرب فانه لم يقع اختياره لها جريمة ، وكان ذلك سبب ضياعه واضمحلال نفوذه ، لأن الوسيلة التى لجأ اليها ملعونة ، أن الانانية تقضى على الخير ، وتلتهم كل بر ، لقــد أراد الغرب أن يوجه العالم ولكن تحت سلطانه ومصلحته ، والعالم لا يساس الا بالعدل ، وبالحب والاخاء ، وبرد الحقوق الى أهلها .

ولكن الغريب لجأ الى القوة الغاشمة واعتمد على القوة وحدها وعبث بالشرائع الدينية وخالف تعاليم المسيح عيسى عليه السلام الذى أمــر بمحبة الناس جميعا .

لقــد أضاء « الشرق » دياجير أوربا بنور تعاليمه وما هذه العلوم التى يفخر بهــا الغرب الا من علوم الشرق ، وليس الذى يحجب النور عن الانظار هو مدينة الشرق القديم ، بل الوثنية الغربية ودين القوة وحب الذات والانانية التى يعمل بها الغرب ، لقــد اختــار الغرب الرذيلة على الفضيلة ، وانه بالتجائه الى الوســائل التى لا تعرفها الانسانية فقــد أثبت أن مدينته فشلت .

ويعنى هــذا أ نالحضارة الغربية انحرفت عن طريق الاصالة ، حين

عجزت أن تتحرك حركتها داخل اطار الربانية والالتزام الاخلاقى وتقدير مسئولية الانسان وجزائه ، ولقــد عجزت عن المحافظة على القيم الانسانية للحضارات ، فهى قــد قامت أساسا على المادية ثم تطورت مفاهيمها فى ظل عوامل ذات فــاعلية الى تغليب مفــاهيم اطلاق الغرائــز ، وتقرير « حيوانية » الانسان ثم اندفعت الى تقرير الحرية على النحو الذى حطم كل الضوابط والقيم والحدود التى من شأنها أن تحمى الوجود الانسانى عن أن يدمر نفسه أو يدمر مجتمعه .

ولعل « الدوس هكسلى » حين يصور هذه الزاوية يكشف عن حقيقتها فى وضوح حين يقول :

ان الحضارة قــد دفعت النــاس الى التمرد على حيــاة الروح . والاندفاع وراء المادة وقصرت جهودهم على المتع والرغبات ، وأعرضت بهم عن المثل العليا .

وان اندفاع العالم الى الاستمتاع قــد شاع فى أقوال المؤلفين ، والشعراء والممثلين فى سبيل الدعاية للحياة المستهترة والاباحية ، وقــد بالغوا فى مدح الحرية والتوسع فيها ، حتى أصبحت مرذولة مبغوضة كالسم الذى ينقلب داء بعد أن كان دواء .

وان المثل العليا حقيقة زاهية لا شك فيها ، لأنها ضرورية للعالم . وهى الوسيلة الوحيدة للقضاء على الفلسفة المادية التى أعجب بها هــواة اللذات والباحثون عن مسرات الحياة بأنواعها ، وان النفوس البشرية لتضيع فى سبيل هذه الملذات وتفقد الثقة بالفضائل ، وقد أجمعت أرقى العقول فى سائر الأزمنة والامكنة على أن غــاية الانسانية هى الســلام والمحبة والعدل ، ومن المحبة الاخوية نشأت فكرة الوطنية ، وهى فكرة اذا لم تفهم على حقيقتها جلبت الشقاء على جميع الاوطان » .

ان الفوارق العميقة بين وجهة الحضارة الغربية ووجهــة الحضارة

الاسلامية ، تفرض على المسلمين ان يواجهوا دراسات الحضارة المطروحة فى أفق الفكر الاسلامى بحذر شديد ، لأنها تحاول خداعهم عن حقيقة مفهوم الحضارة الاسلامى : ان أخطر انحرافات الحضارة الغربية فى مفهومها هو ما يغلب عليها من اطلاق الشهوات وما تحمله من هوى فى مواجهة شرعة الحق ، وما تؤمن به من استعلاء على العناصر الملونة ، وهى تطرح فى آفاق الأمة — التى كانت موضع نفوذها بالاحتلال أو بالسيطرة الاقتصادية — مفاهيم تستهدف تدمير قيمها وقواها المعنوية ، وأفساد شبابها وتبديد ثرواتها بالترف والانحلال لتظل الامة الاسلامية عاجزة عن امتلاك ارادتها واقامة منهجها الحق •

وقد جاء من دعاة الحضارة الغربية من قومنا من يدعون الى تقبل الحضارة الغربية خيرها وشرها ، وما يحمد منها وما يعاب ، وتلك دعوة باطلة مسمومة مردودة على قائليها ، فالمسلمون لهم مقاييسهم فى فهم الاقتباس والنقل من الحضارات والثقافات ، وهم يرفضون هذه الدعوة الى احتوائهم والسيطرة عليهم وتذويبهم فى أتون العالمية الاممية بينما هم يؤمنون باخلاقية الحضارة وربانيتها •

وقد جعل الاسلام للاخلاق المكان الأرفع عناية ، وتعتبر مكارم غاية الدين الحق ، وثمرة لوسائله المختلفة وقد عمد الاسلام الى حياطة هذه الضوابط بتحريم الينابيع الثلاثة للشرور : الخمر والميسر والزنا تحريما لا هوادة فيه ، مع ايجابية الامر بالمعروف والنهى عن المنكر •

واباح الاسلام لكل انسان أن يستعمل حقه الطبيعى فى كل ما لا ينافى القانون العام ولا يجافى ناموس الاخلاق أو ما علم من الدين بالضرورة •

ويقرر الاسلام أن العلم وحده لا يكفى لوضع حد لشرور العالم وآثامه ، والعلم وحده لا يكفى للخلاص من الصعاب المحيطة به من كل

جانب ، وان الحضارة يجب أن تقوم علـى المعنويات وتوفق بين العلم والروح ، كما تلائم بين العقل والقلب ، والحياة لا تكون آمنة يسـودها رحمة وسلام اذا إعتمد العلم هذه الأوضاع .

يقول الدكتور قدرى حافظ طوقان :

« لقـد استغل العلماء العلم بعيدا عن قوى الروح والقلب ، فأعلوا من شأن العقل والعلم علوا كبيرا ، وحكموا العقل فى القلب ، كما حكموا العلم فى الدين ، فنتج عن ذلك ما نراه من فوضى خلقية وحروب طاحنة رهيبة ، فاستأسدت الغرائز ، وأسرفت المطامع ، فاذا آلة العلم تتجه نحو التدمير والتخريب ، والفتك والتقتيل ، حتى أصبحت القوة مقياس تقـدم الامم وعظمتها .

والمسلمون لا يقبلون تغريب الحضارة بحجة غلبة الغرب وسلطانه فى العصر الحديث فان هذا الغلب هو مرحلة مؤقتة لن تستمر ، لأنها لا تستمد وجودها من الحق ، ولأنها تخالف الفطرة وتعارض سنن الكون والحضارات ولذلك فانها لن تلبث أن تسقط وهى تمر الآن بمرحلة « الأزمة » .

ولقـد أشار كثير من الباحثين الى هذا المعنى « لو أخذنا بمعيار الغلبة فى تقويم الحضارات لاختلت موازين القيم ، لأننا سنحكم بالفضل لكل غالب مهما كانت حضارته ، وقـد رأينا شعوبا مغلوبة . حكم لهـا العلماء والمؤرخون بالفضل عـلى الامم الغالبة ، كذلك فان الحضـارات الانسانية لا تقاس بالتقـدم الحربى والعسكرى . وانما تقاس بما تضيفه الى البشرية من قيم التقـدم والرقى ، ولن ينخدع المسلمون بما فرضه الاستعمار من قيم هذه الحضارة .

وان أبرز وجوه التعارض بين هذا المفهوم الذى يدعى اليه المسلمون والعرب وبين مفهومهم الاصيل ، أن وجهة النظر الوافدة تستمد منطلقها من نظرة مادية خالصة لا يعرفها الفكر الاسلامى الـذى يربط بين الروح

والمـادة والعقل والقلب فى اطار مفهوم جـامع ومنظور متكامل ، هو فى ذاته دين ومنهج حيـاة ونظام مجتمع ، ومن ثم فـأن الدعوة الى نقل الامة الاسلامية الى الحضارة الغربية عن طريق الانتاج العلمى الوافد من الغرب هى دعوة مضللة •

على العالم الاسلامى تيسير وسائل نقل التكنولوجيا وأساليب التقدم فى مجالات الزراعة والصناعة ، والكشف والبحث فى أعماق المحيطات وتفجير الصخور واستخراج الثروات المدفونة ، هذه الدعوة يجب أن تكون حرة وغير مرتبطة بأى دعوة أخرى الى نقل أسلوب العيش الغربى بما يستهدف القضاء عـلى الضوابط الاخلاقية والدينية والادبية ، وهى قيم قـام عليها المجتمع الاسلامى فى عقائده وعاداته وحياته الاجتماعية •

ان حـاجة المسلمين اليوم الى العلم التجريبى والتكنولوجيا ، ولهم بعد ذلك أسلوب عيشهم ، ومنطلق حركة هذا العلم فى اطار قيمهم ومفهومهم الذى يقوم على بناء المجتمع الربانى الخالص المحرر من العبودية والعنصرية والاستغـلال •

---

١ — افتراء ما سينيون — الذى ارتفع بين أقرانه من رهبـان اليسوعيين بدراسته العربية — منبعة الحقـد الصليبى وليس ضعف الأمة أو قوته ، ومصيبتنا فى انه لقى تسامحا منا عامة ونفاقا من ضعاف نفوس عملاء الحضارة الفرنسية « المجلة » •

٢ — وهذه النزعة يهودية الأصـل نابعـة من قول الله تعالى عن حالهم « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل » ال عمران : ٧٥ والاميون ، تعنى الاميين فى قصدهم وهى الامم التى خالفتهم ، وهـذا مصدر العنصرية فى الحضارة الغربية جمعاء « المجلة » •

٣ — وهكذا آذننا الله تعالى بحرب الربا •• « فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » البقرة •

الفصــل الثالث عشر

النظام الاقتصــادى الإسلامى فى مواجهة النظامين الرأسمالى والماركسى

ان المفاهيم التى طرحها « علم الاقتصاد » الذى تدرسه جامعاتنا ومعاهدنا على طول العالم الاسلامى وعرضه لا تتجاوز المــذهب الغربى الرأسمالى ، أو هى وليدة المذهب الماركسى ، وكلاهما يشكل وحدة تامة ذات جذور مرتبطة الى الحد الذى يمكن القول معه بلا حرج بأن النظرية الماركسية هى رد فعل للنظرية الرأسمالية وامتداد لها وان العالم كله يدور فى فلك نظام اقتصادى ربوى مرتبط بالاحتكارات العالمية ونفوذ الرأسمالية وسلطان اليهودية العالمية التى نظمت مفاهيم الاقتصاد السياسى وتحركاته على النحو الذى يحقق لها السيطرة على الموارد المالية العالمية ٠

ولقد سقط العالم الاسلامى فى بوتقة الاقتصاد الربوى منذ أن وقع تحت النفوذ الاستعمارى الغربى الذى سيطر على موارده واقتصادياته وأرصدته المالية ، فحال بينه وبين تطبيق المفهوم الاسلامى للاقتصاد من حيث سيطرة المصرف الأجنبى ووسائل التصدير والاستيراد الأجنبية ، حيث اصطنعت كل أسباب التعامل التجارى والزراعى من خلال النظام الربوى ٠

ومن شأن هذا الوضع أن يصور لشبابنا ومتعلمينا ان دراسة علوم الاقتصاد الغربى على النحو الذى تدرس به ابتداء من « آدم سميث » وجون ستوارث مل ، انما هو المنطلق الوحيد لفهم الاقتصاد العالمى ، بينما يجهل شبابنا كل ما يتصل بالمفهوم الاســلامى للاقتصاد ، الذى تكــون قبل ذلك بأكثر من ألف عــام عندما كتب القاضى أبو يوســف « كتــاب الخراج» — فى منتصف القرن الثانى الهجرى — وما تبعه من دراسات دقيقة ترسم المنهج الاقتصادى الاسلامى الاصيل ، والذى هــو الطريق الوحيد لهذه الامة ولا طريق غيره ٠

واذا كان العالم كله الآن يقف موقفا جديدا خارج نطاق الرأسمالية والشيوعية حتى نرى (جيسكار ديستان) يعلن رفض الاشتراكية الماركسية المتبعة فى الكتلة الشرقية ورفض الرأسمالية الليبرالية المنتشرة فى أوربا ، ويدعو الى طريق جديد للحياة الاقتصادية فى فرنسا والعالم ، وهو نفس الاحساس الذى يمر الآن فى العالم الاسلامى ، بعد أن وجد فشلا شديدا نتيجة التجربة التى قامت بها بعض الاقطار فى الارتباط بالنظام الرأسمالى أو النظام الماركسى • وهم يماكون منهجا يجمع بين خير ما فى المنهجين ويدفع شر النظامين •

ونحن حين نراجع نصوص الاقتصاد السياسى نجدها ليست عامة ولا دقيقة ولا محكمة ومع ذلك فهى تدرس فى الجامعات الاسلامية على أنها قوانين ثابتة وتنظر الى علم الاقتصاد السياسى على أنه علم مقدس •

والواقع أن نظريات الاقتصاد السياسى ليست الا وجهات نظر قدمها بعض العاملين فى هذا المجال ، وفى ظروف وتحديات مجتمعات وعصور ، وهى ليست قوانين ثابتة وليست لها صورة الحقيقة المطلقة لأنها ليست مماثلة لقوانين الطبيعة من حيث عمومها وسلامتها ، وهى أيضـــا ليست قوانين عامة وشاملة التطبيق ، فهى تتغير بتغير الزمان والمكان وقــد قام بصياغة هذه الفكرة دعاة المدرسة التاريخية التى أنكر أغلب كتابها وجود قوانين طبيعية وأخذوا علم الاقتصاد على أنه علم قوانين التطور الاقتصادى فى الشعوب المختلفة •

ويقول اوجست كونت : ليست للقوانين الاقتصادية انضباط قوانين العلوم الرياضية والطبيعية بل هى كباقى قوانين العلوم الاجتماعية ، قد تنطبق أو لا تنطبق ، وتكاد أبحاث علماء الغرب أنفسهم تجمع على أن الاقتصاد الوضعى أقله علم وأكاره فكر •

ويقــول الدكتور عيسى عبده — رحمه الله — : ان ما يسمى بعلم الاقتصاد السياسى : « اليسير منه علم ، أما الوفرة منه فقد أحاطت الفكر

البشرى بضباب من الشـك والخلاف والخروج من تجربة الى أخـرى ، واختراع أنماط من العلاقات التى تربط الناس بعضهم ببعض ٠

لذلك يجب الحذر عند تقدير هذه الدراسات المستحدثة فما هى ثروة تضاف الى المختزن من المعرفة وانما هى تزاحم فيما بين النزعات الفردية والنزعات الجماعية وأغلبها فلسفة ثائرة أو ظالمة ٠

والمادة الاقتصادية تتألف من ستة عشر قسما ، واحد منها فقط تكتمل له خصائص العلم ، أما الباقى فهو اجتهاد من عند الناس ، دافعه وحاديه المصلحة الشخصية والسلطان ، ومن ثم أيقاع الظلم بالآخرين ، أو أستغلالهم اذا ما توافرت فرصة فى هذه الاقسام مستمدة من المفاهيم التى اتفق عليها المستحدثون لهذا النوع من الدراسات أمثال شارل جيد ، وشارل ريست ، ومـارشال ، واريك رول ، وشـامبتر ٠ ، فـاذا بهم : رجال أعمـال يريدون تسخير النظرية العلمية لتبرير أساليبهم ووسائلهم الى الثـراء السريع ورجال سياسة يريدون من وراء البحث الذى يقومون به أن يخلعوا على مجارى السياسة العالمية مسحة ولو رقيقة من مظـاهر العمل لخير الانسانية ، ورجال حكم تمرسوا بفنون القيادة والتوجيه من أجل الوصول الم نوع من الاستقرار والامن ولو الى حين ، وان حصادا كهذا لا يقدم للانسانية الا مزيدا من أسباب الخلاف ٠

ان علماء الزمـان فى أرفع مستويـات العلم لا يزالون فى خـدمة السياسى والحاكم والزعيم والداعية الى مذهب دون مذهب ، لا عن اقتناع ولكن من أجل قوته وقوت عياله ٠

ويقول الدكتور عيسى عبدة : أن لنا أن نختار بين أن نظل سادرين فى متابعة هذا النضال وبين أن نفيق ويقول : لقـد آن لنا أن ننظر الى هذا الاقتصاد المستورد من الغرب ومن الشرق نظرة محايدة متحـررة ، حيث ينبغى أن تكون الدراسة المقارنة من العلم بما عند الناس من خطأ وصواب ،

وانه لمن نكد الدنيا على الجنس البشرى أن تراجعت الامة الاسلامية عن مكانتها من الصدارة وان غفلت عن تراثها فخلا الميدان للفكر والرأى وحدها فى ميادين ما كان للعقل فيها مجال الا مستهديا بالاصول التى أوحى بهـا خالق الانسان •

ومع هذا كله فان جامعات العالم اسلامى تدرس الاقتصاد الرأسمالى والاقتصادى والاشتراكى واذا درست الاقتصاد الإسلامى ألمت به الماما سريعا •

•• وفى كليـة متخصصة للاقتصـاد ككلية الاقتصـاد والعلـوم السياسية لا توجد أى اشارة لدراسة الاقتصاد الاسلامى ، ومن هنا فقد حق على الشباب المثقف أن يتعرف الى هذه الارضية التى تعينه على فهم المذاهب التى يدرسها فى ضوء الاسلام •

ان المثقف المسلم يجب أن يدرس النظام الرأسمالى فى ضوء المفهوم الاسلامى ، كما يدرس النظام الاشتراكى فى ضوء الاسلام ، فالإسلام ليس شيوعيا ولا رأسماليا ، ولا هو مركب منهما ، « فالرأسمالية » حصاد تطور تاريخى اتسم بكثير من صور العبودية والتحكم ، ولم يكن قاصرا على نواحى الاقتصاد فقط ، بل تعداه الى مختلف نواحى الحياة البشرية فالرأسمالية حياة وفلسفة واقتصاد واجتمـاع ، وقد كـان أبرز مفاهيم الرأسمالية اطلاق الحرية الاقتصادية بدون قيد أخلاقى الى الحد الذى أدى الى الانانية الفردية واقرار العنصرية والاعتراف بالطبقية فى التركيب الاجتماعى •

ولما كان من أبرز خصائص النظام الرأسمالى اعطاء أكبر قـدر من الحرية الاقتصادية للافراد ، دون تدخل من الدولة لوضـع قيود عـلى الانتاج والاستهلاك ، فقـد أدى ذلك الى السعى الى تمزيق المجتمع الى طبقتين متباينتين :

الأولى : رأسمالية اقطاعية ، والثانية ذوى الدخل المحدود من العمال والفلاحين ، كما أدى الى تركيز الثروة فى يد فئة قليلة مستبدة ، والى انتشار البطالة والاحتكارات الطبيعية والصناعية التى تتكون وتستغل المستهلك والطبقات الفقيرة .

ومن أخطر عيوب هذا النظام الاستعمار لكل بقعة فى الأرض تحوى خامة من خامات الانتاج أو مادة من المواد الأولية للصناعات الثقيلة والخفيفة ، والذى تركز عليه سياسة الدول الرأسمالية .

وقد عجزت التجربة الرأسمالية عن تحقيق الاستقرار الاقتصادى فى الوقت الذى أعلن فيه الاقتصاديين أن السياسة الاقتصادية الحرة قد أدت الى تكوين احتكارات ضخمة ، قضت على المشروعات المتنافسة واستأثرت بالسوق وحددت الأثمان عند مستويات مرتفعة استغلت بها المستهلكين وارهقتهم لصالح المحتكرين (١) .

وأبرز المشكلات التى تواجه النظام الرأسمالى اليوم :

١ — مشكلة التضخم المالى وما نتج عنها من تضاؤل فى المقدرة الشرائية .

٢ — المشكلات الناتجة من ازدياد عدد العاطلين عن العمل .

٣ — المشكلات الناتجة عن أزمة البيئة .

وقد أشار كثير من الباحثين الى أن النظام الرأسمالى الذى طبق منذ مطالع القرن السادس عشر قد أسفر عن أخطاء وعيوب انسانية وسياسية واقتصادية وأن كتاب أوربا فى خدمة الرأسماليين يعملون على اشعال الحرب فى كل مكان كى يجد الرأسماليون متنفسا لهم يتحركون فيه .

وقد ازدهرت الرأسمالية فى منتصف القرن الثامن عشر مع بداية الثورة الصناعية ولكنه بقيام الحرب العالمية الأولى بدأ « تدهور الرأسمالية »

بظهور الكساد والأزمات المالية نتيجة ظهور الاحتكارات الكبرى وسيطرة قلة من الأفراد على سوق المـال ووسائل الانتاج ، وتدخل بعض أفرادها فى السياسة وبذلك أصبحت الرأسمالية طريقا للاستعمار الأوربى وكان من أخطر اتجاهات الرأسمالية اتجاهها الى انتاج الكماليات دون الضروريات ، وقـد أدى انتشار سيطرة الرأسمالية الى انفجار الثورة الشيوعية ١٩١٧ كرد فعل عنيف ضـد رأس المال المستبد فى المجتمع الأوربى خاصـة وأن أوربا يومئذ كانت ما زالت تستخدم الأيدى العاملة الأوربية ولم تستخدم العمالة الوافدة الرخيصـة الأجر •

ويقول ماكنزى : ان من عيوب الرأسمالية أنها تقوم على نظام مفسد للأخلاق يجعل من الشراهة والأنانية فضيلة اذ يبيح المزاحمات والمنافسات التى تحيل البشر الى معمعة فاشـية ، تتنازع فيها الأفراد حق الحياة حيث تكون الغلبة للقوى أو النصـاب أو المحتـال وتتكدس الثروات فى الأيدى الشرهة • وأشار الى العلاقة بين « الاحتـكار » وبين الرفاهية الاجتماعية وأشار الى ظهور الاحتكارات فى الغرب وانتشارها بقوة وتأييد القروض وبالتقدم العلمى فى أساليب الصناعة مما أدى الى صراع الطبقات فى ظل النظام الرأسمالى والى الأزمات الاقتصادية التى تقوم لأسـباب تتعلق بذاتية النظام الرأسمالى وخصائصه حيث أن قوى معينة من داخل النظام تعمل على تفجير الأزمة نتيجة الاختلال فى التوازن بين الانتـاج والاسـتهلاك •

كما أشار الى خطر التطور المستمر فى انتاج أسلحة الحرب نظـرا لزيادة نسبة الربح فيها عن غيرها من أنواع الانتاج (٢) •

ولقد كان من أثر ارتباط النظـام الرأسمالى بالاستعمار أنه فرض النظام الاقتصادى الغربى فى البلدان الاسلامية التى استعمرها ، ثم تبين أن هـذا النظام لم يزدهر فى تلك البلدان وأن الضمير الاسلامى لم يقبله ولم يجـد فيه ما يرضيه أو يسعده ، ولذلك فان العالم الاسلامى يستجيش

بالدعوة الى « نظـــام اقتصادى اسلامى » مستمد من جوهر عقيدته ومن واقع مجتمعـــه •

ولقـــد وقف الفكر الاســـلامى منذ اليوم الأول من النظام الرأسمالى موقف المعارضة والتباين وكشف عن أخطاء هـــذا النظام وفساده :

أولا : من حيث ان الاقتصاد الرأسمالى قام فى الغرب على الاستغلال والاحتكار والمعاملة الربوية ، وكلهـــا أمور نهى الاسلام عنها ، فالاسلام يحرم الربا والغش والاستغلال والاحتكار ، كما أنه لا يطلق المنافسة لتنشط من وحى الغرائز ، وانما يبيحها فى نطاق مثالياته وأخـــلاقه •

ثانيا : حق الملكية الذى أقره الاسلام ليس الحق المطلق كما يصوره الاقتصاد الغربى ، بل يفرض الاسلام على المالك طائفة من الالتزامات الايجابية والالتزامات السلبية ، فكل شىء ملك لله ، والانسان مستخلف وهناك التزامـــات سلبية هى تحرير ماله من الحرام ، وتحريره من الغو فى التدبير والامتناع عن الربا ، ولتشريع الاقتصاد الاسلامى أثره العميق • فهو يبقى عـــلى نزعة التملك وهى نزعـــة ضرورية للنمـــو الاقتصـــادى ولكنه فى الوقت نفسه يحيط هـــذا الحق بطائفة من الالتزامات كحق الفقير فى الزكاة ، وعـــدم اكتناز المـــال أو احتكار مصادر الدخل •

ثالثـــا : يحرر الاسلام السعى فى طلب الرزق ويقرر حق تكافؤ الفرص ويقدس العمل الصالح ويحيط هـــذه الغريزة الفطرية بسياج من دســـتور سلوكه الاقتصـــادى الذى يحمى المسلم من تجاوز الحـــد المرســـوم فى ابتغاء الرزق ويضبط من غلواء الحافز الذاتى نحـــو المزيد من الكسب ، وفى ضـــوء هـــذا يسرى العرض والطلب سريانا تلقائيا دون أن يقع فى محظـــور الاحتكار •

رابعـــا : علمـــاء الاقتصاد المعاصر يضغطون كل الضغط على الاتجاه المـــادى فى اقتصادهم ، وقد ساروا فى الطريق حتى تجاهلوا أبسط قواعد

الأخلاق وأوضح معايير الخير والشر التى فرضتها جميع الأديان السماوية ، فكان لهذا التجاهل آثار بعيدة المــدى فى النشاط الاقتصــادى للبشر ، وأصبحت كل التصرفات الاقتصادية مباحة طالما كانت تؤتى نفعا مــاديا ، وما دامت لا تصــل اليها يد القانون الوضعى مهما اختفى فى ثناياها من غش فى المعاملات واضرار بالغير وســلب لمــاله ، وقــد أحيطت النظرية الاقتصادية بأقنعة كثيفة حجبت كل اعتبار خلقى أو انسانى أن ينفــذ الى هيكلهم المــادى •

خامسا : يقوم الاقتصــاد المعاصر على دعامتى المــال والعمــل وفى الاقتصــاد الرأسمالى يكون للمالك السلطان المطلق فيما يملك بغير أى قيد عليه أما الاسلام فيفرض طائفة من التكاليف والالتزامات على المالك لمصلحة المجتمع وهــذه التكاليف والالتزامات قابلة للقبض والبسط •

سادسا : من أسباب فســاد النظام الرأسمالى أنه لا يوجــد فرق جوهرى بين البيع والربا ، فهما لا يختلطان فى نظامهما فحسب ، بل هما بمنزلة اللحمة والسدى التجارة والربا كل منهما يستلزم الآخر ، أما الاسلام فانه قــد أحل البيع وحرم الربا ، « ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا » البقرة •

سابعا : كان لقيام النظام الرأسمالى على أكتاف المرابين وأصــحاب المصانع وملاك الأرض فى جانب فى مواجهة العمال والمزارعين والمدنيين فى جانب آخر ، أثره العميق حيث انقســم المجتمع الى طبقتين وانعدمت روح التعاطف والمساواة والتكامل •

وقــد وضحت مساوىء الرأسمالية فى أوربا من اضطراب المجتمعات والأزمات الاقتصادية والبطالة وصــور الاستغلال الرأســمالى والاحتكار وسواء توزيع الثروات التى أدت الى ظهور الثورات الاجتماعية حتى ولو كانت فاشــلة •

ثامنـــا : لم يعتبر الاسلام المشكلة الاقتصادية كما تصورها الرأسمالية مشكلة قلة الموارد أو عجز الطبيعة عن تلبية الحاجات ، وانما ردها الى الانسان نفسه وجشعه وسوء تنظيمه الاقتصـــادى ، وما جاع فقير الا بما أترف به غنى ، وان سوء توزيع الثروة انما جاء نتيجة تسلط الأقوياء عليها ، وقـــد سخر الله ما فى السموات والأرض جميعا منه للانسان وجعل العمل عبادة كما جعـــله أمانة ومسئولية •

تاســـعا : قرر الاسلام الحرية الفردية فى اطار العدالة العامة الشاملة وجعل توطيد الحرية الفردية قضـــية أساسية وجعل الانسان متراوحا بين الذاتية والغيرية ، والتفاعل بين شطرى فطرته ، وأداء حق غيره عليه وحقه على الغير دون اهمال حق الغير ابتدآء ، وهـــذه العـــدالة هى الضـــمان لممارسة الحرية الفردية دون انحراف أو عـــدوان ، وجعل الاسلام ملكية المـــال ذات وظيفة اجتماعية مقيدة فى حالة حيازتها العامة والخاصة •

والاسلام يوفق بين المصـــلحة العامة والمصلحة الخاصة ، فيتم تحقيق المصـــلحة الخاصة فى اطار المصلحة العامة •

عاشرا : وازن الاسلام بين حوافز الفرد ومطالب الجماعة ونسق بين الفردية والجماعية ودعا الى التوازن بين حرية الفرد ومصلحة الجماعة •

وقـــد عاد الاســـلام بأروع معادلة توازن موازنة ســـوية بين الفرد والجماعة اذ أقام التكافل الاجتماعى على أساس الاخوة الاسلامية وهى طراز فـــذ من التعاطف الانســـانى جب العنصرية ، وقضى على التفرقة الطبقية وحرر العقيدة من التعصب المقيت ، وكفل للمرأة حقوقها الاجتماعية والاقتصـــادية وعالج سوء توزيع الثروة معالجة عادلة تحول دون تكديسها فى يد فرد أو أفراد قلائل « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » ودون أن يقضى على نشاط الفرد وميله الغريزى للمبادرة والابداع وأقام التنافس على أساس القدرة والعـــدالة معـــا ، وأستطاعت تجربة الحكم الاسلامى

فى صـــدر الاسلام أن تثبت نجاحها الباهر فى ايجاد مجتمع متوازن تتكيف فيه ارادة الفرد مع صالح الجماعة •

حادى عشر : الاسلام لا يقر المذهب الفردى الذى ولد فى أحضان الرأسمالية الصناعية ، هـــذا المبدأ الذى لا يفرض أى التزامات ايجابية على الدولة • بينما يعتبر حق الملكية فى الاســلام غير مطلق ، اذ يعد بمثابة وظيفة اجتماعية •

فالمالك عليه أن يستعمل هـــذا الحق وفق ما تمليه مصلحة المجتمع ، أو ما تمليه مصـــلحة الفرد ، ولكن فى غير اضرار بغيره وفى الحدود التى رسمها الله تبارك وتعالى فى القرآن •

وهناك قيود غير مباشرة وضعت على حرية الملكية تشمل فرائض على الانفاق وعلى التملك ، تهـــدف الى الحيلولة دون تضخم الثروات ودون تركيز للمـــال فى أيدى طائفة خاصـــة من الناس ، كما فرضت الزكاة التى تعـــد أحـــد أركان الاسلام كما تعـــد أحـــد أركان ما يلطق عليه التكافل الاجتماعى ، حيث لم يجعل الزكاة منه على مستحقيها بل هى حق لهم ازاء القـــادرين •

---

١ — ان المؤسسات الاحتكارية الدولية التى يقوم عليها الاقتصـــاد الغربى تشـــترى خامات الانتاج كالنفط والمطاط والمنجنيز والفوســـفات والألمونيوم •• الخ أو تستولى عليها ثم تبيعها صـــناعات فنية بما يوازى عشرات الأضعاف لثمن التكلفة وهـــذا يصور خطورة المبدأ الذى قامت عليه فضـــلا عن تهربها من نقل المعارف التقنية وخصوصا بالنسبة للشـــعوب التى تمتاز بالذكـــاء •

٢ — الحق ان سياسة تسويق الأسلحة الحربية كانت لعبة الاحتكار

فى الدولة النامية التى بدأت تمتلك ثروة نتيجة تملكها لمصادرة الثروة فى أراضيها وهى لعبة ذات حدين أولها ايهـام تلك الدولة بقدرتها على تملك سلاح تظهر به قدرتها ، والثانى وهو الهـدف : امتصـاص المـال الذى تدفعه الاحتكارات ثمنا لمواد الخام التى تشتريها من الدولة النامية وأظهر مثال على هـذا ما تستهلكه الحرب العراقية الايرانية من سـلاح وبشر دمرت اقتصادها والمستفيد تجار السلاح « المجـلة » •

٣ — هى فى الحقيقة ايجابية لانها تحقق التوازن وثبات المصـادر على أسس العدالة الاجتماعية •

الفصـــــل الرابع عشر

النظـــام الاقتصـــادى فى الاسلام

(٢)

بين الاســــلام والماركســـية

قدمنـا فى الفصل السـابق عرضا للفـاهيم التى طرحها عـــلم الاقتصـــاد وكيف سقط العالم الاسلامى فى بوتقة الاقتصـــاد الربوى ، وأوضحنا عيوب النظام الرأسمالى وموقف الفكر الاسلامى من هذا النظام ، ثم كشفنا عن أخلاقيات الاقتصاد الاسلامى من حيث عدالة التوزيع والتكافل الاقتصادى ، وعــدم اقرار الاسلام للمذهب الفردى الذى ولد فى أحضان الرأسمالية الصـــناعية •

ونواصـــل البحث عن الاسلام والماركسية :

المثقف المسلم فى حاجة الى أن يدرس النظام الماركسى « الاشتراكى أو الشيوعى » فى ضـــوء المفهوم الاسلامى من حيث ان الاســـلام ليس رأسماليا وليس اشتراكيا ، وانما هو نظام متميز خاص يختلف عنهما •

وأكبر ميزاته أنه نظـــام ربانى وليس من صـــنع البشر ، واذا كان النظام الرأسمالى قـــد قام بناء على ظروف خاصة بالمجتمع الأوربى فى القرن السادس عشر ، فان النظام الماركسى جاء بمثابة رد فعل لهذا النظام فهو جزء منه ، وقد أكد المؤرخون أن ماركس ومذهبه انما هو بمثابة رد فعل لحالة المجتمع الأوربى ، فمفهوم الماركسية هو شـــطر مكمل للنظرية الرأســـمالية •

وأبرز خصائصه : تقوم على أساس امتلاك الدولة لمختلف وســـائل

الانتاج من صـــناعية وزراعية وثروة طبيعيـــة وخـــدمات عامة ، فلا وجود للملكية الفردية ولا مجال للحرية الاقتصـــادية الا بمقـــدار ما يمنحه المجتمع للفـــرد •

وتطالب المذاهب الاشتراكية من الناحية الاجتماعية بتحقيق المساواة بين الأفراد • وتجعل النظرية الماركسية قيمة ، أى سلعة ، بحسب ما يبذل فى انتاجها من عمـــل •

وتقوم الشيوعية على الايمان بالمادية المطلقة وكراهية الأديان والحقد ، فقـــد أعلن ماركس أنه لا يؤمن بغير المـــادة ، وأن كل شىء فى الوجـــود ان هو الا أثر من آثار المادية •

والمادية تعنى عـــدم الايمـــان بالغيب كما تعنى انكار الاله ، وهى ترفض منازع الأخلاق والتقاليد ونظام الأسرة والزواج ويزعم ماركس أن الدين وسيلة من وسائل الاستغلال ، اخترعه أصحاب الثروة والمسيطرون على مصـــادر الانتاج لتخدير الشعوب حتى يسهل استغلالها ، وتحـــارب الماركسية الأخلاق بدعوى أنها سواء أكانت فردية أو جماعية ، فما هى الا أثر من الآثار الاقطاعية ، وكذلك تحارب الأسرة وناموس الزواج •

وتفسير الماركسية الحيـــاة الانسانية من خلال التفســـير المـــادى والاقتصادى ، وتقوم على فكرة الكراهية والحقـــد والصراع بين الطبقات واستعمال العنف لايجاد ما تسميه المساواة •

ويشير بعض الباحثين الى أن الاشتراكية العالمية (الماركســـية) هى فكر مادى يسعى الى التسلط عن طريق نقل المـــال الى ما يسمى ملكية الدولة ، ويسعى الى النفوذ فى الحـــكم عن طريق مخاطبة الناس عن طريق المعـــدة وحـــدها ، وبأرقام الطعام والكساء وحـــدها ، وليس عن طريق الفكر أو المنطق ، فضـــلا عن طريق القلب والايمان والحب الاجتماعى والتعاطف •

والاشتراكية فى عالم اليوم أو الماركسية أمر واحـد يطلى بألـوان متعـددة للتمويه والخـداع ، ومن المستحيل أن يتقرب ماركس وهو اليهودى التلمودى ، باشتراكيته الى خير البشرية ، فيقدم نظاما مثاليا للحيـاة الانسانية أو يؤمن بسلام حقيقى للنفوس .

وينعقد الاجماع على أن الدعامة الأساسية فى الماركسية (اشتراكية + شيوعية) هى اللادينية المطلقة ، ويقوم المذهب على انكار وجود الخالق وانكار البعث والنشور والجزاء الحساب ، وأن الكون مادة فى مادة .

يقول ماركس : لا وجود لله ، الحياة مادة بحتة ، ويرى فى الأديان جميعها مخـدرا للعقول يجب التحرر منه فكل دين عنـدهم هو أفيـون الشعوب ، وعنده أن رسالة العمل الشـيوعية هى : القضـاء على الدين والداعين اليـه .

وينكر المذهب الشيوعى « الأسرة » ويعمل على انحلال روابطها :

يقول انجلز : ان الأسرة هى وضـع من أوضـاع المجتمع لا نضوج فيه ولا جـدوى ، ولا محل لاستبقاء هـذا الوضع وتأييده الا بالقـدر الذى تستطيع استغلاله لمصلحة الدولة ، فالطفل لا يولد لابويه بل يولد للمجتمع .

ترى الشـيوعية أن الاسرة تنمى أحاسيس الاثرة الذاتيـة وحب التملك ؟

كذلك تفسر النظرية أحداث التاريخ من حروب وثورات وقيـام دولة وأنظمة وسقوطها ، تفسيرا مستندا الى العـوامل الاقتصـادية ، وما هى الا تعبيرات عن شىء واحد هو الحياة الاقتصادية .

ونظرا لمعارضـة (الماركسية) للفطرة وطبائع الاشـياء ومصادرة

الطبيعة الانســانية وتجاهل الروح وانكار رســالتها الحقة فان المذهب لم يجد تقبلا صحيحا ، ولم تلبث أن تكشــفت تناقضاته وظهر قصــوره فى التطبيق ، ممــا دعا الذين قاموا بتطبيقــه الى اجراء تعديلات متصــلة لمواجهة هــذا القصور •

وقد تبين أن المذهب الماركسى عاجز عن استيعاب النفس الانسانية وتحقيق هدفهــا الحقيقى من الحياة . وأنه تجاوز فى تفسير المجتمع أو التاريخ كثيرا من الحقائق القائمة الواضحة •

ويمكن أجمال المذهب الماركسى فيما يلى :

أولا : لا تزيد الماركسية عن أنها فلسفة مرحلة وردود فعل للرأسمالية أدعت الاصــلاح فخربت ، وقد أعتمدت النظرية فى أســاسها على نظرية علمية ثبت فشــلها الآن ، تجــاوزها العلم التجريبى ، وأنها قامت أساسا فى ظل طغيان العلم ، وفى ابان الظن بأن العلم قــادر على أن يقول الكلمة الاخيرة فى كل شىء ، ثم تبين للعلمــاء أن العلم محدود القدرة ، وأنــه لا يستطيع تجــاوز ظواهر الاشــياء ، وأن ماركس أنشأ نظرية — ادعى أنهــا كلية — فى ضــوء حالة اجتماعية عرضية ، لم تلبث أن تغيرت ، وهى بدايات التصــنيع ، ولم يلتفت الى تأثير العــامل السياسى فى الوضــع الاجتماعى ، وامكانية تأثير التوازن الروحى •

وحاول لينين أن يكمل مــا نقص ويعدل مــا اضطرب لجعل النظرية شاملة العالم كله ، بعد أن كانت فى تقدير ماركس لاوربا وحدها ، وقد كان ماركس يتوقع أن تحــدث الثورة الشــيوعية فى دولة متقدمة صــناعيا تعارضت النظرية اللينينية مع أمها النظرية الماركسية ، من حيث أن ماركس كان يتوقع ان تحدث الثورة فى دولة متقدمة صناعيا لا فى دولة زراعيــة اقطاعية الى أقصى حد •

ومن ثم فان أكبر مقــاتل النظرية الشــيوعية أن ماركس قــد نظر على ظروف تغيرت ، ولم يكن يتصور ما ستحدثه ثورة العلم والتكنلوجيا

فى القرن العشرين ، حيث يدور المصنع بعقول الكترونية ، يجلس العـــامل أمامهـــا ليدير أزرارها وخلفه نقابات العمـــال وقوانين التأمين ضد العجز والشيخوخة والمرض ، وفرض التعليم والعـــلاج ، لم يتصور مرونـــة ، الرأسمالية وقدرتهـــا على التطور ، أمـــا أكبر أخطاء الماركسية فاصرارها على أن تكون فكرا شـــموليا يحيط بكل شيء علما •

(ثانيا) : ان التجربة الشـــيوعية قد كشفت مع الزمن عن ثلاثة أخطاء كبرى :

الاول : اهدار الكرامة الانســـانية وذلك بالقضاء على مفهوم فردية الانســـان وحريته الخاصـــة وكرامته وقدراته التى تمكنـــه من الايداع والتقدم ، والطمأنينة على ســـلامة العيش والى القدرة على وضع مجتمعه فى أوج الازدهـــار •

الثانى : تدمير الاخوة الانســـانية : وذلك باثارة روح البغضـــاء والحقد بين الطبقات ، بمـــا يحول دون نماء المجتمع أو حركته الجـــامعة واندفاعه نحو التقدم •

الثالث : اذلال الانســـان وتحقيره ، وذلك يجعله أشـــبه بترس فى آلة ليس له حق امتلاك كيانه الخـــاص ، ولا مقدراته الحرة على التفكير والحرية ، وخاصـــة فيما يتعلق بالقضاء على انســـانية الانسان وقداسة الاسرة وحرية الفكر •

وقد ســـجلت هذه الاخطار الكبرى على التجربة الشـــيوعية أنهـــا ضد الفطرة وضد تيار التقدم البشرى ، فقد أثبتت التجربة الشـــيوعية فى خلال أكثر من نصف قرن من التطبيق ، عجزها عن تحقيق هدف واحد من أهدافهـــا • بل كانت فى كل مرحلة تصـــدر تنازلات عن آرائها السياسة ، وتتقبل الواقع وتعدل النظرية ، وخاصـــة الغاء الطبقات والغاء الدولة ،

ولم يتحقق مطلقا ولا جزئيا خلال هــذه الفترة لشــعوب المجتمعــات الشيوعية الكفاية بين أفرادها أو الامن لمجتمعها •

(ثالثا) : وصف الماركســية بأنها حقيقة علمية أنما هو كذب على العلم وعلى الاختصــاص فى وقت واحد ، لان الماركســية نظرية اجتماعية ، والنظريات الاجتمــاعية بعيدة الصلة عن الحقائق التجريبية العلمية •

فالحقيقة العلمية حقيقة ثبتت فى معامل الكيمائيين ، أمــا النظريات فأنهــا مجرد تصورات وفروض ، لا تأخذ حكم الحقائق العلمية الثابتة •

ومن ذلك نظرية « فرويد » حول اعتبــار الغريزة الجنســية أساسا للســلوك • ونظرية كارل ماركس ، بأن الملكية الفردية هى ســبب بلاء البشريــة •

والرد على القول بأن الشــيوعية هى المصير العلمى للناس أو الحقيقة التى يؤيدها العلم لاســعاد البشرية ، أن هنــاك شعوبا لم تعرف الشيوعية ولا عاشت فى ظلهــا ، وهى تحيا على مستوى من الرفاهية وسعادة النفس لا تعرفه البلاد الشيوعية •

(رابعــا) : تبين خطأ اعتبار الاقتصــاد العامل الاساسى فى تفسير التاريخ ، ذلك لان هناك عوامل أخرىكثيرة متعددة ، لهــا أهمية أكبر من الاقتصــاد فى تشكيل الاحداث والتأثير فيهــا ، والمعتقدات الدينية فى مقدمة هــذه العوامل ، كذلك فهناك العواطف والشــهوات التى تسيطر على حياة الرجال ، وتؤدى الى كثير من الحروب والتغييرات •

ويرى (أدلر) أن غريزة حب الســيطرة تلعب الدور الاول فى التاريخ ولا ريب أن مختلف الظواهر : سياسية واقتصــادية وأدبية تؤثر كل منها فى الاخــرى •

وقد تبين أن (ماركس) اعتمد فى نظريته على متغيرات اقتصــادية

وعلمية تكشف من بعد فســـادها وسقوطها ، واذا كانت النظرية قد انسجمت شـــكلها فى القرن التاســـع عشر ، فانها لم تنســـجم بعد ذلك مع الظروف الاقتصـــادية السائدة أو تتفق مع الظروف الاقتصادية الســـائدة اليوم ، بل ان البعض يرى أن النظرية لم تكن وليدة بحث علمى ، وأنما جاء البحث العلمى تبريرا ودفاعا عن النظرية وهو ما ثبت بطلانه على مسرح الواقع الذى يضعونه قرب ميزان الفكر الماركسى •

خامسا : من أكبر مقـــاتل النظرية الماركسية اعتمـــاد (مـــاركس) على النبوءة والمبـــالغة ، وانكار الذكاء الانســـانى كعامل من العوامل التى تميز الفرد عن الاخر فى البيئة الواحدة •

كذلك أخطأ ماركس فى تقديم المـــادة على الفكر ، ولو أنه قـــال أن العلاقة بين الفكر والمـــادة علاقة متبادلة لكـــان أقرب الى الصواب •

كذلك أخطأ فى مسألة « الحتمية » والحتمية لا تتفق مع ارادة التغيير ، والحتمية لا تجعل من الانســـان ازاء تطور التاريخ الا مراقبـــا ، وهذا يتعارض مع مسؤولية الانســـان الاكتسابية كما يقرها الاســـلام •

سادسا : تعارض الماركســـية الدين معارضة تامة ، ولكنهـــا تحاول خداع الشعوب الاسلامية بدعوى التوفيق بين الماركسية والدين ، كأسلوب لغزو المجتمعـــات المتدينة التى ترفض الالحـــاد ، وهو أسلوب مرحلى التمويه ، فالماركسية أو الدين كل منهما يرفض الاخر رفضـــا قاطعا •

وقد وجدت الدعاية الماركسية تربة خصـــبة فى البلاد المســـتعمرة المتطلعة الى التحرر لبث أخطارها اذ تقدمت الماركسية فى تلك اللحظات الحاســـمة وكأنها العلاج الناجع ، ثم تكشف من بعد ما تخفيه من تآمر •

التفسير المـــادى للتاريخ :

سابعا : فســـاد التفسير المادى للتاريخ فان للقيم للدينية والمعنوية

والاخلاقية وزنها وأهميتهـا فى المجتمع ، ومن الخطأ تجاهل أثر تعاليم الانبياء والرسـل ، وآراء الفلاسفة والحكماء ، التى ليست نتاجا للبيئة الاقتصـادية وحدها .

والاسـلام نفسـه لم يأت نتيجة انقلاب فى نظم الانتاج أو علاقات الانتاج فى قريش ، وأنمـا جاء ظاهرة الهية مسـتقلة عن فعل البيئـة لتصحيح انحرافات البشرية عن الخط الالهى . لقد جاء الاسلام فى البداية مقررا المساواة فى الفرص ، وضمـان حد الكفاية للفرد ، وتحقيق التوازن الاقتصـادى بين الفرد والمجتمع .

وجاء بمبدأ الملكية الخاصـة والملكية العامة ، جاء بكل ذلك فى الجزيرة العربية فى وقت لم تكن فيه ظروف الانتاج تدعو اليه بحيث يمكن أن تقول ان مـا حدث كان انبثاقا ، وتحدى بذلك منطق التفسير المـادى من واقع اقتصـادى أو رد فعل له . للتاريخ الذى يحتم انبثاق كل انقلاب سياسى من انقلاب مناظر فى نظام الانتاج وعلاقاته .

ثامنا : الماركسية تستلزم الصراع والاسلام يقرر التدافع والماركسية تنكر الروح انكارا تماما ويجمع الاسـلام بين المادة والروح .

تاسعا : ان التجربة التى أقامتها الماركسـية فى المجتمعات الشـيوعية لم تحقق الكفاية بين أفرادها ولم يستطع النظـام الاشتراكى تخليص المجتمع الاقتصـادى من كل مساوىء الرأسمالية .

ولا ريب أن نظرية ماركس قاصرة على التاريخ الغربى وحده وفى بعض الجوانب فحسـب فى العصر الذى عاشـه ولم تستطع أن تتجاوز الى أن تكون تطبيقا على التـاريخ البشرى كله ، وهى لا تصـلح كلية للتطبيق على التاريخ الاسـلامى .

وقد اعترف الفيلسوف الماركسى — فيما سبق — جارودى بالحاد

الماركسية ، وأنها وارثة الترث الاحادى فى القرن الثامن عشر حيث تنبى ماركس شـــعار بروميثوس « أنا ضد كل الالهة » •

وكان ظن الماركســـية أن انهيار النظام الرأسمالى وشيك الوقوع ، ولكن الرأســـمالية فوتت على الشيوعية هدفها حين حققت للعمال آمالهم •

ويمكن القول بأن الرأســـمالية والماركسية كلاهمـــا قد صدر من منبع واحد هو (المخططات التامودية) وان اسم تروتستكى يعنى الماركسية بينما اسم روتشلد يعنى الرأسمالية وكلاهما يمثل تموجات العقلية اليهودية فالتيار الرأسمالى والتيار الماركسى أبوهما واحد وهو التيار اليهـــودى الصهيونى ونحن نجد الآن طبقة أصحاب رؤوس الأموال فى الرأسمالية يهودا فى الصميم فى مواجهة طبقة عمالية ديكتاتورية يهودية أيضا ، وهكذا نجد أن الماركسية شطر مكمل للرأسمالية وأن وجهة نظر ماركس فى الدين مستمدة من فهمه للنصرانية وليس للدين بصفة عامة ، والنظامان يحاولان تنازع السيطرة على العالم ويحاولان احتواء العالم الاســـلامى بالفكرة والمذهب والنظام ، وأيهما يفوز فان فوزه يهودى تلمودى •

وعلى العـــالم الاســـلامى الذى يملك نظامه الخاص المستمد من وحى السماء أن يتجاوز هذه التبعية ، وأن يرتفع فوق لعبـــة الارجوحة ؛ كل طرف يرتفع مرة وينخفض لصاحبه أخرى •

ومن حق المثقف المســـلم أن يعرف حقيقة النظـــام الاقتصادى فى الاسلام فالاسلام نظام وليس نظرية وهو نظام كامل لا ينعزل فى الاقتصاد عن بقية النواحى التى تعالج الانســـان والمجتمع •

أولا : ليس الاســـلام نظاما شيوعيا لانه يقر الملكية الفردية ويحميها وليس نظاما رأســـماليا لانه لا يطلق العنان لرأس المـــال بل يحرص على تجريده من وســـائل السيطرة والنفوذ ، وليس من النظم الاقتصـــادية المتطرفة الى اليســـار لانه لا يمعن فى أضـــعاف رأس المـــال الفردى .

طالما يفسح له المجال للقيام بوظيفته فى حدود الصالح العام بوصفه عاملا هاما من عوامل الانتاج وحيوية النماء فى المجتمع •

ثانيا : أقام الاسلام بنيان اقتصادياته على دعائم ثمانية تعمل متضافرة لتحقيق المساواة بين الافراد والجماعات هى :

١ — تضييق نظام الملكية الفردية لخير الجماعة وفى سبيل الصالح العام •

٢ — يحترم الاسلام الملكية الفردية للاشياء الضرورية ويدخلها فى نطاق الملكية الجماعية فى الضرورة •

٣ — يحرم الكسب غير المشروع ويجعل الربا والفائدة من الاموال المحرمة •

٤ — يحرم استغلال النفوذ والسلطان فى سبيل الحصول على المال •

٥ — يحرم جميع المعاملات التى تنطوى على الغش والرشوة أو أكل أموال الناس بالباطل •

٦ — فى سبيل قيام الملكية الفردية فى نظام متزن حتى لا تطغى وتصبح ثروة مقدسة أوجد الاسلام نظام الميراث والوصية حيث يتكفل النظام الاول بتوزيع الثروات بين الناس توزيعا عادلا يحول دون تضخم الاموال وتجميعها فى أيد قليلة ويعمل على تذويب الفوارق بين الطبقات حيث تقسم التركة بين أقرباء الهالك فتتوسع بذلك دائرة الانتفاع من الملك الذى كان فرديا فأصبح جماعيا •

كذلك بالنسبة للوصية حيث يمكن لصاحب المال أن يوصى بجزء من ماله لاحد اقربائه الفقراء من غير الوارثين فان لم يوجد فلاى شخص يعرف فقره •

٧ — أمر الاسلام بالزكاة والصدقة حتى يأخذ الفقير نصيبه من مال الغنى وفى هذا حد لتصاعد الملكية .

٨ — ينظر الاسلام الى التملك على أنه مجرد وظيفة اجتماعية ودينية يقوم صاحبها بانفاق المال على مستحقيه « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

يقول الدكتور على عبد الواحد وافى :

يقرر الاسلام الملكية الفردية ويحيطها بسياج من الجماعة وبذلك أقام أمام الفرد سبيل التملك والحصول على المال ويشجع على العمل ويعطى لكل مجتهد جزاء اجتهاده من ثمرات الحياة ويفسح المجال أمام المنافسة والرغبة فى التفوق والطموح فيحقق تكافؤ الفرص بين الناس ، ويقلم فى نفس الوقت أظفار رأس المال ويحرره من وسائل السيطرة والنفوذ دون أن يشل حركته أو يعوقه عن القيام بوظيفته بوصفه عاملا هاما من عوامل الانتاج ويعمل على استقرار التوازن الاقتصادى ويقلل الفوارق بين الطبقات ، ويحول دون تجميعها فى أيد قليلة .

والمقصود بالمساواة فى الاقتصاد الاسلامى تحقيق تكافؤ الفرص بين الناس فينال المجتهد جزاء اجتهاده وثمرة أعماله وبذلك يتحقق التوازن الاقتصادى وتنمحى الفروق الطبقية ويحصل التقارب بين مختلف الطبقات حتى لا تتضخم الثروات وتتجمع فى أيد قليلة .

ثالثا : أقامت الرأسمالية قاعدتها على ملك الفرد المطلق ، وأقامت الماركسية قاعدتها على ملكية الدولة باسم الجماعة ملكا صوريا دون الفرد وهى ملكية زائفة ، بينما جمع الاسلام بين الفرد والجماعة عكسا وطردا ولم يغفل حق أحدهما ، وتقوم الشيوعية بالغاء الملكية الخاصة

متجاهلة الفطرة الانســانية وقوة غريزة التملك فيهــا ، وتقوم الرأسمالية باطلاق الملكية الفردية اطلاقا شديدا .

أمــا الاسلام فهو يجتمع بين الملكية العــامة والملكية الخاصة فى حدود وضوابط ، فقد أقر الاسلام الملكية الخاصة وفرض عليها عدة قيود وأوجد الملكية العــامة بالقدر الذى تتطلبه احتياجات المجتمع ، وبينمــا اعتمدت الرأســمالية على الاستعمار والتســلط ، واعتمدت المــاركسية على العنف والقهر اعتمد الاســلام على الفطرة والرحمة والاخاء البشرى العــام ، وبينمــا تقرر الماركسية أن الفكر يســبق المــادة يقرر الاسلام أن الفكر والمــادة كلاهما يتبادلان الحركة ولا يسبق أحدهما الآخر .

وتعتمد الماركســية على الصرأع بين الطبقــات والصراع الدموى وســيلة لتحقيق أهدافها التسلطية ولا يقر الاســلام صراع الطبقات بل يرى تلاقيهــا وتكاملها وتعاونها .

ومن الحق أن يعرف شــبابنا فى مقاعد الدرس فى المدارس والجامعات على طول العــالم الاسلامى وعرضه هذه الحقائق ، ويؤمنون بأن للاسلام نظاما للاقتصــاد يختلف عن النظرية الرأســمالية الليبيرالية والنظرية الاشتراكية المــاركسية وأن النظام فى الاسلام أكثر شمولا وعدلا ورحمة ، وأنه من عند الله تبارك وتعالى خالق الانســان والعليم بتكوينه وتشكيله ، والجامع بين الروح والمــادة العقل والقلب وبوصــفه مسؤولا مسؤولية فردية أمام الله وملتزما أخلاقيا أمــام الجماعة ومؤمنا بالســعى لاقامة المجتمع الربانى ومســئولا بعد الموت بالبعث والجزاء الاخروى .

الفصــل الخامس عشر

الفلسفة اليونانية والفكر الاسلامى

* فساد الادعاء بأن الفكر الاسلامى خضع للفكر اليونانى • • •

* مؤامرة نقل الفلسفة اليونانية الى الفكر الاســلامى فى العصر الحديث • • •

* * *

دعويان طرحهمـــا التغريب والغزو الثقـــافى لتزييف أصـــالة الفكر الاســـلامى ، القرآنى المصـــدر •

أما أولاهما : أن الفلسفة اليونانية هى مصـــدر الفلسفة العربية • • وأمـــا الثانية : فهى القول بأن المسلمين أخذوا الفلســـفة اليونانية وبنوا عليهـــا مفاهيم ومصطلحاتهم فى الفقه والنحو والبلاغة •

وقد ارتفعت الصيحة بأن أرسطو هو شيخ الفكر الاسلامى ، وأن المســـلمين اعتبروه كذلك وان الازهر قد اعترف له بهـــذه المنزلة ، وبذلك دعا لطفى الســـيد وطه حســـين وغيرهما ، ان اســـاس النهضة الحديثة فى العالم الاسلامى هى احياء الفلسفة اليونانية كمصـــدر لها ، متى كانت الامة الاســـلامية قد أخذت هـــذه الفلسفة اليونانية أساسا لفكرها فى الماضى ، ولمـــا كانت ثمرة الفلسفة اليونانية : الفلسفة الغربية الحديثة ، فان على المسلمين أن يأخذوا فى العصر الحديث هـــذه الفلسفة الغربيـــة بالتبعيـــة •

ولا ريب أن هـــذه الدعوى باطلة ومضـــللة ، فان الفلسفة اليونانية مـــا كانت يوما أساسا للفكر الاســـلامى ، وأن الفلسفة الغربية المعاصرة لن تكون أساســـا للفكر الاســـلامى الحديث ، الذى تحرر من مدرســـة

التغريب التى كانت تعلى من شـأن أراء المعتزلة وتراها مصـدر النهضة ، لان الاعتزال فى مصـدره كان يونانيا بينمـا كانت المدرسة الاصـيلة التى ظفرت بالزعامة الحقة فى العصر الاول ، وهى التى ستنتصر فى معركة هـذا العصر ان شاء الله ، « المدرسة القرآنية » وحدها ، التى تستمد نهجها ومصـادرها من المنابع الاولى وحدها : القرآن والسنة • وليست فى حاجة الا الى جهد وجهاد ، ويومئذ ينصرها الله •

ومن يراجع تاريخ دراسـة الفلسـفة فى العصر الحديث ، يجد أن الجامعة المصرية القديمة بدأت بدراسـات للكونت دى جلازرا الذى فاجأ تلاميذه العرب والمسلمين منذ اليوم الاول بأنه لا توجد فلسفة عربية ، وانما هـذه الفلسفة المنسوبة الى (الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد) ، هى فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية •

وكان ارنست رينان قد ردد هـذا فى كتبه ، على نحو يراد به انكار فضل الاسلام فىميدان الدراسات العقلية،ونسارع فنقول أن الشيخ مصطفى عبد الرازق — شـيخ الازهر الاسبق — ما لبث حين تولى تدريس الفلسفة فى الجامعة المصرية أن أعلن : أن الفلسفة الاسلامية تبدأ بالامام الشافعى ، فى كتـابه (أصول علم الفقه) ، وأن الامام الشافعى هو أول الفلاسـفة فى الاسـلام ، وأن مقامه فى العربية هو بمثابة مقام أرسـطو فى الفلسفة اليونانية ، وأن أمثـال الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد ، هؤلاء هم المشـاؤون المترجمون للفلسفة اليونانية الى اللغة العربية فحسب •

ولقد جاء ذلك بعد استشرت دعوى لطفى السيد ، الذى ترجم باسمه كتاب علم الاخلاق لارسـطو (ترجمة بارتلمى سانتهلير) وعلم السياسة ، وجاء طه حسين فأدخل اللغة اليونانية مـادة أساسية فى كلية الآداب ، بغير ضرورة ملحة لذلك ، وتعالت صـيحة الفكر اليونانى فى مصر ، وترجمت مؤلفات وكتب ومسرحات وأسـاطير كثيرة بقصد غزو هـذا الفكر الوثنى من جديد للفكر الاسـلامى المعاصر ، وقد تحرج المسـلمون فى الصـدر

الاول من ترجمته ، واعتبروه ثقافة خاصـــة لليونان ، وعرفوا أنه مستمد من عالم الاصنام عند اليونان •

ولكن مدرســة التغريب كانت حريصــة على اغراق المسلمين فى هذا الاتون ، فى نفس الوقت الذى اطرحت النهضــة العلمية الاوربية منــذ القرن الخامس عشر ، فلسفة أرســطو ومنهجه اليونانى ، فى مقابل الاخذ بالمنهج التجريبى الاســلامى ، الذى أنشأ الحضارة الغربية المعاصرة •

ولقد هاجم فلاســفة الغرب فلســفة أرسطو بنفس العبــارات والنصوص التى عارض به منهجه آئمة المســلمين فى القرن الرابع الهجرى ، حين أعلنوا : أن الفلســفة اليونانية تمثل (أرجانون) خاص للعبوديــة اليونانيــة والوثنية الاغريقية ، وأن هــذا (الارجاون) مخالف لنهــج الحضارة الاسلامية ، القائم على التوحيد الخالص وعلى الاخاء البشرى ، فقد حرر الاسلام العقل الاســلامى من الوثنية ، وحــرر الانســان من العبودية التى عرفتهــا حضارات الرومان واليونان والفراعنة والفرس ، « جئنا نخرج الناس من عبادة العبــاد الى عبادة رب العباد » — النعمان بن مقرن فاتح نهاوند وشهيد معركتها — وفى نفس الوقت الذى أخذ الغرب فيه المنهج التجريبى الاسلامى لبناء حضــارته ، فأنه أراد عن طريق حركة التغريب الغازية أن يربطنا بمنهج أرســطو الذى لفظته حضارة الغرب ، حتى ندور فى هــذه الدائرة المظلمة •

وقد حاول التغربيون تحسين هذه المؤامرة لنا ، حيث نجد « أستاذ الجيل » أحمد لطفى السيد يقول فى مقدمة كتابه المترجم عن أرسطو : « مع أن نقل كتب الفلسفة لم يكن مقصورا عــلى كتب أرسطو ، فان فلســفة أرسطو هى التى غلبت على الفلسفة العربية وطبعتها بطابعها ، والواقع أن الفلسفة العربية ليست شيئا آخــر غير فلسفة أرســطو طاليس بالطابع العربى ، وسميت الفلسفة العربية ، وبقيت صــلة النسب بين الفلسفتين طيبة الى حد أن الجامعات الاوربية فى العصور الأخيرة من القرون الوسطى

كانت تدرس الفلسفة العربية باعتبار أنها فلسفة المشائين ، أى فلسفة أرسطو » .

وقد علق الدكتور يعقوب صروف فى المقتطف (يناير ١٩٢٥) ، على هذا المعنى فقال : ان ما قاله الاستاذ — (يعنى : لطفى السيد) — يؤيده الكتاب الاوربيون الباحثون فى الفسلفة العربية ، واستشهد بما يقوله الاسيكس وليم رتس : ان ما يعرف بالفلسفة العربية ليس فيه من العربية سوى الاسم واللغة ، فهو فكر يونانى منظم ، عبر عنه بلغة سامية ، وحور بالمؤثرات الشرقية ، وأدخل بين أهل الاسلام بمؤازرة الواسعى الصدر من خلفائهم ، بقى حيا بغيرة جماعة من المفكرين — الذين لم يخشوا من المجاهرة بآرائهم على أن أمتهم أساءت به الظن واضطرتهم لهجره .

ثم ذكر لطفى السيد ما يراه سببا فى رجوع العرب والمسلمين والمصريين الى فلسفة أرسطو ، فقال « وكما ان النهضة الاوربية الحديثة عمدت الى درس فلسفة أرسطو عن نصوصها الاصلية ، فكانت مفتاحا للتفكير العصرى الذى أخرج كثيرا من المواهب الفلسفية الحديثة ، فلا جرم أن نتخذ نحن من فلسفة أرسطو — لا سيما أنها أشد المذاهب ائتلافا ، والطريق الاقرب الى نقل العلم الى بلادنا وتأقلمه فيها — رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية .

وقال ان فلسفة المعلم الاول خالدة ، ما حدها وطن ولا أخنى عليها زمن ، فقد بنت عليها كل مدينة صروح مجدها العلمى حتى مدينتنا الجديدة .

هذا هو الاتجاه عام ١٩٢٥ ، فى نفس العام الذى تحولت فيه الجامعة الاهلية الى جامعة رسمية ، وجىء بلطفى السيد الذى وصفه تلاميذه وأتباعه ، بأنه أستاذ الجيل ، رئيسا للجامعة ، وجاء طه حسين وغيره يدعون الى الايمان بفكر ووثنية اليونان وأرسطو .

فهل كان حقا (لطفى السيد) أستاذ الجيل ، صادقا فيما قال ؟؟ وفيما

دعا اليه العرب والمسلمين من اتخاذ أرسطو منطلقا الى النهضة الجديدة ؟؟ وكانت كتابات طه حسين وغيره من بعده ، دعوة ملحة الى هذا الطريق ؟ أم أن الأمر كان فيه شبهة أو خدعة •

هل كان حقا أرسطو هو منطلق الحضارة الغربية فى عصر النهضـة وما بعدها ، أم أن أول عمل قامت به هذه النهضة هو نقض أرسطو وتزييفه والحملة على منهجه ، واعتبار منهجه عامل التجميد الذى عاش فيه الغرب معتقلا قرونا ، حتى جاء منهج التجريب الاسلامى ، الذى أطلق الطاقات على عصر العلم الحديث •

ندع هذا للباحثين ، لقد كان انبعاث مناهج علماء المسلمين انطلاقا من القرآن ، وهم الذين أنشأوا المنهج العلمى التجريبى ، الذى كان أول حجر فى بناء الحضارة والعلم بشهادة : درابر وبريفولت ، وجوستاف لوبون فى العصر السابق ، وسارتون وهونكة وجارودى وبوكاى وغيرهم ، فى العصر الحديث ، وآخر كتاب فى هذا الشأن عنوانه : « شمس الله تشرق على الغرب » وكتاب « أوربا ولدت فى آسيا » •

اذن فلم يكن أستاذ الجيل — لطفى السيد صادقا ، ولم يكن عميد الأدب — (طه حسين) — أمينـا حين نقلا الينا هـذا المعنى ، ذلك أن المسلمين نقدوا أرسطو أولا ، ثم جاء الغربيون فنقدوه ورفضوه ، والتمسو منهج المسلمين ، الذى رفعهم الى ذروة التكنولوجيا الآن •

اذن فلماذا هذا التعارض ؟ يسأل عن هذا « الاستشراق » والاستعمار ذلك بأنهم ، على حد تعبير الدكتور محمود قاسم : « نقلوا المسلمين الى أرسطو ، ونقلوا أنفسهم الى منهج المسلمين (جابر وابن الهيثم والبيرونى) ذلك أن أرسطو هو الذى سيضع المسلمين مرة أخرى داخل القوقعة المنطقية التأملية المظلمة « قوقعة المنطق الصورى » ويحرمهم من ثمـرات منهج التجريب ، الذى سموه بلغتهم « براجماتيزم » والذى أنشأوه هم ونماه

الغرب • وهكذا نجد أن هذا المنطلق على يد طه حسين ، وجماعة من أتباعه ، يتسع ويمتد حتى يقرر : أن العرب خضــعوا لمنهج اليونان وأرسطو فى القديم ، ولما كان الفكر الحديث هو ثمرة فكر اليونان ، فان تبعية المسلمين له لا تعد شيئا جديدا ولا غريبا ، لأنهم كانوا تابعين لليونان ، فلا عجب أن يتبعوا ما جدده أحفاد اليونان • لم يكن أستاذ الجيل صادقا اذن ؟ ولم يكن الدكتور طه حسين صادقا فى هذا ، فان المسلمين لم يقبلوا أرسطو ولم يعتنقوا فكر اليونان ، وانما العكس هو الصحيح ، ذلك أنهم قاوموه ونقدوه وأبانوا عن وجوه الخلاف العميق بينه وبين منطق القرآن ، لقد تصــدى لهم كثيرون ، من أبرزهم الغزالى وابن تيمية •

واذا كان الخلاف ما زال واسعا حول ما كتبه الفارابى وابن سينا ، وهل هو فلسفة اسلامية ، أو متابعة للمشــائين اليونان من المشــائين المسلمين ، فان رجلا كريما قد ولى قسم الفلسفة فى كلية الآداب ، هو الامام الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق — شيخ الازهر الاسبق — قــد فصل فى هذا الامر على نحو صحيح ، ومن خلال دراساته فى الجامعة نفسها ، وبالرغم من سيطرة طه حسين على عمادة كلية الاداب حين ذاك ، فان الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق ، أعلن فى حسم هذه القاعدة التى غيرت منهج البحث كله حين قال : « ان الفلسفة الاسلامية انما تلتمس فى كتب المتكلمين والفقهاء ، وان الامام الشافعى واضع أصول علم الفقه ، هو أول الفلاسفة فى الاسلام ، وان مقامه فى العربية ، هو بمثابة أرسطو فى اليونانية •

وبذلك نشأت « مدرسة الاصالة » ، فى مجال الفلسفة ، وامتدت من بعد واتسعت وكان من أتباعها الخضيرى ومحمد عبد الهادى أبو ريدة وعلى سامى النشار ، ومنذ ذلك الوقت صدر كتاب (تمهيد فى تاريخ الفلسفة الاسلامية) عام ١٩٤٧ ، وقد كان منهجه قد تقرر قبل ذلك بوقت طويل •

وقد تحررت الفلسفة من التبعية الغربية ، وبرزت مدرسة الاصالة فيها ، وهو ما يزال عسيرا أن يحدث مثله فى مجال الادب والنقد الادبى ، فان التبعية لمذاهب النقــد الغربى الوافــد ما زالت قوية •

ولقد أثبتت « مدرسة الاصالة » فى الفلسفة الاسلامية — (عبد الرازق أبو ريدة ، النشار) — ان المنطق الارسطاليسى : — منهج الحضـــارة والفكر اليونانى — لم يقبل فى المـــدارس العقلية الغربية ، وان المنهج التجريبى الاسلامى هو الذى عرفته أوربا — بعد قرون من مطلع حضارتها الحديثة — لمباينته للحضارة اليونانية . وأن اكتشاف وجود هذا المنهج لدى المسلمين ، يفسر « روح الحضارة الاسلامية » ، فالحضارة الاســـلامية حضارة عملية تجريبية ، تتجه الى تحقيق الفعل الانسانى ، فى ضوء نظرية حية ملموسة كذلك •

وقـــد كشفت الابحاث المتعددة عن اضطراب خطير فى المراجع التى اعتمد عليها الفارابى — وباعتراف الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا — « ان الفكر الذى نقل الى المسلمين من اليونان والاغريق ، لم يكن صحيح الاصول بل كان صورة زائفة دخلت عليها مفاهيم السريانية والنساطرة المترجمين وعقائدهم ، وكانت تهدف الى خدمة المفاهيم الدينية المسيحية ، ومن هنا كان فسادها وعجزها عن أن تعطى الفكر الاسلامى شيئا •

ومن ناحية أخرى فقد تبين أن المقاومة للفلسفة اليونانية — ومذهب أرسطو بالذات — قد بدأت منذ أن تمت الترجمة ، وأن المعارضة بدأت منذ اليوم الاول ، ذلك أن الفكر الاسلامى كان قد تم تشكيله قبل الترجمة . على أساس قيمه القرآنية من التوحيد والاخلاق ، ومن الربط بين الوحى والعقل • لذلك فانه كان من العسير أن تنصهر فيه الفلسفة اليونانية أو ينصهر فيها ، خاصة وهى فلسفة مجتمع وثنى قام على العبودية واعلاء العقل وعبادة الجسد ، فضلا عن محاذير الترجمة من فساد وانتحال وتحريف النصوص • وان كانت طائفة من الفلاسفة أطلق عليها اسم المشـــائين المسلمين ، قاموا بمحاولة شاقة وعسيرة ، لادخال الفلسفة اليونانية فى اطار الاسلام ، ولكن المحاولة فشلت تماما •

وكانت وقفة الامام الغزالى فى وجه الفلسفة الالهية اليونانية وقفة صارمة ، ردت السهم الى نحور أصحابه ، فقد كشف الفرق بين الفلسفة الرياضية والفلسفة الطبيعية ، وبين الفلسفة الالهية ، ورفض الاخيرة لأنها تتعارض مع التوحيد الخالص قاعدة الاسلام ، وأعلن أن الكلام فى الطبيعيات برهانى ، أما فى الالهيات فهو تخمينى • وفى الفلسفة الالهية عارض الغزالى القضايا الكبرى الثلاث التى تقرها الفلسفة اليوانية ، وتختلف مع مفاهيم الاسلام •

ما يقولون به من قدم العالم ، وان الله (جل وعلا) لا يحيط علما بالجزئيات ، وانكارهم البعث ، وهاجم الفلاسفة الذين جحدوا الصانع ، وزعموا أن العالم قديم ، كالدهرية والزنادقة ، والذين قالوا أن النفس تموت ولا تعود ومن أنكروا الآخرة •

هذا وقد كشف الامام الغزالى بالنسبة للفارابى وابن سينا وجهة نظر أخرى ، حين عرفت روابطهم بالدعوات الباطنية الهدامة ، واخوان الصفا ، وغيرهم من الذين كانوا على اتصال بأعداء الدولة الاسلامية من قرامطة ومزدكية وغيرهم ، وفى كتبهم نصوص توحى بهذه الصلة •

آراء ابن تيمية

ثم جاء الامام ابن تيمية ، فاستحالت غربا ، فقد كشف كتابه : (الرد على المنطقيين) عن أن الفكر الاسلامى له منطق خاص ، مستمد من القرآن والسنة ، وقد استخرج منه قواعد هذا المنطق الجديد ، الذى أسـماه : (المنطق الاسلامى) • وقال ان هذا المنطق كان فيه غنى للمسـلمين عن العقلية الغربية فى الحكم على الاشياء ، وفى الاستبصار والتأمل الفلسفى — المنطق التصورى — ورد على المنطقيين الذين استحكمت فى عقولهم آثار الفكر اليونانى وطوابعه ، وعزلها عن الاقتباس من فلسفة القرآن والحديث النبوى ومنطقهما ، وممـا قاله : ان ما عند أئمة النظار من أهل الكـلام والفلسفة من الدلائل العقلية ، فقد جاء القرآن بما فيها من الحق ، وما

هؤلاء • ويقول الدكتور النشار :
هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه ، منزها من الاغاليط الموجودة عند

كان ابن تيمية رائدا لكل الاتجاهات الحديثة فى نقد منطق أرسطو ، من ارجانون فرنسيس بيكون الى الفلسفة الوضعية • وقد عنى بنقد فلاسفة الاسلام كالفارابى وابن سينا وابن رشد ، وكل من وافقهم على التشيع لمنطق أرسطو ، وأشار الى عبث محاولتهم وعقم تجربة التلفيق عندهما (الفارابى وابن سينا) بين الاسلام والافلاطونية المحدثة ، ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الاسلام من الداخل •

ومما عرف فى هذا المجال — وهو كثير : كتاب (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) بقلم محمد بن ابراهيم الوزير الحسنى اليمنى الصنعانى المتوفى ٨٤٠ هـ •

وبعد : فقد كان لابد لمدرسة الاصالة أن تواجه المدرسة التى ما تزال تعلى من شأن المدرسة اليونانية ، والتى تبلورت بعد فى مدرسة طه حسين ، بيومى مدكور حيث يقول مدكور : أن ارجانون أرسطو أثر فى مختلف المدارس ، كلامية وفقهية وعلمية وفلسفية ، بينما يقول الدكتور النشار : ان المنطق الارسطاليسى ، قد نقل الى العالم الاسلامى ، وأثر فقط فى المدرسة المشائية الاسلامية ، وبقيت المدارس الاخرى المنبثقة عن النظام الاسلامى بعيدة كل البعد عنه ، تحاربه وتجاهده ، وكانت قد وضعت منطقا مختلفا تمام الاختلاف فى روحه وجزئياته •

ان سيادة منطق أرسطو انما بدأت حينما تداعى الفكر الاسلامى فى القرن الخامس ، فاختلط بما يسمى ، علوم اليونان ، لكن ذلك لم يوافق دوائر الفقهاء الآخرين ، ولم يوافق متكلمى الاشاعرة من ناحية ومتكلمى السلف من ناحية أخرى ، على استخدام هذا المنطق فحاربوه أشد الحرب •

ويقول الدكتور النشار : ان محاولة الفارابى كانت غريبة عن روح

الاسلام وعن تفكيره وعن منهجه العام ، وان فلسفة الاسلام انما تنبثق من الاسلام نفسه : عن القرآن وعن السنة ، لا عن محاولة للتوفيق والتنسيق والتلفيق ، وان فلاسفة الاسلام المشائين قد ابتعدوا عن الاسلام روحا ونصا • وعن المجتمع الاسلامى فكرا وعقيدة وحياة ، وأن الفلسفة المشائية ماتت فى العالم الاسلامى منذ عهد بعيد •

ويقول الدكتور النشار : ان مدكور يرى فلسفة اليونان غاية الغايات وان اليها يعود كل فكر ، ويرى أن فكرنا الاسلامى المعاصر ينبغى أن يرتبط بفلسفة أوربا وحضارتها ، تحت تأثير الدعوة الخاطئة التى قدمتها مدرسة طه حسين ، على مسرح تفكيرنا ، والتى تقول أنه ما دام أسلافنا قد أخذوا بفلسفة اليونان ، وبما أن فلسفة أوربا وحضارتها هى امتداد لهذه الفلسفة فعلينا أن نأخذ من هذه المدرسة الاوربية كل شىء » أ • ه •

وهكذا تبين الرشد من الغى وسقط منهج الاستشراق •

آفــاق البحث

